

أ.د. جمال حسن تميم

محمد حرب

محمد حرب

محمد عفيفي عبد الله

جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم التاريخ

ألبانيا فى ظل الحكم العثمانى
(١٤٧٨ - ١٩١٢)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الحديث

إعداد الطالب
أشرف نبيه عبد الجليل

إشرا ف

الأستاذ الدكتور/ عادل حسن غنيم
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس

الدكتور/ عراقى يوسف محمد
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م

جامعة عين شمس

كلية الآداب

رسالة ماجستير

اسم الطـــالب : **أشرف نبيه عبد الجليل**

عنوان الرسالة : **البانيا فى ظل الحكم العثمانى**

اسم الدرجة (ماجستير)

لجنة الإشراف

١ – الاسم : أ. د/ **عادل حسن غنيم** الوظيفة : استاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس

٢ – الاسم : د/ **عراقى يوسف محمد** الوظيفة : مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس

تاريخ البحث : / /

الدراسات العليا

ختم الإجازة

/ / ٢٠٠

اجيزت الرسالة بتاريخ ٩ / ٦ / ٢٠٠

موافقة مجلس الكلية

/ / ٢٠٠

موافقة مجلس الجامعة

/ / ٢٠٠



كلية الآداب

اسم الطالب : أشرف نبيه عبد الجليل

الدرجة العلمية : الماجستير

القسم التابع له : قسم التاريخ

اســـم الكلية : الآداب

الجامعـــــة : عين شمس

ســـنه المنح : ٢٠٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الشعب الألباني هو أحد الشعوب الإسلامية في أوربا ، وقد يجهل تاريخه كثير من المسلمين ، رغم أن هذا الشعب الذي استوطن منطقة البلقان منذ مئات السنين قبل الميلاد ، له تاريخ و حضارة عريقتان ، لا يقلان أهمية عن تاريخ و حضارة الرومان والفينيقيين و المصريين ، وغيرهم من أصحاب الحضارات القديمة المعروفة.

وقد دخل الألبانيون في حوزة الدولة العثمانية منذ القرن الخامس عشر الميلادي، واعتنق غالبيتهم الدين الإسلامي رغبة منهم وطواعية ، وساهموا بعد ذلك بجهود بارزة وملموسة في نشره والدفاع عنه ، وفى خدمة الدولة العثمانية ، والحفاظ على كيانها باعتبارها دولة الإسلام ، ولقد تعرض هذا الشعب للاضطهاد والقهر من القوى الأوربية في فترة ضعف الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر ، ثم سقوطها في الربع الأول من القرن العشرين ، واقتطعت أجزاء كبيرة من الأراضي الألبانية عنوة بهدف إضعاف هذا الشعب وتفتيت قوته لحساب الدول المسيحية المجاورة كاليونان والصرب ومقدونيا والجبل الأسود وغيرها .

كانت الدولة العثمانية عرضة للمؤامرات الأوربية التي انتهت بإسقاطها،ولم تقف تلك الدول عند ذلك الحد، بل إنها تعمدت بعد ذلك من خلال مؤرّخيها وكُتّابها تشويه صورة هذه الدولة ، وتزييف تاريخها ، وإلصاق التهم بها ، ووصفها بأنها دولة دموية ، استولت على البلاد التي فتحتها عنوة ، وأجبرت أهلها على اعتناق الإسلام ، وقامت بتطبيق نظم وقوانين مخالفة لشعوب هذه البلاد ، وأنها لم تقدم جديداً لهم ، بل تسببت في تراجُعهم وتخلفهم ، وغيرها من التهم والأباطيل التي تنطلق من مشاعر الكراهية و العداوة .

ومن هنا كان اختياري لهذا الموضوع " ألبانيا في ظل الحكم العثماني " لسببين :
أولهما : دراسة تاريخ الشعب الألباني ، والوقوف على دوره التاريخي و الحضاري

وإسهاماته المتعددة في خدمة الدولة العثمانية ، في مجالات الإدارة و السياسة وقيادة الجيوش العسكرية وغيرها من المجالات ، والأسباب الحقيقية لالتهام أراضي هذا الشعب وتوزيعها وتشريد أبنائه بين الدول المسيحية المجاورة .

ثانيهما : أخذ ألبانيا كنموذج للحكم العثماني في أوربا ، ودراسة أحوالها السياسية والاقتصادية و الاجتماعية والثقافية في ظل ذلك الحكم ، للكشف عن حقيقة المزاعم التي أُلصقت بالدولة العثمانية كما سبق الإشارة إليها ، وتفنيد تلك المزاعم للوصول إلى الحقيقة التاريخية .

والجدير بالذكر أن هذه الدراسة لا تشمل دولة ألبانيا الحالية فقط ، وإنما دراسة المنطقة التي كان يقطنها الشعب الألباني طوال تاريخه قبل تمزيقها ، وهي المنطقة الممتدة من البحر الأدرياتيكي غرباً لتشمل ألبانيا الحالية وإقليم كوسوفا ، وجزء من مقدونيا ، وشمال اليونان في الشرق ، وشريط حدودي مع الجبل الأسود ، أما ألبانيا الحالية فهي رقعة صغيرة ، قامت عليها الدولة بتخطيط وموافقة الدول الكبرى سنة ١٩١٣م .

ولقد استعنت في دراستي بعدد من المصادر والمراجع الأجنبية ، على رأسها المصادر العثمانية و التركية ، ثم الألبانية و الإنجليزية والعربية ، وقد تيسر لي السفر إلى تركيا وإحضار العديد من هذه المراجع ، بعد إطلاعي عليها في عدد من المكتبات والمراكز العلمية التاريخية باستا نبول ، مثل مكتبة القصر السلطاني ، ومكتبة السليمانية ، ومكتبة جامعة إستانبول ، ومركز أبحاث التاريخ والعلوم والفنون التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي ، وأرشيف رئاسة الوزرا ء ، Osmanli Arşivi Dire Başkanligi الذي يحوى وثائق الدولة العثمانية .

وقد واجهتني في هذه الدراسة صعاب كثيرة كان أبرزها قلة الكتابات العربية في هذا الموضوع ، أما المشكلة الثانية بعد حصولي على المراجع الأجنبية فكانت عدم درايتي باللغتين الألبانية و التركية ، ومن ثم فقد تمت ترجمة هذه المراجع لدى المتخصصين ، فالمصادر التركية تُرجمت بمركز دراسات العالم التركي ، بينما قام

بعض الدارسين والباحثين الألبان في جامعة الأزهر بترجمة المراجع الألبانية ، وذلك للقيام بدراسة متعمقة ومستفيضة ، تضيف جديداً في حقل الدراسات التاريخية .

وقد اشتمل هذا البحث على تمهيد جغرافي وتمهيد تاريخي وأربعة فصول وخاتمة على النحو التالي :

في التمهيد الجغرافي تم التعريف بدولة ألبانيا الحالية من حيث موقعها ومساحتها وسكانها ، ومظاهرها الطبيعية ، ونظامها السياسي .

أما التمهيد التاريخي فقد جاء في مبحثين :

المبحث الأول ، تناولت فيه أولاً :الحديث عن أصل الألبان موضحاً الآراء التي قيلت حول هذا الموضوع ، والوصول إلى أصح الآراء ، ثانياً : توضيح اشتقاق اسم الألبان ، والأسماء التي أطلقت عليهم على مر تاريخهم .

وفي المبحث الثاني ، تناولت أحوال الألبان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية قبل الحكم العثماني ، وفي ذلك المبحث تم استعراض تاريخ الألبان منذ مئات السنين قبل الميلاد ، والقوى السياسية التي احتلت بلادهم حتى مجيء العثمانيين ، وأوضاعهم الاقتصادية من صناعة وزراعة وتجارة في تلك الفترة ، وحياتهم الاجتماعية ، وعاداتهم ومعتقداتهم الدينية .

أما الفصل الأول فقد جاء في مبحثين :

المبحث الأول ، تضمن فتوحات وتوسعات العثمانيين في شبه جزيرة البلقان والمعارك التي خاضوها وأهم التكتلات العسكرية التي واجهوها حتى دانت لهم المناطق البلقانية .

وفي المبحث الثاني ،كان الحديث منصباً على فتح ألبانيا ، بدايته ، والظروف التي تم فيها والحملات العثمانية التي وجهت إليها ، والمقاومة التي لاقوها في بعض المناطق وتمرد إسكندر بك ، والحديث مفصلاً عن ذلك الرجل ، نشأته ، وشبابه ، وتمرده علي الدولة العثمانية ، وتقييم حركته .

أما الفصل الثاني فقد جاء في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول ، تناول النظام الإداري الذي طبقه العثمانيون في المناطق الألبانية وتنظيم هذه المناطق بطريقة يسهل إدارتها ، وأهم الموظفين والإداريين الذين أولت إليهم الدولة العمل بهذه المناطق .

والمبحث الثاني ، تناول الوضع الاقتصادي في ظل العثمانيين وفيه دراسة عن نظام التيمار ، ونظام الأعيان والزراعة وتطورها ووضع الفلاح وتحسنه الملحوظ ، وحالة الصناعة وما طرأ عليها وأهم الصناعات وحال العمال وأصحاب الحرف ، والمدن وما شهدته من تجديد وازدهار وتطوير ، وأخيراً التجارة وأهم السلع الواردة والصادرة التي اشتغل بها التجار الألبان .

وفى المبحث الثالث ، ناقشت حياة الألبانيين الاجتماعية ونظامهم العائلي القبلي والقوانين العرفية والعادات التي ساروا عليها،وموقف الدولة العثمانية من هذه القوانين والعادات .

أما الفصل الثالث فقد جاء في خمسة مباحث :

المبحث الأول ، تناولت فيه الحياة الثقافية وفى مقدمتها اللغة الألبانية ، أصولها وتطورها والتغييرات التي مرت بها ، ثم النهضة الفكرية والأدبية التي شهدتها ألبانيا في ظل الحكم العثماني ، ودور المدارس والكتاتيب والمكتبات والمجالس العلمية التي أنشأتها الدولة وشجعت عليها في هذه النهضة .

أما المبحث الثاني ، فقد تناول الحياة الدينية ، وناقشت فيه أولاً : سياسة العثمانيين الدينية تجاه رعاياهم في أوربا بوجه عام ، وثانياً : عوامل انتشار الإسلام بين الألبانيين.

أما المبحث الثالث ، فتناولت فيه سياسة الدولة العثمانية تجاه الكاثوليك والأرثوذكس في ألبانيا .

أما المبحث الرابع ، فقد تعرض لدراسة الطريقة البكتاشية ، وهى إحدى الطرق الصوفية الشهيرة في البلقان ، ودورها في الحياة الدينية و السياسية في ألبانيا ، والتعريف بنشأتها وأفكارها ، وأهم دعاتها ، وموقف الدولة العثمانية منها .

وفي المبحث الخامس ، تناولت الرابطة القومية الألبانية "رابطة بريزرن" ودورها في ألبانيا ، وأهم أعضائها .

وفى الفصل الرابع ، ناقشت أهمية دور الألبان في خدمة الدولة العثمانية من خلال الوظائف والمناصب الإدارية والسياسية والعسكرية ، وينقسم هذا الدور إلى : المرتبة العليا كصدور عظام (رؤساء وزارات) ، ثم كولاة في كثير من أقاليم الدولة ، ثم قادة عسكريين ، وقادة للأساطيل ، وأخيراً دورهم كجنود وفرق عسكرية انتشرت في كل أقاليم الدولة العثمانية .

أما الخاتمة فقد تناولت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج و استخلاصات لهذه الدراسة .وفى نهاية الأمر أرجو أن أكون قد وفقت في إخراج عمل تاريخي رصين يكون نواة لعمل آخر أفضل منه ، ويكون إضافة جديدة للبحث التاريخي ، و أدعو الله عز وجل أن يجزى أستاذيّ المشرفين كل الخير ، لما بذلوه معي من جهد مشكور ، وصبر ، وإرشاد وتصويب ، ومتابعة دائمة فلهما كل التقدير والشكر .

الأستاذ الدكتور/عادل حسن غنيم ، والدكتور/عراقي يوسف محمد

كما أتوجه بالشكر لكل من أسدى إلى عوناً و مساعدة في هذا العمل وأخص في ذلك الأستاذ الدكتور / محمد حرب ، الذي أتاح لي فرصة السفر إلى تركيا للإطلاع في مكتباتها والحصول على المادة العلمية اللازمة للبحث ،كما أشكر الأخوة الألبان من الأساتذة والباحثين والدارسين في جامعة الأزهر وعلى رأسهم الدكتور / بكر إسماعيل ممثل إقليم كوسوفا في مصر ، ورؤساء اتحاد الطلبة الألبان بمصر لدورهم الكبير في ترجمة المراجع الألبانية ،و إمدادي بالكثير منها ، ومساعدتهم الدائمة لي .

مايو ٢٠٠٥م　　　　والله ولى التوفيق .

تمهيد جغرافي :

تعريف بدولة ألبانيا الحالية

التعرف على جغرافية دولة ألبانيا الحالية قبل الدخول في موضوع البحث أمر مهم لسببين أولهما : توضيح الفرق بين ألبانيا الحالية وبين ألبانيا التي يتناولها البحث في ظل الحكم العثماني ، والتغيرات التي طرأت عليها بعد استقلالها عن الدولة العثمانية وأسباب هذه التغيرات .

وثانيهما : أن البحث عن جغرافيتها يوضح وضعها الجغرافي ، ومظاهرها الطبيعية (تضاريسها) حيث لعب هذا الوضع الجغرافي دوراً حيوياً في تاريخها منذ القدم وحتى العصر الحديث كما كان له أثر في تكوين طبائع الألبان الشخصية ، ونشاطهم الاقتصادي .

تقع دولة ألبانيا في جنوب شرقي أوربا ، وتحديداً غرب جزيرة البلقان في الجنوب الشرقي لساحل البحر الأدرياتيكي بين خطي عرض ٤٢ ، ٣٩ شمالاً تقريباً،وخطي الطول ١٩، ٢١ شرقاً . (١) ويحدها من الشمال كل من جمهوريتي الصرب والجبل الأسود ، ومن الشرق مقدونيا ، ومن الجنوب اليونان ، وتبلغ مساحتها نحو(٢٨٧٤٨) كم (١١١٠٠) ميل . (٢)

---

(١) محمود نجيب أبو الليل، ألبانيا ، القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٩ ص ١١؛

Raymond Zikel, R. Iwaskiw, Albania country study , U.S.A , 1994 , p. 8 .

(٢) محمد خميس الزوكة ، جغرافية العالم الإسلامي ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ص ٥٠٦ .

شكل (١)

خريطة دولة ألبانيا الحالية نقلاً عن :

(دائرة سفير للمعارف الإسلامية ، العددان ٢٥ – ٢٦ ، ص ٢)

وأهم مدن ألبانيا هي " تيرانا" العاصمة ، ويسكنها حوالي (٣٠٠٠٠٠) نسمة ، تليها مدينة أشقودرة ، ثم دوريس ، وكافايا ، و إلبسان ، وزبارات ، وكوارية ، وتلاشت ، وغيرها ، وأهم الموانئ بها دورازو (دوريس) ، وفلورا .

وتنقسم ألبانيا من الناحية الطبيعية إلى إقليمين رئيسيين من الغرب إلى الشرق هما:

أ : إقليم السهول الساحلية :

ويشغل هذا الإقليم النطاق الغربي من البلاد ، ويطل على البحر الأدرياتيكي ويمتد بين مدينتي دوريس Duress وفلورا Vlora ، وتخترق السهول الساحلية في عدد من المواقع بعض التلال والحافات الجبلية الممتدة من الشرق ، كما يخترقها عدة أنهار من الشمال إلى الجنوب مثل نهر "بوينى" و "درين" و" مات" و"أرزين" و " شكومبى" .

ب : إقليم المرتفعات، يشغل شرقي البلاد وينقسم إلي :

١- مرتفعات الألب الألبانية الشمالية ، التي تمتد في أقصى شمال البلاد وهى شديدة الوعورة ، وتُستغل سفوحها كمراعى جيدة (١) .

وينخفض مستوى الارتفاعات كلما اتجهنا صوب الجنوب ، حتى تصبح سفوحها أكثر استواءً حين تصل إلي نطاق هضبة " ميرديتا " .

٢ - وتستمر المرتفعات في امتدادها إلي الجنوب من هضبة ميرديتا مع ميل مستواها إلي الانخفاض وسفوحها إلي الاعتدال في نفس الاتجاه ، ويتصف هذا الجزء من إقليم المرتفعات الألبانية بكثرة الأحواض والأودية الضيقة التي تخترقه والتي تصلح للاستقرار البشرى وممارسة الزراعة .

---

١) محمد السيد غلاب وآخرون ، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ، الرياض ١٩٧٩م ، ص ٥٦٦-٥٦٨ ؛ محمد خميس الزوكة ، المرجع السابق ، ص ٥٠٧ .

٣ - القسم الأخير وهو الجزء الجنوبي الواقع إلى الجنوب من مجرى نهر " أوسوم " ويعرف باسم إقليم " إبيروس" الألباني تمييزاً له عن إبيروس اليوناني .

ويلاحظ من تتبع الخريطة الألبانية الحقائق التالية :

(١) مناعة الحدود السياسية لألبانيا ، حيث تتفق في معظم امتداداتها مع ظاهرات طبيعية ففي الشمال يتفق خط الحدود السياسية مع الصرب في كل من نهر بوينى وبحيرة اسكوتارى ، ثم جزء من جبال الألب الألبانية ، وفى الشرق مع مقدونيا توجد مرتفعات" الشار "، ونهر" دُرين "وبحيرتي "أوهريد"و" بر يسبا " وفى الجنوب مع اليونان سلاسل المرتفعات الجنوبية .

(٢) كثرة تعرجات خط الساحل ، مما أدى إلي تداخل اليابس مع المياه وظهور أعداد من اليابس داخل البحر الأدرياتيكي .

(٣) ظهور أعداد كبيرة من الخلجان البحرية ، مثل خليج دريـن في الشمال ، وخليج دوريس في الوسط ، وفلورا في الجنوب .

(٤) اتساع السهول الساحلية التى تمتد جنوب الأجزاء الداخلية .

وقد كان لهذه المظاهر الطبيعية التى تميزت بها ألبانيا دور مهم في تاريخها الطويل حيث كانت الجبال والوديان الضيقة عائقاً شديداً للغزاة لهذه المنطقة على مر التاريخ ، وقد لاقى العثمانيون ويلات كثيرة ، وفقدوا الكثير من جنودهم أثناء غزوهم لها بسبب هذه الطبيعة الجبلية ، مما أدى إلي تأخر استيلائهم وبسط نفوذهم عليها ، لدرجة أن حروهم استمرت قرابة نصف قرن ليتمكنوا من فتح جميع مناطقها . (١)

---

(١) محمد خميس الزوكة ، المرجع السابق ، ص ٥٠٧ ؛ محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص ٥٦٦ .

كما أدت هذه الطبيعة الجبلية – في فترات متباينة – إلى عزلة القبائل الألبانية عن بعضها البعض ، ومنعت التداخل والتواصل بين مناطق ألبانيا المختلفة من جهة، وبينها وبين العالم الخارجي من جهة أخرى . (١)

أما عدد سكان ألبانيا وفقاً لتعداد سنة ٢٠٠١ م ، فقد بلغ قرابة (٣٣٦٥٠٠٠) مليون نسمه .

ويشكل الألبان نحو٩٧ % من مجموع السكان ، واليونانيون حوالي ٣ %. (٢) وحسب إحصاء سنة ١٩٨٥م كان عدد السكان المسلمين يزيد على ٧٠ %، أما في الوقت الحالي فتزايدت تلك النسبة لتصل إلي ٨٠% ، ويوجد أقلية من الكاثوليك والأرثوذكس تشكل نحو ١٥ % من مجموع السكان . (٣)

وينقسم سكان ألبانيا إلي مجموعتين عرقيتين هما :

أ : الجج Gegs في الشمال

ب: التوسك Tosks في الجنوب

ويفصل بين المجموعتين نهر شكومبى ، وتنقسم كل مجموعة إلى عدد من القبائل . (٤)

---

(١) مجموعة من الباحثين ، دائرة سفير للمعارف الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٠ ، العددان ٢٥ – ٢٦ ، ص ١ .

(٢) محمد عتريس ، معجم بلدان العالم ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر، ٢٠٠١م ، ص٥٤ .

(٣) السيد محمد يونس ، الإسلام والمسلمون في ألبانيا ، كتاب صدر عن رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة عدد (١٤٣) ذو القعدة ١٤١٤ هـ ، ص ٢١ .

(4) Barbara Jelavich, History of the Balkans, Cambridge University Press , p . 83

ويتحدث سكان ألبانيا اللغة الألبانية . وهى لغة البلاد الرسميـــة ، وتنقســـم إلي لهجتين رئيسيتين هما " الجيك " وتنتشر بين سكان الشمال ، ولهجة " التوســـك " وتنتشر في الجنوب ، وتعتبر اللغة الألبانية الفصحى مزيجاً مـــن اللـــهجتين وهـــى المستعملة اليوم عند الألبانيين جميعاً . (١)

وتعد الزراعة الحرفة الرئيسية في البلاد ، حيث يعمل بها نحـــو ٤٥،٧ % مـــن جملة القوى العاملة ، وتبلغ مساحة الأرض الزراعية ٢٤,٤ % من جملة مســـاحة ألبانيا ، وأهم المحاصيل بها :

القمح ، الذرة ، البطاطس ، بنجر السكر ، القطن ، الطباق ، الأرز بالإضـــافة إلى زراعة التبغ والعنب والزيتون والفواكه المختلفة ، كما تنمو الغابات على ســـفوح المرتفعات الألبانية وتمد البلاد بثروة خشبية عظيمة . (٢)

وتغطى المراعى ٣٠ % من مساحة الأراضي ، لذلك توجد في ألبانيـــا ثـــروة حيوانية هائلة تبلغ نحو (١٦٠٠٠٠٠) رأس من الأغنام ، و (١٢٠٠٠٠٠) مـــن الماعز ، بالإضافة إلى الأبقار والحيوانات الأخرى . (٣)

ويعمل ٤٠% من سكان ألبانيا بمجال الصناعة ، وأهم الصـــناعات بهـــا هـــي الصناعات الغذائية والأسمنت،وتكرير البترول،والمنسوجات القطنية والصوفية. (٤)

---

(١) بكر إسماعيل ، اللغة العربية وأثرها في اللغة الألبانية ، القاهرة ، مؤسسة ألبابرس ٢٠٠٣م ، ص٣٨ .

(٢) السيد محمد يونس ، مرجع سابق ، ص١٥،١٤ .

(٣) محمد السيد غلاب وآخرون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٦ .

(4) Reymond Ziekel and Walter R Iwaskiw,
Op , Cit , p. 29 .

أما الثروة المعدنية في ألبانيا فيوجد منها الحديد والنحاس والكروم ، ويُعد النفط الثروة الأساسية للبلاد و يوجد بها العديد من الآبار التى تنتج النفط والغاز الطبيعي، منها آبار مستغلة منذ الاحتلال الإيطالي (١٩٣٩-١٩٤٣)م وتتمركز أغلب هذه الآبار بين مدينة بيرات والساحل الألباني (جنوب تيرانا العاصمة على نهر أوزومى) . (١)

وبالنسبة للوضع السياسي ، فإن نظام الحكم في ألبانيا يقوم على التعددية الحزبية ، ويتم انتخاب رئيس الجمهورية بأغلبية أعضاء البرلمان .

وأبرز الأحزاب السياسية الموجودة بها :-

١- حزب ألبانيا الديموقراطي .

٢- الحزب الاشتراكي (الشيوعي سابقاً) .

٣- حزب الأقلية اليونانية .

ومن الناحية الإدارية تنقسم ألبانيا إلي ست وعشرين إقليم أو مقاطعة . *(٢)

ونخلص مما سبق إلي ما يلي :

إن مساحة ألبانيا الحالية صغيرة جداً بالقياس إلى مساحة المنطقة التى كان يقطنها الألبان طوال مراحل تاريخهم ، وحتى نهاية الحكم العثماني لها ، وقد تقلصت هذه المساحة الكبيرة والتي كانت تشمل كل من ألبانيا الحالية وإقليم كوسوفا الذي اغتصبه الصرب لفترات تاريخية كبيرة حتى نال استقلاله الذاتى في الوقت الراهن ، وجزء من مقدونيا ، وجزء من شمال اليونان .*

---

(١) عبد الرحمن حميدة ، جغرافية أوروبا الشرقية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الفكر ، ١٩٨٤م ، ص ٦٥ .

(٢) محمد عتريس ، مرجع سابق ، ص٥٤ .

* أهم هذه المقاطعات " تيرانا " ، " أشقودرة" ، " كافايا " ، " إلبسان " ، "كوارية" " تلاشت " ، " كيفيكو" ، " الإبراش " وغيرها .

* اقتطعت هذه الأجزاء من ألبانيا طبقاً لقرارات مؤتمر برلين الدولي سنة ١٨٧٨. وسيرد الحديث عن ذلك في فصل لاحق من هذا البحث .

وقد كان هذا التقلص أمراً فرضته القوى الأوربية الاستعمارية التي شرعت في توزيع تركة الدولة العثمانية بعد انهيارها في أوائل القرن العشرين ، ورغبة منـــها في عدم وجود دولة مسلمة بهذا الحجم الكـــبير ، وبهـــذه الإمكانيـــات البشـــرية والاقتصادية في قلب أوربا ، حتى لا تشكل خطراً على شعوب أوربا المسيحية .

تمهيد تاريخي :

أصل الألبان وأحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل الحكم العثماني

أولاً: أصل الألبان

ثانياً: اشتقاق اسمهم

ثالثاً: أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية

أ : الحياة السياسية

ب : الحياة الاقتصادية

جـ : الحياة الاجتماعية والدينية

أولاً : أصل الألبان

أجمع أكثر المؤرخين* على أن الألبان يعودون في أصولهم إلى الإيلليريين القدماء Illyrians (١) ، وهم من أقدم العناصر البشرية في أوربا ، وينحدرون من أصل هندوأوربي وقد سكنوا منطقةغرب البلقان منذ العصرين البرونزي والحديدي (٢) . أي منذ عصور ما قبل الميلاد ، وأصبح لهم بمرور الزمن تقاليد حضارية بارزة. ومع نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد وصلت هذه التقاليد إلى ذروتها مع نجاحهم في إقامة دولة لهم امتدت على طول الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي وتمتعت هذه الدولة بنفوذ عسكري وسياسي كبير في المنطقة . (٣)

وقد كان الإيلليريون بحارة مهرة ، اتسموا بالجسارة والإقدام ، ووصلوا بسفنهم حتى سواحل إيطاليا ، وكانت لهم أنشطة تجارية مع البلاد المجاورة ، خاصة الفينيقيين ، ومع الموانئ الهلينية ، والمدن الإيطالية . (٤)

---

* من هؤلاء المؤرخين " ثونمان " في القرن الثامن عشر وأيده بعد ذلك " مير " و"بيدرسن " و " يوكل " و " هامب " وغيرهم .

(١) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية فى الأبجدية العربية ، الكويت ، كتاب عالم المعرفة ، عدد (٦٨) أغسطس ١٩٨٣ ص ١٢ .

(٢) هـ . ت . نوريس ، الإسلام في البلقان ، ترجمة عبد الوهاب علوب ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، د .ت ، ص ٥٠ .

(٣) محمد موفاكو ، المرجع السابق ، ص١٢؛ بكر إسماعيل ، مرجع سابق ، ص٧ .

(٤) هـ . ت . نوريس ، نفس المرجع ، ص٥١ .

وقد أشار بطليموس الجغرافي السكندري المشهور في كتابه " الجغرافيـة " * إلى الألبان على أنهم إحدى العشائر الإيلليرية التي كان عددها حينئـذ يقتـرب مـن العشرين فيقول عنهم :

" إنه في أراضى الألبانيين تقع مدينتهم " ألبانوبوليس " ، ويحدد مكان هذه المدينة في الخط الذي يقطع الآن قلب ألبانيا وبالتحديد ما بين مدينة" ديـبرا "فى الشـرق ومدينة "دوريس " في الغرب .

وقد أظهرت بعض الآثار التى اكتشفت في الآونة الأخيرة والتي تعود إلي القرن الثاني الميلادي صحة ما ذكره بطليموس فى كتابه وحددت موقع مدينة ألبانوبوليس كما حدده (١) ، وتوافقت أبحاث بعض المؤرخين فيما بعد مع ما أورده بطليموس.*

ورغم هذا الاتفاق بين كثير من المؤرخين ، إلا أن هناك آراءً أخرى تحدثت عـن أصل الألبان ومنها رأى " واصو باشا " * القائل بأن أصـل الألبـان يرجـع إلي "البلاسجة"وهى قبائل وجماعات أقبلت من أرجاء القارة الأسيوية ونزلت دفعـات متوالية على بلاد اليونان منذ القرن التاسع قبل المـيلاد ، وأن هـذه القبائـل اضطرت نتيجة الاعتداءات عليها من الأيونين والدوريين إلى الهجرة فى جماعات

---

* تناول بطليموس ذكر الألبان فى الجزء الثالث من الكتاب ، وفى القسم المتعلق بالموقع الذي تحتله مقدونيا .

(١) محمد موفاكو ،" الألبانيون . عدة تسميات لأمة واحدة "، دمشق ، مجلة مجمع اللغة العربية ، المجلد ٦٣ يوليو ١٩٨٨ ، ص ٦٧٨ .

* منهم الكاتبة " آناكومنينا " والمؤرخ البيزنطي " ميخائيل أتالياتى " فى القـرن الحادي عشر الميلادي .

* واصو باشا : ألباني الأصل ولد بأشقودرة سنة ١٨٢٤ م ، وكان متصـرف جبل لبنان من قبل الدولة العثمانية في أعوام ١٨٨٢-١٨٩٢ م .

إلى الجبال الوعرة وهى جبال ألبانيا، وهى حالياً المنطقة الواقعة فى ألبانيا بين " ديبرى " و " كرويا "وكانت هذه القبائل تضم الإيبيريين والمقدونيين والألبان (ولم يكن الألبان قد عرفوا بهذا الاسم بعد).

واستند " واصو باشا " فى رأيه إلى المؤرخ اليوناني الشهير " بلوترخس " الذي قال : إن الإيبيريين وجميع الذين يدعون في عصرنا هذا بألبانيين إنما استحقوا لقب " شكيبتار " ويفسر واصو باشا أن شكيبتار معناها " ابن النسر " . *

ثم يدعم واصو باشا رأيه ، بأن كلاً من المقدونيين والإيبيريين والإيلليريين ، كانوا يتكلمون اللغة البلاسجية ، وتدعى الآن اللغة الألبانية أو الشكيبتارية وأن هذه الأمم الثلاث كانت تعرف باسم الشكيبتاريين . (١)

و هذا الرأي لا يتعارض مع الرأي القائل بأن الألبان ينحدرون من الإيلليريين ، غير أن واصو باشا نسب هؤلاء الإيلليريين إلى أمم البلاسجة ، وقال إنهم قبائل أسيوية هاجرت إلى أوربا ، ثم سكنت غرب البلقان نتيجة هجمات الدوريين والأيونيين عليهم .

وهناك من الآراء من يرجع الألبان لأصول عربية ، ومنها رأى المؤرخ العربي "أحمد بن زينى دحلان " الذى قال: إنهم من عرب الشام من بنى غسان ، ثم ارتحلوا من الشام بعد مجيء الإسلام إلى تلك البلاد وتوطنوا بها فازدادوا وكثروا. (٢)

---

* النسر في اللغة الألبانية يسمى " شكيبى " أو " شكيبرى " أو " شكيبق "

(١) واصو باشا ، "ألبانيا والألبانيون "، ترجمة نجيب البستاني ،بيروت ، مجلة الجنان اللبنانية ، أعداد سنة ١٨٨٢ م ، ص١٤٠ وما بعدها ؛ بطرس البستاني ، دائرة المعارف ، بيروت ، دار المعرفة ، د.ت ، ص ٢٤٢ .

(٢) أحمد بن زينى دحلان ، الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، القاهرة ، د.ت ، جـ٢ ، ص ١٣٠ .

كما ذكر آخر أهم طائفة من عرب البربر عبروا البحر إلي ذلك المكان مع "يعقوب بن منصور الموحدى" ، فبقوا فيها فترة من الزمن ، ولم يزالوا بها حتى غلب عليهم الجهل فتنصَّروا . (١) وهذا رأى غريب يفتقد الواقعية والصواب .

و إلى جانب تلك الآراء وجدنا في المشرق العربي – حيث يعرف الألبان باسم الأرناؤوط – تفسيراً شعبياً لأصل الألبان ، والذي يبدو أنه استند إلي خلاف بين الخليفة " عمر بن الخطاب " و " وجبلة بن الأيهم " ، ويقول هذا التفسير أن أميراً عربياً اختلف مع الحاكم وقرر الهجرة مع قبيلته من تلك المنطقة باتجاه الشمال ، وبعد وفاة الحاكم أرسلوا له خبراً كي يعود فأجاب " عار أن نعود " وقد تحولت هذه العبارة مع الزمن إلي " أرناؤوط " (٢)

ويوافق هذا الرأي أيضا ماذكره حسين مجيب المصري في كتابه " صلات بين العرب والفرس والترك " حيث يقول : إن الألبانيين والجراكسة والأكراد من نسل ثلاثة أخوة كانوا فى بلاد العرب . (٣)

ولكن هذه الآراء لا تستند إلي أساس واقعي ، حيث لا يوجد حتى الآن ما يثبتها، إلا أنها تشير إلى مدى التداخل في الصلات التى ربطت بين العرب والألبان وهى صلات تعود إلى فترات بعيدة . (٤)

---

(١) القرمانى (أحمد بن سنان الرومي) ، تاريخ سلاطين آل عثمان ، المأخوذ من كتاب أخبار الدول وآثار الأول ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، دمشق ، دار البصائر ١٩٨٥ م ، ص ٣٠ .

(٢) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية ، مرجع سابق ، ص١٢ .

(٣) حسين مجيب المصري ، صلات بين العرب والترك والفرس ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩ م ، ص ٣٠٨ .

(٤) محمد موفاكو ، نفس المرجع ، ص ١٢ .

وهذه الصلات نشأت بين أجداد العرب والألبانيين الحاليين . *
وقد رفض بعض المؤرخين هذه الرواية ومنهم المؤرخ العراقي " عباس العزاوى " الذي ذكر هذه الروايات في كتابه ورفضها بشكل قاطع . (١)

---

* كانت بداية الصلات بين العرب والإيلليريين (أجداد الألبان) قد تشكلت في إطار الإمبراطورية الرومانية ، التي توسعت لتشمل مساحات شاسعة من العالم ومنها المناطق العربية والألبانية الحالية ، وحدث تداخل بين شعوب هذه المناطق ، وخاصة عن طريق الجنود الذين نقلوا كثيراً من التأثيرات من شعب لآخر خاصة الأمور الاجتماعية والدينية فقد أرسل كثير من الجنود الإيلليريين إلى بعض البلدان العربية مثل سوريا والجزائر ومصر وغيرها ، كما شهدت المناطق الإيلليرية حضور جنود سوريين ومصريين إليها ، وقد حمل هؤلاء الجنود معهم آلهتهم المحلية في ذلك الوقت وبمرور الوقت تأثر الإيلليريون بهم وعبدوا تلك الآلهة .

وفى إطار الإمبراطورية الرومانية أيضاً انتقل الدين المسيحي من الشرق إلى المناطق الإيلليرية وكان الإيلليريون يذهبون إلى فلسطين وسوريا للتنسك وزيارة الأماكن المقدسة ومنهم القديس " يورنيم " ٣٤٠ - ٤٢٠م الذي تنسك فى سوريا وبيت لحم ، وانتشر بين الألبان مذهب أريوس السكندري .

بيد أن الصلات الواسعة بين العرب والألبان بدأت في القرن السادس عشر الميلادي حين دخلت المناطق العربية في إطار الدولة العثمانية ، وعاش العرب والألبان داخل دولة واحدة ، ووطّد الإسلام بينهما ، ومع انتشار الإسلام في صفوف الألبان ، انتشرت اللغة العربية أيضاً إلى حد أن هذه اللغة أصبحت لغة التعليم في المدارس الألبانية .

أنظر : محمد موفاكو . المرجع السابق . ص١٣ ـ ١٦ .

(١) عباس العزاوى ، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد ١٩٤٩ ،جـ٤، ص٤٩،٤٨ .

وخلاصة تلك الآراء أن الألبان يعودون في أصولهم إلى الإيلليريين ، والدليل على هذا أن اللغة الألبانية الباقية إلى يومنا هذا هي لهجة من لهجات القبائل الإيلليرية .

كما أن آثار الإيلليريين من القلاع المبنية بالأحجار الضخمة مازالت قائمة بالمدن القديمة بألبانيا ، فضلاً عن بعض تقاليدهم وعاداتهم الباقية بين الشعب الألباني . (١)

ثانياً : اشتقاق اسم الألبان

يطلق على الألبان في اللغة العربية اسمان هما :

" الأرناؤوط " و " الألبانيون " كما يطلق عليهم في اللغات الأوربية ولاسيما لغات البلدان المجاورة عدة تسميات هي " أرفانيت " في اليونانية ، و " الأرنـاؤوط " في التركية والبلغارية و " أرباناس " في اليوغسلافية ، و " الألبانيون " Albanians في لغات أوربا الغربية ، و" شيشـتبار " * أو شـكيبتار Shqiptar في اللغـة الألبانية نفسها .

ومما سبق يتضح أن الصيغتين المستعملتين في اللغة العربية ، قد وردتا من اللغات الأخرى، وتجدر الإشارة إلى أن آراء العلماء الأوربيين كانت مختلفة حـول أصـل التسميات التي أطلقت على الألبانيين ، كاختلافهم في أصل الألبانيين أنفسهم .(٢)

---

(١) رجب يشار بويا ، الألبانيون (الأرناؤوط) والإسلام ، (رسالة ماجستير ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة سنة ١٤٠١ هـ)، ص٢٢

* شكيبتار مأخوذة من شـكيبونيه Shqiponje ومعناهـا في الألبانيـة " النسر " وقد ظهرت سنة ١٣٩٢م .

(٢) محمد موفاكو ،" الألبانيون . عدة تسميات لأمة واحدة" ، مرجع سـابق ، ص٦٧٧.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن كلمة ألبانيا مأخوذة من كلمة " ألبانو " وهي اسم لقبيلة من القبائل الإيلليرية القديمة ، ثم اشتهرت بهذا الاسم على جميع القبائل الإيلليرية في البلقان ، وبمرور الزمن أطلق الأوربيون على هؤلاء القوم اسم" ألبان " بحذف الواو في أخر كلمة " ألبانو " نسبة إلى تلك القبيلة ، والتي كان يتزعمها رجل يسمى "أربن".

وهناك رأى آخر مفاده أن قدماء اليونان اشتقوا كلمة " ألبان " من "أربن" وذلك باستبدال الراء لاماً وإضافة ألف بعد الباء ، فصار " ألبان " ولعل هذا الاشتقاق جاء من اسم زعيم قبيلة ألبانو الإيلليرية آنفة الذكر .

وقيل إن اسم الألبان اشتق من كلمة " ألبانن " أو " أربانن " وهو اسم لمدينة كانت عاصمة للجزء التاسع لبيزنطة في البلقان وكانت هذه المدينة آخذة في الازدهار فسمى الإقليم كله باسم هذه المدينة ، ولعل قبيلة ألبانو كانت تقيم بها .(١)

وقيل إن كلمة ألبان مأخوذة من مادة " ألبا " ومعناها الجبل أو المرعى الجبلي ومن ذلك جبال الألب ، ومعنى ألبانيون أي جبليون .

أما " سامي الدين فرا شرى " المؤرخ واللغوي التركي ، فيرى أن أصل لفظ ألبان هو "أربان " ومعناها المزارعون ، ثم حوّل الأتراك ذلك الاسم إلى "أرناو" ثم إلى " أرناؤود ".

وقد نشر محمد موفاكو المؤرخ الألباني الأصل مقالاً بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، استعرض فيه خلاصة النتائج الأخيرة للأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع ، حيث قال:

منذ القرن الحادي عشر أصبح الجذر المشترك لكل التسميات التي أطلقت على الألبان هو " ألب " أو " أرب " أي بقلب اللام إلى الراء . (٢)

---

(١) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٢٢،٢٣ .

(٢) محمد موفاكو ،" الألبانيون" ، مرجع سابق ، ص ٦٧٩ .

وقد أخذت اللاتينية في بادئ الأمر سنة ١١٦٦م بجذر " أرب "لتصوغ تسمية أربان أو الأربانيين Arbaneses ، وفى الوقت نفسه (القرن الثاني عشر الميلادي) اعتمدت السلافية الجنوبية (الصربية) جذر أرب لتأخذ منه صيغة "أربانس " Arbanas .

بيد أن اللاتينية تحولت منذ القرن الثالث عشر إلى الجذر الآخر لتشتق منه صيغة الباني وألبانيين ، تلك التي شاعت لاحقاً في كل اللغات الأوربية الغربية .

وفى الوقت نفسه ، الذي اتسم ببروز الأمراء الألبانيين المحليين الطامحين إلى المشاركة في الحكم أو الاستقلال عن بيزنطة ، كان الألبانيون قد أخذوا لأنفسهم جذر" أرب" وشاعت منذ ذلك الحين عدة صيغ كانوا يطلقونها على أنفسهم هي : أربر Arbere وأربن Arbene وأربرش Arbereshe و أربنش ، وعلى بلادهم اسم آربريا Arberia و أربينيا Arbenia .

وفى القرن الرابع عشر ، فى الوقت الذي تعددت فيه التسميات ، بدأ الاحتكاك بين الألبانيين والعثمانيين ، والذي انتهي بعد قرن من الزمن إلى سيطرة العثمانيين على المناطق الألبانية ، وقد مال العثمانيون حينئذ إلى الصيغة اليونانية الحديثة " أرفانيت " التي كانت قد تطورت من " أربانيت " ونتيجة للإبدال بين حرفي(V)، (n) وتحول (i) إلى (u) بسبب قوانين التناغم في اللغة التركية أصبح العثمانيون يطلقون على الألبانيين اسم Arnavud، الذي كان يكتب بالعثمانية " أرناؤد ".

وفيما بعد ومع التغيرات الإدارية في المناطق الألبانية ، أخذ العثمانيون يستعملون صيغة جديدة هي " أرنؤدلك " للدلالة بشكل عام على المناطق التي يعيش بها الألبانيون . (١)

---

(١) محمد موفاكو ، المرجع السابق ، ص ٦٧٩، ٦٨٠ ؛ بكر إسماعيل ، ما هي كوسوفا ، القاهرة ، مؤسسة ألبابرس ، ١٩٩٩ م ، ص ٢٦ .

وبغض النظر عن التقسيمات الإدارية المتعاقبة ، وخلال العصر العثماني ، أخذ الألبان يميلون إلى صيغة جديدة يطلقونها على أنفسهم وهـــي " شتشـــيبتار " أو شكيبتار Shkiptare وهى الصيغة التي حافظوا عليها إلى اليوم ، وكان جذر هذه التسمية هو "شتشيب " Shqip (ويعنى الكلام بوضوح وفصاحة) قـــد أُستعمل في أول كتاب ألباني مطبوع سنة ١٥٥٥م ، ثم توسع معناها ليشمل اللغة الألبانية عامة ، وفى تطور لاحق أُضيفت اللاحقة " تار" Tarلتعنى المتكلم بالألبانية أو الألباني Shqiptar، ولقد وردت هذه التسمية لأول مرة في وثائق " المجلس الألباني " سنة ١٧٠٣ م ، ثم انتشرت تدريجياً حتى أصبحت خلال القرن التاســـع عشر التسمية الوحيدة التي يطلقها الألبان على أنفسهم .

ومن المعروف أن العصر العثماني كان قد جمع العرب والألبـــانيين بالإضـــافة إلي غيرهم من الشعوب في دولة واحدة لعدة قرون ، ومن الطبيعي في هذه الحالـــة أن يميل العرب إلي الصيغة العثمانية وهى " أرناؤوط " .

وفى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أخذت الصـــيغة الأخـــرى وهـــى " الألبان" تُستعمل في اللغة العربية ، وخاصة في الصحف والمجـــلات ، وإن بقيـــت الصيغة الأولى (الأرناؤوط) الأكثر شيوعاً في العربية حتى نهاية العصر العثماني .

إلا أن الصيغة الثانية (الألبانيون) شقت طريقها بسرعة في السنوات الأخـــيرة للحكم العثماني لألبانيا ولاسيما بعد استقلال ألبانيا ســـنة ١٩١٢ م ، واســـتقرار كيانها كدولة منذ سنة ١٩٢٠ م . (١)

---

(١) محمد موفاكو ، "الألبانيون "، مرجع سابق ، ص ٦٨١-٦٨٣؛ محمد يوسف عدس ، كوسوفا ، القاهرة ، دار المختار الإسلامي ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٦ .

ثالثاً : الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل الفتح العثماني

أ : الحياة السياسية

سبق القول أن الألبان ينحدرون من الإيلليريين القدماء ، وعليه فالحديث سيكون عن هؤلاء الإيلليريين حتى ظهور الألبان على الساحة التاريخية .

يعود تاريخ الإيلليريين إلي عدة قرون قبل الميلاد ، وتحديداً إلي العصر البرونزي والحديدي ، وكان هؤلاء في أول الأمر قبائل رحل تنتقل من مكان لمكان بحثاً عن الطعام والشراب والمراعي ، حتى استوطنوا بمنطقة البلقان في الأراضي الممتدة من نهر الدانوب ونهر Sava ونهر مورافا Morava إلى البحر الأدرياتيكي وجبال Sar ونجحوا في استصلاح مناطق كبيرة من هذه المنطقة ، وزراعتها وتعميرها ، وأقاموا مراكز لهم على الشاطئ الأدرياتيكي ، وعملوا بالتجارة ، فكان لهم نشاط تجارى كبير مع جيرانهم من المقدونيين واليونانيين ، في القرن الرابع قبل الميلاد .

وفي سنة ٣٥٨ قبل الميلاد ، أغار الإسكندر الأكبر بجيوشه على أراضيهم ، واحتل مساحات كبيرة منها حتى بحيرة أوهريد Ohrid واتخذ منهم كثيراً من الجنود ضمهم لجيشه ليستعين بهم في حروبه وتوسعاته بعد ذلك . (١)

وبعد موت الإسكندر سنة ٣٢٣ قبل الميلاد ، تخلصت القبائل الإيلليرية من تبعيتها له وتوحدت تحت قيادة قبيلة " أرديانو " وزعيمها " أغروني " الذي استطاع ببراعة توحيد القبائل الإيلليرية ، وكون مملكة إيلليرية كبيرة كانت عاصمتها مدينة أشقودرة المعروفة الآن ، وشملت هذه المملكة الأجزاء الشمالية من ألبانيا إلى جانب مقدونيا ، وأجزاء من البوسنة والهرسك ، وبلغت هذه المملكة ذروتها في القرن الثالث قبل الميلاد .

---

(1) Reymond Ziekel , Op , Cit, p. 5. ؛

السيد حسين جلال ، تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث ، الإسكندرية ، دارالوفاء ، بدون تاريخ ، ص٢٣٣ .

وبعد وفاة الملك أغروني خلفته الملكة " تؤوتا " Teuta ، وتوسعت المملكة في عهدها أكثر حتى وصلت إلى ما بعد مدينة اشكومبى في الشرق ، وأصبح لهذه المملكة رهبة لدى جيرانها فكانوا يخشون اتساعها . (١)

ونتيجة هذه التوسعات اصطدمت المملكة الإيلليرية بقوة أخرى مجاورة لها وهي الدولة الرومانية القوية التي كانت ترغب في الاستيلاء على منطقة البلقان بأكملها.

وحدث صدام بين القوتين وهو ما عرف بالحرب الإيلليرية ـ الرومانية التي بدأت سنة ٢٢٩ ق.م ، وتوقفت ثم عادت سنة ٢١٩ قبل الميلاد ، واستمرت إلى أن تمكنت روما من إلحاق الهزيمة بالجيوش الإيلليرية ، وأسر الملك الإيلليرى سنة ١٦٨ ق.م ، ثم احتلال جميع الأراضي الإيلليرية . (٢)

لم يخضع الإيلليريون خضوعاً تاماً للرومان ، بل قامت الثورات المتتالية للتخلص من الحكم الروماني،بيد أن ضعف الإمكانيات،والصراعات الداخلية بين القبائل الإيلليرية المحلية منع هذه الثورات من تحقيق أهدافها ، وظلت روما تحكم هذه المنطقة مدة أربعة قرون ، حدثت خلالها إنجازات اقتصادية وثقافية وسياسية كان أهمها القضاء على الصراعات القبلية بين القبائل المحلية . (٣)

واحتفظ رؤساء القبائل الإيلليرية بالسلطة المحلية ، ولكنهم تعهدوا للإمبراطورية الرومانية بالولاء والطاعة ، واعترفوا بسلطة ممثلي الإمبراطور الروماني .

واتخذ الرومان من الإيلليريين جنوداً محاربين في الجيوش الرومانية ، بل إن بعض الأباطرة كان يتخذ منهم حرساً خاصاً له ، لمهارتهم وقدراتهم الحربية الفائقة . (٤)

---

(١) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٤٣،٤٢ .

(2) Edith Durham , Albania Past and Present , Asiaw Affairs , Volum 4 Part 1 ,Germany 1917 , p 4,5

(3) Reymond Ziekel , Op , Cit , p 7 .

(4) Edith Durham , Op , Cit , p 5 – 7 .

و لإحكام سيطرتهم على البلاد ، أسس الرومان المعسكرات و المستعمرات العسكرية، واهتموا بإنشاء الطرق وحفر القنوات ، وكان أشهرها طريق "إجناتيا" (Via Egnatia) . (١)

وقد أصبح لهذا الطريق أهمية اقتصادية واستراتيجية في تاريخ ألبانيا ومنطقة البلقان كلها فيما بعد ، ويعد في رأى كثير من الجغرافيين والمؤرخين الجهاز العصبي للبلقان ، ولذلك استخدمه الأتراك ، كما استخدمه رؤساء الطرق الصوفية الذين ذهبوا من الشرق الأوسط وآسيا الوسطى إلى منطقة البلقان باحثين عن أراضي جديدة يستقرون بها ، حين بدأ الإسلام يتغلغل في شبه جزيرة البلقان . (٢)

كما سلكه النورمان الصليبيون للوصول لأراضي الدولة البيزنطية أثناء اجتياحهم لها وازدهرت الحياة الثقافية في عهد الرومان ، وخاصة في مدينة أفلونيا ، التي صارت مركزاً ثقافياً مشهوراً .

واحتفظ الإيلليريون بلغتهم ، ولم يتأثروا كثيراً بالثقافة الرومانية (٣) ، ولو أن كثيراً من الألفاظ اللاتينية دخلتها تحت حكم الرومان . وفى القرن الأول الميلادي دخلت المسيحية بلادهم ووجدت استجابة بينهم ، وعندما ضعفت الإمبراطورية الرومانية ، وانقسمت إلى نصفين سنة ٣٩٥ م ، " غربي " عاصمته روما ، و نصف " شرقي " عاصمته بيزنطة ، خضعت المناطق الإيلليرية لحكم الإمبراطورية الشرقية البيزنطية. (٤)

---

(1) Anton Logorec i ,The Albanians Europe ‘s Forgotton Survivors , London1977 , p. 16 .

(٢) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ٤٩ ، ٥٠ ؛ وسام عبد العزيز ، البوسنة ، الصرب ، كرواتيا ، الطبعة الأولي ، القاهرة : عين للدراسات ، ١٩٩٤م ، ص٢٠.

(3) Anton Logoreci , Op , Cit , p. 16 .

(4) Reymond Ziekel , Op , Cit, p.7 .

ورغم أن الرومان قاموا باستخراج المعادن من الجبال الألبانية كالنحاس والفضة والقير و ازدهرت بعض المدن الإيلليرية مثل " دوريس "، إلا أن الحكم الروماني كانت له مساوؤه وأهمها ، أنهم اتخذوا الشعب الإيلليرى كعبيد أو رقيق ، كما فرضوا ضرائب باهظة على كل شيء فساءت أحوال الناس المعيشية . (١)

وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ م ، خضع الشعب الإيلليرى للإمبراطورية البيزنطية التي كانت تتخذ من القسطنطينية عاصمة لها ، واستبدل البيزنطيون في حكمهم للشعب الإيلليرى بنظام الحكم المدني نظام الحكم العسكري، وبسطوا أيديهم على شواطئ البحر الأدرياتيكي خاصة مدينة دوريس، وأنشأوا بها أسطولاً بحرياً كبيراً . وأنشأ البيزنطيون في المناطق الإيلليرية نظاماً إقطاعياً ، وقسّموا تلك المناطق إلى عدد من الإقطاعيات العسكرية .

واستمر الحكم البيزنطي عدة قرون ، ثم كان الغزو السلافي لأراضي الإمبراطورية البيزنطية بما فيها منطقة إيلليريا بين القرنين السادس والثامن الميلاديين.

وعبرت أفواج من السلاف Slavs نهر الدانوب ناشرين الخراب والدمار في كل منطقة إيلليريا ، وأجبرت أعداد غفيرة من السكان على الفرار إلى الجبال ، ودمرت المراكز الثقافية والاقتصادية والإدارية الرومانية والبيزنطية . (٢)

وكانت هذه الغزوات ضربة قاصمة للقوة العسكرية والسياسية للإمبراطورية البيزنطية ، حيث كان إقليم إيلليريا من أكبر مصادر الإمداد العسكري بالجنود لجيوش الإمبراطورية ، كما شجع ذلك قوى أخرى للإغارة على المناطق الإيلليرية الخاضعة للبيزنطيين . (٣)

---

(١) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٤٥ .

(2) Nouray Bozbora , Osmanli Yonetiminde Arnavutluk , Istanbul , 1997 , p. 2.

(3) Anton Logoreci , Op , Cit , p .22 .

غير أن أهم نتيجة لتلك الهجمات البربرية السلافية كانت اختفاء الإيلليريين تدريجياً عن الساحة التاريخية ، ودخلوا سجلات التاريخ الوسيط بعد ذلك باسم جديد مشتق من قبيلة ألبانوى الإيلليرية التى سكنت المنطقة الواقعة بين " دوريس " و "ديبرا" شمال بحيرة " أوهريد " . (١) وأصبح ألبان العصور الوسطى يعرفون باسم" أربير " أو "أربين " وتعرف بلادهم باسم " أربانون " .

وكان أول من غزا بلادهم في تلك الهجمات البربرية هم القوط الجرمان والهون الأسيويين ، كما اجتاح الصرب والكروات الأراضي الألبانية في أوائل القرن السابع الميلادي .

ورغم أن البيزنطيين قاموا في القرن التاسع الميلادي بإقامة منطقتين عازلتين هما "دوريس "و"نيكوبوليا "بغرض الدفاع عن الأراضي الألبانية ضد تهديدات البلغار ، الذين ظهروا على الساحة التاريخية في ذلك الوقت من جهة والنورمان في جنوب إيطاليا من جهة أخرى .

وفى سنة ٨٥١ م استولى البلغار على مدينة أوهريد ثم على " بيرات " و "مالاكسترا" بعد ذلك ، كما استولوا في عهد القيصر البلغاري " سيمون " (٨٩٣ – ٩٢٧) م على نيكوبوليا بأكملها وثلاثين قلعة من منطقة دوريس ، وفى أواخر القرن العاشر سنة ٩٨٩ م ، استولى القيصر البلغاري صموئيل على بقية " دوريس " . (٢)

---

(١) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

(2) Reymond Ziekel , Op , Cit, p . 8 .

ومع بداية القرن الحادي عشر الميلادي ، وتحديـداً سـنة ١٠١٨ م ، اسـتعادت الإمبراطورية البيزنطية سيطرتها على الأراضي الألبانيـة الـتى سُـلبت منـها ، والأراضي المجاورة لها في منطقة البلقان .

وسرعان ما أغارت قوى أخرى على تلك المنطقة بهدف انتزاعها من السـيطرة البيزنطية ، فبعد نصف قرن هاجمها النورمان من صقلية .

وفى سنة ١٠٩٦م أغار عليها الصليبيون بقيادة " بوهيموند روبرت جيسكارد"، ثم عاد النورمان وأغاروا عليها مرة أخرى سنة ١١٠٧ م ، واستولوا على فلوري وحاولوا احتلال دوريس ولكنهم فشلوا ، وانسحبوا من الأراضي الألبانية بعـد عام واحد . (١)

وفى ذلك الوقت ، شهدت الإمبراطورية البيزنطية بعض الأزمـات الاقتصـادية والضوائق المالية ، وبدأت مرحلة من التدهور ، ممـا اضـطرها إلى رفـع قيمـة الضرائب المفروضة على الألبانيين لمواجهة تلك الأزمات ، وتسبب ذلك في حالة من الغضب في صفوف الألبان أدت إلى قيام سلسلة من الثـورات والتمـردات القبلية . (٢)

كان بعض " دوقات " * المنطقة يؤيدون هذه التمردات التي بدأت في القـرن الحادي عشر ، واستمرت فيما بعد ، وكان لها أثر في ضعف السيطرة البيزنطيـة على الأراضي الألبانية ، كما عجلت بنهاية حكمها لهـا .

---

(١) هـ . ت . نوريس ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(2) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 26.

* كانت الإمبراطورية البيزنطية قد قسمت منطقـة إيلليريـا إلى مجموعـة مـن الإقطاعيات العسكرية يحكم كل منها شخص يمثلها ويطلق عليه اسم " دوق " وهو لقب يعطى لمن هو أعلى من الأمير ، وهؤلاء الدوقيون قـاموا بتكـوين جيش لهم ، وتأسست وحدات هذا الجيش من الفلاحـين الألبـان الـذين تم تجنيدهم في السجلات كجنود مسلحين مهيئين يتم استدعاؤهم عند اللزوم .

ولعل أهم تلك التمردات ، ما قام به دوق سيجليا " جورج مانيكاس " الـــذي قاد جيشاً مكوناً من بعض القبائل الألبانية ، وسار به نحو مدينة دوريس للاستيلاء عليها ، ولكنه فشل .

ثم قام دوق دوريس نفسها بتمرد آخر بهدف الاستقلال بحكمها بتأييد من قبيلة أربانيتش ، ولكنه فشل أيضاً في تحقيق أهدافه .

ورغم فشل هذه التمردات فقد كان لها نتيجة مهمة وهى عودة ظهور الإيلليريين على الساحة التاريخية ، بعد ما كانوا قد اختفوا منها في القرن الســـادس عشـــر ، بسبب الهجمات السلافية البربرية على بلادهم .

ولكنهم ظهروا هذه المرة باسم جديد هو " الألبان " وكان ذلك في القرن الثاني عشر الميلادي ، وفى تلك الفترة قامت قبائل ألبانوى وأربانيـــت بقطـــع صـــلاتها الدينية والسياسية بالإمبراطورية البيزنطية وأعلنوا اســـتقلالهم واعتنقـــوا المـــذهب الكاثوليكي. (١)

واتحد هؤلاء النبلاء تحت زعامة أحدهم ويسمى " برغوني " وشـــكلوا حكومـــة تحكم المناطق التي حرّروها ، واتخذ " برغوني " من " كرويا " عاصمة له .

وبعد موت برغوني خلفه ابنه " جون برغوني "ولم يكن لديه القوة والكفاءة مثـــل والده، فأغارت جمهورية البندقية على بلاده واحتلت الشواطئ الألبانية على بحـــر الأدرياتيك.*

وبعد موته خلفه ابنه "زيمترى" الذي قام بتحسين أوضاع بلاده ، ولُقب بـــأمير ألبانيا ، وأعد جيشاً كبيراً لاسترداد ما استولى عليه البنادقه . (٢)

---

(1) Nouray Bozbora , op , Cit , pp. 27, 28.

* ظلت سيطرة البنادقة على الشواطئ الألبانية حتى سنة ١٥٠١ م حيث تمكـــن العثمانيون من هزيمتهم وإحكام سيطرتهم على تلك الشواطئ ليستكملوا بذلك فتح كل المناطق الألبانية .

(٢) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

ودارت بين الطرفين حروب كثيرة ، استمرت حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادي حيث قام " شارل الأول" ملك نابولي * (الإيطالية) بالإغارة على ألبانيا، وقضى على أسرة "برغوني" . (١)

ثم دار صراع بين ملك نابولي ، وبين النورمان فى صقلية بقيادة " مانفريد هنستاوفن" من أجل الاستيلاء على المناطق الألبانية ، وانتهى ذلك الصراع بانتصار شارل الأول ملك نابولي وإحكام سيطرته على مناطق فلوري وكانينا وبيرات ودوريس سنة ١٢٧٢م وأعلن قيام مملكة " أربير " وتوج نفسه ملكاً عليها .

ولإحكام سيطرته على ألبانيا تقرب الملك شارل من النبلاء المحليين ، ومنحهم إقطاعات ليؤيدوا حكمه ، ولكنه قام بعد ذلك بإحاطة نفسه بعدد كبير من النبلاء الكاثوليك الفرنسيين والإيطاليين الذين استولوا على الوظائف الإدارية الهامة كما استولوا على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة ، (٢) مما أدى إلى ثورة الألبانيين ضده ولكنه قمعهم بشدة ، وأمام ذلك اُضطروا لطلب مساعدة الإمبراطور البيزنطي ، والتحالف معه للتخلص من حكم الأنجويين ، حتى تحقق لهم ذلك سنة ١٢٨٦م.

ولكن سرعان ما نجح خليفة الملك شارل ويسمى " فيليب " في إخضاع المناطق الألبانية لحكم الأنجويين مرة أخرى ١٣٠٤م ، وقد اضطر الألبان إلى قبول

---

* شارل الأول هو أحد أسرة الأنجويين الذين حكموا مملكة نابولي بإيطاليا في عهد النورمان ويسمى أيضاً " تشارلز".

(١) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص٥٧ .

(٢) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

حكمهم مرة أخرى ، خوفاً من اجتياح دولة الصرب * المجاورة لأراضـيهم ، حيث كانت هذه الدولة تشهد قوة وتزايد آنذاك ، وتسعي لتكـوين إمبراطوريـة كبيرة في البلقان .

على أية حال ، فبعد سيطرة فيليب ملك نابولي على المناطق الألبانية ، قام بتعـيين "توليلم بلينشتي " قائداً لجيش الأنجويين بألبانيـا ، ثم قـام بتوزيـع الإقطاعيـات والسلطة على النبلاء الألبان . (١)

وشهدت تلك الفترة أيضاً تنامي قوة الصرب خاصة في عهد مليكهم ،" استيفان دوشان " * (١٣٣١ – ١٣٥٥) ، الذي شن غاراته على ألبانيا وضم كثيراً مـن أراضيها لمملكته واضطر كثير من الألبان لترك بلادهم خوفاً من بطشه وهاجروا إلى اليونان ، وصار شمال ألبانيا جزءً من إمبراطورية الصرب في ذلك الوقت .

---

* الصرب أحد الشعوب السلافية التي أغارت على البلقان في القرن السـادس الميلادي واستوطنوا منطقة " راشكا " وهى اليوم جنوب صربيا على الحدود الألبانية الشمالية ، واحتلوا المنطقة التي تعرف الآن بجمهورية الجبل الأسود ، ولم يكن للصرب في ذلك الوقت دولة ، وإنما كانوا مجموعة قبائل يحكم كل منها رجل يطلق عليه اسم " جوبان " وبمرور الزمن تشكلت من هذه القبائل أول دولة صربية في "راشكا" ، وبعد ستة قرون من استقرارهم ، وفى عهـد الأمير "استيفان نيمونيا " سنة ١١٨٠م استولوا على أجـزاء مـن شـرق كوسوفا الألبانية ثم أتموا استيلاءهم عليها سنة ١٢١٦ م .

(١) هـ . ت . نوريس ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

* نجح دوشان في تكوين مملكة كبيرة في شبه جزيرة البلقان ، ضـمت معظـم ألبانيا وأجزاءً من مقدونيا واليونان إلى جانب صـربيا ، وكانـت أعظـم إمبراطورية فى أوربا فى ذلك الوقت .

وبعد موت استيفان دوشان تهاوت إمبراطوريته ، وظهر فى ألبانيا أسر و أمراء إقطاعيون كان بعضهم ألبان والبعض صقالبة أو بيزنطيين وكان أقواهم وأشهرهم أسرة "بلشا " في شمال ألبانيا ، وأسرة توبيا فى الوسط . (١)

وتوحدت هذه الأسر واتفقت على طرد الصرب من بلادهم ، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بجيش الصرب فى معركة " أشيلوس " وتحقق لهم ما أرادوا .

وبعد هذا النصر اجتمع زعماء الألبان واختاروا " كارل توبيا " زعيماً لهم وبدأوا فى تحرير باقي بلادهم تحت قيادته ،ثم قسّموا هذه المناطق المحررة إلى ثلاث مقاطعات هي :

١) مقاطعة دوريس :-

وكانت تضم شمال ألبانيا حتى نهر ماتى فى الجنوب و نهر شكومبى فى الغرب وإلى مدينة ديبرا فى الشرق . وتولى حكم هذه المقاطعة أسرة توبيا – سالفة الذكر– ، وظلت تحكم المقاطعة حتى دخولها تحت سيطرة العثمانيين سنة ١٤١٥ م .

٢) مقاطعة أشقودرة :-

وكانت تشمل أقصى شمال ألبانيا ثم توسعت فيما بعد وضمت دوريس وبريزرن وكانت تحكمها أسرة " بلشا " ، وبعد وفاة آخر حكامها تجزأت واستولت أسرة "كاستريوت " على مساحات كبيرة منها . (٢)

---

(١) خليل إينالجق ،" الأرناؤوط" ، دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين ، القاهرة ، مؤسسة دار الشعب ، بدون تاريخ ، جـ ٣ ، ص ١٤٤ .

(2) Ramadan Marmulloku , Albania and ؛ Albanians , London , p .10 ؛

رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٥٨ – ٦٠ .

٣) مقاطعة أرتا :-

كانت تنقسم إلى جزأين الأول : مدينة أرتا ويحكمها " بيترلوش " والجزء الثـاني مدينة " جير وكاستر " ويحكمه "جون بوشباتا "، وبعد وفاة حاكم كل جزء منهما انقسمت المقاطعة إلي نصفين " أرتا الشمالية " و " أرتا الجنوبية " وظلت كـذلك حتى استيلاء العثمانيين عليها سنة ١٤٣١ . (١)

كان ذلك هو الوضع السياسي للألبان والتطور التاريخي الذي مروا بـه حـتى الفتح العثماني لبلادهم .

ويتضح من هذا العرض كيف كانت الأراضي الألبانيـة عرضـة للتـدخلات الأجنبية منذ القدم ، وكان فى مقدمة دوافع هـذه التـدخلات – في الغالـب– الاستفادة من الموارد الطبيعية والبشرية لهذه المنطقة ، وموقعها الحيوي في البلقان ، واستغلت هذه القوى الخارجية الصراعات القبلية والمذهبية الدينية بـين الألبـان لتحقيق أهدافهم .

وعلى خلاف ذلك شهد الألبان نوعاً من الاستقرار والتوحد منذ خضوعهم للحكم العثماني كما سيرد فى فصول لاحقة .

---

(١) رجب يشار بويا ، المرجع السابق ، ص ٦٠ ؛ السيد حسين جلال ، مرجع سابق ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

ب: الحياة الاقتصادية

اتضح من العرض السابق ، أن الإيلليريين من الشعوب القديمة ، التي سكنت البلقان والتي كان لها تاريخ وحضارة قديمة وعريقة ، وقد اكتشف الإيلليريون المعادن منذ وقت مبكر مثل الحديد والفضة والبرونز ، وبوجود هذه المعادن تطورت حياتهم الاقتصادية ، لأنهم صنعوا منها أدوات للعمل مثل المناجل البرونزية والمحاريث وغيرها، كما شيدوا السفن ، حيث كانوا بحارة وتجاراً مهرة ، مارسوا تجارتهم مع مختلف شعوب البحر المتوسط مثل اليونانيين والإيطاليين . (١)

وكان الألبان الأوائل مجتمعاً منظماً ، يعيش داخل وحدة من القرى الريفية الصغيرة ، وقد لعب الوضع الجغرافي دوراً فى تشكيل اقتصاد الألبان ، حيث إن سكان شمال ألبانيا وهى المنطقة المعروفة بوعورتها وكثرة جبالها ومراعيها ، اعتمدوا فى حياتهم على المراعى وتربية الماشية من الأغنام والبقر .

أما سكان الجنوب حيث السهول الساحلية والأنهار والأراضي الخصبة الصالحة، فقد اعتمدوا على الزراعة كنشاط رئيسي لهم،وكانوا يقومون بإنتاج ما يحتاجونه فى حياتهم . (٢)

وقد حرص الرومان على الإستفاده من إمكانيات المناطق الإيلليرية ، فقاموا بتشييد الطرق الهامة مثل طريق إجناتيا الذي ربط منطقة البلقان بالشرق الأوسط وآسيا الوسطى ، وكانت له أهمية إستراتيجية واقتصادية هامة كما كان ميناءا دوريس وفلوري على ساحل البحر الأدرياتيكى من أهم الموانئ فى أوروبا، وكان يتم استخدامهما في تصدير المنتجات المحلية الألبانية ، كما كانا حلقتين فى سلسلة تربط الغرب والشرق معاً، ومنفذين لأهم الطرق البرية البلقانية على البحر الأدرياتيكي . (٣)

---

(١) رجب يشار بويا ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(2) Nouray Bozbora , op , Cit , p. 31.

(٣) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ٥٠ .

ورغم ذلك فقد عاش الشعب الإيلليرى في ظل الحكم الروماني عيشة العبيد ، و لم يعد عليه شئ من خيرات بلاده ، إنما كانت تذهب إلى الإمبراطور الروماني وممثليه الذين نهبوا خيرات البلاد ، وفرضوا على الأهالي ضرائب عديدة باهظة،كما حرموا الإيلليريين من تولي المناصب الإدارية ، وقصروها على أنفسهم ، ولذلك ظلت حياتهم بشكلها البدائي القبلي .

ولم يتغير الوضع كثيراً فى ظل حكم البيزنطيين ، الذين قاموا بتطبيق نظام الإقطاع العسكري ، و قسّموا البلاد إلى مجموعة من الإقطاعيات تم توزيعها على عدد من ممثلي الإمبراطور البيزنطي ويلقب كل منهم بلقب " الدوق " واتخذ هؤلاء من الشعب الألباني أُجراء ومزارعين لهذه الإقطاعيات .

وقامت الحكومة البيزنطية بفرض ضرائب باهظة على الشعب للخروج من الأزمات المالية والضوائق التي مرت بها عقب الغزو السلافى لأراضيها . (١)

وعندما احتل الصرب الأجزاء الشمالية من ألبانيا ، أبقوا على النظام الإقطاعي ، فمنحوا النبلاء الصرب الحكم والإدارة ، وحق تملك الأراضي ، بينما كان على الطبقة الفقيرة من الألبان (الفلاحين _ العبيد) واجبات كثيرة مثل العمل يومين فى الأسبوع فى أرض الإقطاعي ، وعليهم أن يدفعوا ست فرانكات ذهبية فى العام عن كل فرد ، هذا خلاف الضرائب الأخرى وأعمال السخرة فى الأراضي الملكية وفى بناء القصور والقلاع ، وإعداد علف خيول النبلاء ، وتمهيد الطرق وغيرها . (٢)

---

(1) Nouray Bozbora , op , Cit , p. 33.
(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص٢٩ .

وكان الفلاح الألباني سجيناً لا يستطيع مغادرة أرض الإقطاعي ، فإذا تمكــن مــن الهرب ثم قبض عليه قُطعت أطرافه . (١)

ومن الملاحظ أن الصناعة قد شهدت تطوراً ملحوظاً آنذاك ، وكان التعدين من أهم مصادر الاقتصاد فى ألبانيا وخاصة فى منطقة كوسوفا التي كان يستخرج مــن مناجمها الذهب و الفضة والرصاص منذ أقدم العصور ، وازدهرت تجارة المعــادن ابتداءً من القرن الثالث عشر الميلادي ، وكانت أشهر مراكز التعدين فى " تريبستا" و " يابنيفو " و"نوفوبردو " . (٢)

ومع مجيء القرن الرابع عشر شهدت المدينة الألبانية رخاءً وازدهاراً على يــد النبلاء الألبان الذين ظهروا على الساحة التاريخية ، وازدهــرت مــدن دوريــس وأشقودرة وبيرات وفلورا وكرويا ،واعتمد اقتصاد هذه المدن على إنتاج الحرفيين وأرباب المهن . (٣)

---

(١) بول كولز ، العثمانيون فى أوروبا ، ترجمة عبد الرحمن الشيخ ، القــاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د . ت ، ص ٦٠ .

(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص٣٠ .

(3) Nouray Bozbora , op , Cit , p .30.

جـ: حياة الألبان الاجتماعية والدينية قبل الحكم العثماني

كان المجتمع الألباني قبل الحكم العثماني ينقسم إلى قسمين :

الأول : القبائل الألبانية الشمالية .

وهم الألبان الذين يسكنون المنطقة الواقعة شمالي نهر شكومبى ، وكان يطلق عليهم اسم "الجج " Ghegs (١) ، وهم قبائل "كليمنتى "و"هوتى" و"سكرتى" و"بولاتي" وهذه القبائل حافظت بصورة كبيرة على ثقافتها القبلية وصور تنظيمها ، وظلت حياتها بشكل بدائي ، كما ظلت بعيدة عن التأثيرات الخارجية ، نظراً لطبيعة أراضيها الجبلية التي أعاقت اختلاطهم بغيرهم .

الثاني : القبائل الألبانية الجنوبية .

وكان يطلق عليهم اسم " التوسك " Tosks ، ويسكنون إلى الجنوب من نهر شكومبى وهم مجتمع العائلات والقبائل القروية التي ارتبطت بالزراعة ، واستقرت في المناطق السهلية الخصبة ، وكانوا مختلفين تماماً في طبائعهم وسجاياهم عن القبائل الشمالية حيث كانوا عرضة للمؤثرات الثقافية والاقتصادية والسياسية لكثير من الدول التي توالت على حكمهم . (٢)

ورغم الفوارق الاجتماعية والثقافية بين ألبان الشمال والجنوب ، فإن الألبان – بصفة عامة – يطلقون على أنفسهم اسم " شكيبتار " الذي يعنى " ابن النسر " وقيل يعنى الكلام بوضوح ، ثم توسع ليشمل اللغة الألبانية عامة أي جميع المتكلمين بالألبانية .

وبشكل عام فإن حياة الألبان الاجتماعية كانت تسير في نظام قبلي–وهى حياة بدائية – منتظمين في قبائل متماسكة ، تحت زعامة رؤساء أقوياء .

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٤ م ، جـ٤ ، ص ١٨٤٤ .

(2) Nouray Bozbora , op , Cit, pp .32 , 33 .

وكانت القبيلة تتكون من مجموعة عائلات ، يعيشون في قرى منتظمة يحميها خنادق وحصون ، وكانت منازلهم داخل هذه الحصون . (١)

وقد كان للألبان عادات وتقاليد مارسوها منذ القدم وحافظوا عليها ، رغم خضوعهم لدول وأنظمة عديدة ، ولكنهم لم يتأثروا بها ، وظلوا متمسكين بهذه العادات والتقاليد المعيشية التي شرعوها لأنفسهم . (٢)

وسوف أذكر هذه العادات والقوانين المعيشية عند الحديث عن الألبان فى ظل الحكم العثماني في الفصل الثاني.

أما عن حياة الألبان الدينية قبل الحكم العثماني ، فقد اختلف الألبان القدماء (الإيلليريون)عن جيرانهم من اليونانيين والرومان فى ثقافتهم الدينية وكذلك في عباداتهم فقبل اعتناقهم المسيحية ، كانوا يعبدون آلهة عديدة ، كان أهمها الشمس التي ارتبطوا بها بشدة ، لاعتقادهم أنها تمنحهم الحياة ، ثم يليها القمر الذي زعموا أنه ابن الشمس .

وفى الصيف كانوا يتخذون من تلال الجبال المرتفعة أماكن لعباداتهم ، أما فى الشتاء فكانوا يعبدون النار ، و المطر والرعد وغيره ، ولم يكن لثقافتهم الدينية رجال دين ، ولا رموز شكلية تعبر عن القوة التي اعتقدوها . (٣)

وكانوا يعتقدون بالحياة بعد الموت ، ولذلك كانوا يدفنون مع موتاهم حاجاتهم من أدوات العمل والسلاح والأدوات المنزلية،وكانوا يُشيِّعون موتاهم

---

(١) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

(3) Nouray Bozbora , op , Cit , pp. 36 , 37 .

بعربات الجنائز، وبمظاهر التكريم والاعتراف بفضائلهم التي تحلّوا بــها في حياتهم الدنيا . * (١)

وقد دخلت المسيحية ألبانيا فى القرن الأول الميلادي ، ووجدت استجابة كــبيرة بين الألبان ، وقام القديس" بولس الرسول "بمجهود كبير لنشــر المســيحية بــين صفوفهم ، وإن ظلت فلول الوثنية القديمة باقية بين قلة كانوا يســكنون المنــاطق الجبلية النائية التي يصعب الوصول إليها وظل ساكنوها علي عبادتهم القديمة .

وفى القرن الثاني الميلادي قام اثنان من القديسين وهمــا القــديس " دونــات " والقديس "أست " باستكمال ما بدأه القديس "بولس "، وكان للقساوسة اليونانيين خاصة دور كبير فى هذا الشأن .

وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي ، واتباع القســم الغربي المذهب الكاثوليكي ، والقسم الشرقي المــذهب الأرثوذكســي ، انقســم الألبان أيضاً إلى قسمين وفقاً لمذهب الدولة التي خضعوا لهــا ، فانتشــر المــذهب الكاثوليكي بين ألبان الشمال ، واتبعوا كنيسة روما ، بينما اعتنق ألبان الجنــوب المذهب الأرثوذكسي واتبعوا الكنيسة اليونانية بالقسطنطينية ، أما سكان المنطقــة الوسطى فاعتنق بعضهم الكاثوليكية والبعض الآخر الأرثوذكسية . (٢)

وبمرور الوقت حدثت خلافات بين أتباع كل مذهب وصلت إلى حد الخصــومة والصدام ، وأحياناً كان هذا الانقسام الديني هو الثغرة التي تســللت منــها دول أوربية ، و مؤسسات دينية للتدخل فى شئون ألبانيا . (٣)

---

* يلاحظ التشابه بين الألبان والمصريين القدماء فى هذه المعتقدات الدينية .

(١) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٣٦.

(٢) هــ .ت. نوريس ، مرجع سابق ، ص ٥١؛

Nouray Bozbora , op , Cit , p. 78 .

(٣) عبد العزيز محمد الشناوي ، مرجع سابق ، جـ٤، ص ١٨٤٣ .

ورغم أن القرنين الثالث عشر والرابع عشر قد شهدا بروز زعماء ونبلاء محليين في ألبانيا من عائلات توبيا ودوقاجين وكاستريوت وغيرهم ، إلا أن التنافس الشديد بينهم وتحالف كل منهم مع قوي خارجية مختلفة بهدف الحفاظ علي مركزه وتقوية نفوذه في المنطقة التي يسيطر عليها قد أسفر عن اختلاف ديني أيضاً، فلم تكن هناك وحدة دينية ألبانية تتمثل في كنيسة واحدة أو مذهب واحد يجتمعون عليه ، فظل الألبان الأرثوذكس يرتبطون بالكنائس الأرثوذكسية المجاورة ، بينما ارتبط الألبان الكاثوليك بالكنائس الكاثوليكية المجاورة .

وكان من نتيجة ذلك الارتباط أن أصبح الألبانيون يؤدون طقوسهم الدينية بلغة الكنيسة التي يتبعونها ، وفرض عليهم هذا الأمر بدوره أن يتعلموا لغات أخري نظراً للارتباط الوثيق بين الدين والتعليم ، بل امتد الأمر إلي أنهم كانوا يطلقون علي أبنائهم أسماء أخري غير ألبانية حسب الكنائس التي يتبعونها (صربية – بلغارية – يونانية) ، وكاد ينتهي الأمر بخضوعهم للدولة التي تمثلها الكنيسة ، وبذلك كان الألبانيون عرضة للذوبان بالتدريج في الشعوب الأخرى المجاورة ، ولم ينقذهم من خطر هذا الذوبان إلا الدين الإسلامي الذي انتشر بين صفوفهم مع استقرار الحكم العثماني لبلادهم . (١)

وخلاصة ما سبق ، أن الألبانيين – في أصلهم – ينحدرون من الإيلليريين وهم من أقدم العناصر البشرية التي سكنت البلقان ، وأقاموا دولة كبيرة وحضارة عريقة، وتمتعت هذه الدولة بنفوذ عسكري وسياسي كبير فى منطقة البلقان ، كما كانت لها علاقتها التجارية مع جيرانها الفينيقيين والرومان .

---

(١) محمد الأرناؤوط ، دراسات في التاريخ للإسلام في البلقان ، دبي ، مؤسسة التميمي ، ١٩٩٦م ، ص ٧٧.

وفى إطار التوسعات الرومانية لتكوين إمبراطورية شاسعة ، اصطدمت بالإيلليرين ودارت بينهما حروب عديدة انتهت بهزيمة الإيلليريين وخضوع بلادهم لحكم الرومان فترة كبيرة من الزمن ، ولما ضعفت سلطة روما استولى البيزنطيون على بلاد الألبان وقسّموها إلى إقطاعات عسكرية ، وفى ظل حكمهم طمعت بعض القوى والدول المجاورة للألبان فى أراضيهم فاستولت صربيا على جزء ومملكة البلغار على جزء آخر ، واحتل البنادقة الأجزاء الساحلية على البحر الأدرياتيكى.

وفى أثناء ذلك كان الألبانيون منقسمين على أنفسهم إلى قبائل متنافرة كل منها تسعى لمصلحتها ، وتدعم نفسها بالتحالف مع قوة خارجية .

وفى النصف الثاني من القرن الرابع عشر شهدت ألبانيا نوعاً من التوحد ، بين زعماء بعض القبائل ، وعزموا على طرد القوى الأجنبية من بلادهم ، ونجحوا فى ذلك وإن ظلت بعض المناطق تحت حوزة الصرب وبعضها تحت سيطرة البنادقه وتم تقسيم المناطق المحررة إلى أربع مقاطعات ، وظل الوضع كذلك حتى دخول العثمانيين بلادهم .

ومن الناحية الاقتصادية كانت ألبانيا تتمتع منذ القدم بثروات معدنية متمثلة في الذهب والفضة والحديد والنحاس ، وقد اكتشفت هذه المعادن منذ القدم ، ومن خلالها أقام الإيلليريون حضارة عريقة ، وكانت هذه الثروات من أسباب اهتمام دول كثيرة بها .

أما عن نشاط الألبان الاقتصادي ، فقد كان سكان الجنوب يعملون بالزراعة لطبيعة الأرض السهلية ، ولوفرة المياه ، أما سكان الشمال فكانوا يشتغلون بالرعي حيث الطبيعة الجبلية ، إلى جانب أن وقوع ألبانيا على البحر الأدرياتيكي جعل الكثير من الألبان يعمل بالتجارة ، وارتياد السفن ، وصيد الأسماك ، بيد أن الألبان فى ظل خضوعهم للرومان والبيزنطيين وغيرهم لم يستفيدوا من خيرات بلادهم ، بل كانت تذهب للحكام الأجانب و ممثليهم ، بينما عاشوا هم كأجراء رقيق.

ومن الناحية الاجتماعية انقسم المجتمع الألباني إلى نصفين شمالي وجنوبي ولكل منهما طبيعته وخصائصه وعاداته وعباداته ولهجته في شكل عشائري قبلي .

الفصل الأول

الفتح العثماني لألبانيا وموقف الألبان منه

المبحث الأول : التوسع العثماني في البلقان .

المبحث الثاني : الفتح العثماني لألبانيا .

أولاً : بداية وظروف دخول العمانيين ألبانيا .

ثانياً : موقف الألبان من العثمانيين .

ثالثاً : تمرد إسكندر بك ، وتقييم حركته .

المبحث الأول

التوسع العثماني في البلقان*

كان الفتح العثماني لألبانيا حلقة في سلسلة التوسع العثماني في أوربا بوجه عام، وفى شبه جزيرة البلقان بوجه خاص ، ولعله من المفيد تناول هذه الفتوحات المتداخلة وأبرز أهدافها وعوامل نجاحها .

ولسنا بحاجة لتناول نشأة وتكوين الدولة العثمانية تفصيلاً ، و الراجح لدى المؤرخين أن إمارة آل عثمان – وهى نواة هذه الدولة – كانت في الأصل واحدة عدة إمارات في منطقة غرب آسيا الصغرى .

وتكونت هذه الإمارة إثر تفكك الدول والإمارات المحيطة بها آنذاك وهى ، الدولة السلجوقية التركية ، والدولة المغولية ، والدولة البيزنطية ، وكان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي . (١) *

' البلقان : كلمة تركية تعنى التلال المرتفعة أو الجبال الوعرة التي تكسوها الغابات وهى شبه جزيرة تقع جنوب شرقي أوربا ، ويحدها من الشرق البحر الأسود ، ومن الغرب البحر الأيونى والبحر الأدرياتيكي ، ومن الجنوب مضيقا البسفور والدردنيل ، وبحرا مرمره وإيجة ، ومن الشمال نهرا الساف والدانوب، وتضم دول (بلغاريا) و (ألبانيا) و (يوغسلافيا سابقاً) والقسم الأوربي من تركيا واليونان ورومانيا .

(١) جان سوفاجيه ، كلودكلين ، مصادر دراسة التاريخ الإسلامي ، ترجمة عبد الستار حلوجى ، وعبد الوهاب علوب ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٩٨ م ، ص ٣٠٨ .

* لمزيد من المعلومات عن قيام الدولة العثمانية ونشأتها وتحليل آراء المؤرخين ، انظر : محمد فؤاد كوبريللى ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، د . ت .

وتنسب هذه الإمارة إلى (عثمان بن أرطغرل) الذي خلف أبـاه في حكـم الإمارة سنة ١٢٨١ م ، وسميت هذه الدولة باسمه .

وفى ظل حكم الأمير عثمان ، تحدد الوضع الديني والعسكري والسياسي للأتراك العثمانيين ، وقد اعتنق هذا الأمير الدين الإسلامي ، وتبعه الأتـراك العثمـانيون وساعدهم في ذلك صلاتهم الوثيقة بدولة الروم السلاجقة في الأناضول ، وهى دولة إسلامية كانت عاملاً مهماً في اعتناقهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة ، وعلـى ذلك فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين منذ عهد الأمير عثمان الذي كان متحمساً لعقيدته الدينية ، وأخضع حكمه لمشورة الفقهـاء والعلمـاء ، وكانت العدالة أبرز سماته .

واجتمعت إلى جانب هذه العاطفة المتأججة لدى أمراء وسلاطين آل عثمان روح عسكرية شديدة غدت سمة بارزة في الأتراك العثمانيين ، وقد استمدوا هذه الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية في سهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقهـا في نفوسهم فلازمتهم معظم تاريخهم .

وقد بدأ الفتح العثماني لأوربا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وبلـغ ذروته في القرن السادس عشر ، و تضافرت عدة عوامل ساعدت العثمانيين علـى التوسع والفتح نسوقها على الوجه التالي :

أولاً : الشعور الديني المتأجج الذي كان يغمر نفوس الجنود العثمـانيين ، وكـان حافزاً قوياً لهم على الاستبسال في القتال والإقبال بشجاعة نحو تحقيق الاستشهاد في سبيل الله فحققوا بذلك أروع الانتصارات وكان هذا الدافع الديني يفـوق مـن حيث فاعليته وأثره المشاعر الوطنيـة أو القوميـة عنـد خصـومهم الأوربـيين في العصر الحديث.(١)

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م ، جـ ١ ، ص ٥٢١ ، ٥٤٦ .

وكان السلاطين العثمانيون –خاصة الأوائل –محبين للجهاد بداية من مؤسس الدولة الأمير عثمان الذي قال وهو على فراش الموت في وصيته لابنه " أو رخان " :" يابني إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين ، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق فتحدث مرضاة الله عز وجل ، يابني : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت ، وهذا يا ولدى ما أنت له أهل " .

" واعلم يا بنى أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله ، وأن مقصدنا هو نشر دين الله ، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا " ويوصى عثمان أبناءه وأصدقاءه بالجهاد و فتح البلاد لنشر الإسلام فيقول : " وصيتي لأبنائي وأصدقائي ، أديموا علو الدين الإسلامي الجليل ، بإدامة الجهاد في سبيل الله ، امسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد ، اخدموا الإسلام دائماً، لأن الله عز وجل قد وظّف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان ، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حُرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر ". (١)

وكانت وصية عثمان منهجاً احتذى به السلاطين من بعده ، فنرى السلطان مراد الأول وهو يجهز جيشه لمعركة كوسوفا سنة ١٣٨٩ م ، يدعو ربه قائلاً : " يارب إنني أريد الاستشهاد دوماً من أجل جند الإسلام ، وقبل أن تجعلني غازياً، يارب اجعلني شهيداً من أجل مرضاتك دائما " .

---

(١) محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، دمشق ، دار القلم ، ١٩٨٩م ص١٦ ؛ زياد أبو غنيمة ، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، الطبعة الأولي ، القاهرة ، دار الفرقان ، ١٩٨٣م .

كما أن السلطان محمد الثاني (الفاتح) قد ذكر في وصيته لابنه قبل موته قائلاً :
" واعمل على نشر الدين الإسلامي ، فإن هذا واجب الملوك على الأرض ، و وسع رقعة البلاد بالجهاد ، إن الدين غايتنا ، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا " (١)

ومن هذا المنطلق كان العثمانيون في تقدير شعوب أوربا وملوكها بمثابة الرمز الحي المجسد للإسلام ، واختلط الأمر على الأوربيين فكانوا يطلقون على المسلم لفظ تركي ، كما خلطوا بين العرب والأتراك ، ومن خلال هذا المفهوم الذي ترسخ في أذهان الأوربيين عن العثمانيين ، اعتبروا أي نصر عسكري تحققه القوات العثمانية سواء في البر أو في البحر إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية ، وبناء عليه فإن المحالفات الدولية التي تكونت ضد الدولة العثمانية عبر تاريخها كانت في لحمتها وسداها محالفات صليبية ضد الإسلام . (٢)

ثانياً : توافر الموارد المالية أمام السلاطين العثمانيين ، والتي ساعدتهم في بناء قوات مسلحة برية وبحرية على درجة عالية من الكفاية والتسليح والتدريب ، إن المدفعية العثمانية عُرفت منذ القدم بشكل جيد ، وخُصصت بأعظم العناية ، فالسلطان محمد الثاني قد جلب صناع المدافع والمدربين وخبراء هذا الفن من ألمانيا والمجر وغيرهما ، ومنذ عهد "بايزيد الثاني "عرف الجيش العثماني فرقة المدفعية الخاصة " طوبجى " وكان المدفع العظيم الذي استخدمه الفاتح عند فتح القسطنطينية مثار إعجاب و دهشة في كافة أرجاء العالم آنذاك ، كما تم إنشاء أسطول بحري كبير سنة ١٤١٦ م . (٣)

ثالثاً : حالة الضعف الشديدة التي كانت تمر بها الدولة البيزنطية بصفة عامة ، وشبه جزيرة البلقان بصفة خاصة ، والنزاعات المستمرة بين ملك المجر وحاكم بلغاريا ،

---

(١) على حسون ، العثمانيون والبلقان ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٦ م ، ص ٤٠ ، ٤١ .
(٢) عبد العزيز الشناوى ، أوربا ، مرجع سابق ، ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .
(٣) على حسون ، نفس المرجع ، ص ٤٤ .

والحروب بين جمهوريتي البندقية و جنوه وكانتا قوتين عسـكريتين كـبيرتين ، الأمر الذي تعذر معه في معظم الأحيان تنسيق الخطـط السياسـية والعسـكرية للوقوف في جبهة واحدة ضد العثمانيين . (١)

وقد رافق تلك الفوضى السياسية القائمة معارك فكرية وجدل هائل حول أمور اجتماعية ودينية ، كالصراع بين الطبقات الدنيا والنبلاء وانتشار الهرطقات الدينية والتوتر الدائم بين الكاثوليك والأرثوذكس ، ونشوب النزاعات بـين أعضـاء الأسر الحاكمة على العرش . (٢)

كل هذه الأمور خلقت فراغاً سياسياً واجتماعياً كان بحاجة إلى قـوة جديـدة تملؤه ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية أضعف من أن تملأ هذا الفراغ . (٣)

رابعاً : كان وباء الطاعون الذي انتشر في أوربا منذ سنة ١٣٤٧ م ، وحصـد الآلاف من سكان أوربا مما هيأ الفرصة أمام العثمانيين للمضي في زحفهم العسكري على البلقان وكان من الطبيعي أن تشغل هذه الكارثة حكومات أوربا وشعوبها عن الأخطار التي تتعرض لها الدولة البيزنطية على أيدي العثمانيين . (٤)

بيد أن هذا العامل لم يكن له دور كبير في عملية توسع العثمانيين وفتوحـاتهم ، لأن هذه الأوبئة لم تمنع وجود تكتلات عسكرية أوربية وتحالفات صليبية عديدة

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، أوربا ، مرجع سابق ، ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

(٢) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، بـيروت ، مكتبـة صـادر ، ١٩٢٥م ، ص ٢٣٥ .

(٣) بيتر شو جر ، أوربا العثمانية ، ترجمة عاصم الدسـوقى ،الطبعـة الأولى ، القاهرة، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٨ م ، ص ١٧ .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

تشكلت لصد العثمانيين ومنعهم من دخول أوربا ، بدليل ما حدث سنة ١٣٨٩م في معركة كوسوفا الأولى ، والحملة الصليبية التي دعا إليها ملك المجر سيجموند والبابا بونيفاس التاسع ، وشاركت فيها كل القوى الأوربية في معركة"نيكوبوليس"سنة ١٣٩٦ م وغيرها من المعارك التي سنعرض لها تفصيلاً ، وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن توفيق الله للعثمانيين في كونهم اتجهوا في فتوحاتهم نحو أوربا أولاً في وقت مبكر عقب نشأة إماراتهم في شمال غربي الأناضول هو الذي هيأ أسباب القوة ، وزيادة تعدادهم ومواردهم ، وساعدهم على توسيع رقعة إمارتهم والنهوض بها مرحلياً إلى دولة شاسعة الأرجاء ، بينما إذا كانوا قد اتجهوا نحو الشرق ونحو الجنوب في آسيا الصغرى لبددوا قواهم في محاربة الإمارات السلجوقية التركية وهى إمارات كانت ذات بأس شديد . (١)

وسنعرض فيما يلي للسلاطين العثمانيين الذين تمكنوا من التوسع في أوربا بشكل عام وفي شبه جزيرة البلقان بشكل خاص .

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، أوربا، مرجع سابق ، ص ٥٦٤ ؛ محمد فؤاد كوبريللي ، مرجع سابق ، ص ١١٨ وما بعدها .

أورخان بن عثمان (٧٢٧-٧٦٢هـ/١٣٢٦-١٣٦٠م)

تولى أورخان حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده عثمان ، وكان عهده بداية دخول العثمانيين أوربا ، ففي بداية حكمه نجح في ضم بعض المدن الخاضعة للدولة البيزنطية في آسيا الصغرى والتي تقع على الحدود الأوربية مثل مدينة " نيقيـــة "* و"نيقوميديا" * (أزميت الحالية) وكانت آخر معقل للدولة البيزنطية في الـــركن الشمالي من آسيا الصغرى .

وبسقوط هذه المدينة والمنطقة الغربية من الأناضول ، انفسح الطريـــق أمـــام العثمانيين للوصول إلى البسفور (١) ، الذي يفصل بين أراضى الدولة البيزنطية في آسيا وأراضيها في أوربا ، ثم استولى على إمارة " قرة سى* " المطلـــة علـــى الضفة الجنوبية للدردنيل ، وبذلك أصبح الانتقال إلى أوربا مسألة وقت . (٢)

ولم يمض وقت طويل ، حتى عجلت الظروف الداخلية للإمبراطورية البيزنطيـــة بهذا الأمر،فبعد موت الإمبراطور البيزنطي "أندرونيك الثالث" ١٣٤١ م ، حدثت انقسامات داخلية بسبب وراثة العرش بين الإمبراطوريين البيزنطيين "جان الخامس باليولوج "، و"جان كانتا كوزين " أو يوحنا السادس كما كان يطلق عليه .

---

* نيقية : مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى وتسمى أيضا إزنيق Iznik .

* نيقوميديا : مدينة في شمال غربي تركيا وتقع على خليج يعرف باسمها على بحـــر مرمرة وتسمى حالياً " أزميت " .

(١) إسماعيل أحمد ياغي ، الدولة العثمانية ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ص ٣٦ .

* قره سى : Karasi إمارة صغيرة في غرب الأناضول جنوب بحر مرمـــرة وإلى الشرق من بحر إيجة .

(٢) روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الفكر ، ١٩٩٣ م ، جـــ ١ ، ص٢٧ .

واستعان جان الخامس بملك الصرب (ستيفان دوشان) ، بينما كـــان يوحنـــا السادس يفتقد المساندة والتأييد من الآخرين ، ويعانى من نقص القوات اللازمـــة ، فلجأ إلى السلطان العثماني أو رخان يطلب منه المساعدة سنة ١٣٤٥ م .

ولم يكن أو رخان ليفرط في تلك الفرصة الذهبية التي كانت يتشـــوق إليهـــا ، فاستجاب لطلب الإمبراطور البيزنطي ، وأمر جنوده بعبور الـــدردنيل لمســـاعدة الإمبراطور في تلك الحرب وجعل قيادة هذا الجيش لابنه "سليمان" ليبـــدأ بـــذلك فصلاً جديداً في تاريخ أوربا الشرقية . (١)

حقق الأمير سليمان عدة انتصارات على خصوم يوحنا السادس ، وساعده في الاستحواذ بحكم الإمبراطورية ، فعقد مع السلطان أو رخان معاهدة أعطاه بموجبها بعض الأراضي التابعة للدولة البيزنطية في أوربا وكان من بينـــها قلعـــة"جـــيمبى" Gimbi في إقليم تراقيا ، واستقر بها الأمير سليمان بن أو رخان بجنوده وهكـــذا سيطر على أضيق جزء في مضيق شبه جزيرة غاليبولي ، * (٢)

وفى عام ١٣٨٥ م ضرب زلزال مدن تراقيا * فانهارت أسوار مدينة غـــاليبولى وهجرها أهلها ، مما سهل على العثمانيين دخولها ، واحتج الإمبراطور البيزنطي على ذلك ، واستعان بالصرب والبلغار لمحاربتهم ، ولكن باءت جهوده بالفشل وكـــان رد أورخان على احتجاجه أن العناية الإلهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته .

---

(١) بيتر شو جر ، مرجع سابق ، ص ١٧ .

(٢) خليل إينالجق ، العثمانيون (النشأة والإزدهار) ، مقال في كتاب دراسات في التاريخ العثماني للدكتور سيد محمد سيد ، الطبعة الأولى ، القـــاهرة ، دار الصحوة ، سنة ١٩٩٦ م ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

* غاليبولي : مدينة مهمة على الضفة الأوربية عند منتصـــف مضـــيق الـــدردنيل الواصل بين بحر مرمرة وبحر إيجه وأهميتها في كونها تقع على المضـــيق الذي يعتبر الممر الوحيد بين بحار أوربا وبحر مرمرة .

* تراقيا :(تركيا الأوربية) أي المدن التي كانت تقع في الجزء الأوربي من تركيا .

وما لبثت مدينة غاليبولى أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربـا ، ومنـها انطلقت الحملات العثمانية التي تُوّجت في النهاية بفتح كل شبه جزيرة البلقان .

ونتيجة سياسة الإمبراطور البيزنطي التي ترتب عليها دخول العثمانيين أوربـا ، فقد تم عزله ، وتولى الحكم بعده " حنا الخامس باليولوج " ولم يكن بوسـعه إلا أن أقر بالأمر الواقع ، وعقد مع السلطان معاهدة اعترف فيها بمركـز العثمـانيين في تراقيا ، في مقابل تعهد السلطان بتسهيل وصول الطعـام والمـؤن إلى العاصـمة البيزنطية القسطنطينية ، (١) كما اتفق الطرفان في تلك المعاهدة على زواج خليـل بن السلطان أورخان من ابنة الإمبراطور البيزنطي . (٢) *

السلطان مراد الأول (٧٦١ – ٧٩١ هـ / ١٣٦٠ – ١٣٨٨م)

تولى مراد الأول حكم البلاد بعد وفاة والده أورخان سنة ١٣٦٠ م ، وكـان عمره إذّاك إحدى وأربعين سنه ، واستأنف سياسة الفتح التي بدأها أبوه ، ومضـى في عملياته الحربية في أوربا وآسيا في وقت واحد .

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، الطبعة الثانيـة ، القاهرة ، دار الشروق ، سنة ١٩٩٣ م ، ص ٤٧ .

(٢) إسماعيل ياغى ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

* لمزيد من المعلومات حول عصر السلطان أورخان وسياسته ، انظر : خـير الله بن عبد الله ، تاريخ دولت علية عثمانية المعروف بتاريخ خـير الله أفنـدى ، إستانبول ، المطبعة العامرة ، سنة ١٢٨١ هـ ، المجلد الأول ، الكتاب الثالث، ص ٣ – ٨٢ .

ففي أوربا قام بإرسال جيش بقيادة القائد " لاله شاهين " هاجم المناطق المحيطة بغاليبولي ونجح في الاستيلاء على أدرنه * وتراقيا الشرقية كلها .

كما استولى على مدينة " فيلبه " * بينما تمكن القائد العثماني " أفرينوس بك " من ضم مدينتي " واردار "*و " كلجمينا "* ، وبذلك صارت مدينة القسطنطينية محاطة من جهة أوربا بأملاك العثمانيين وفُصلت عن باقي الإمارات المسيحية الصغيرة التي كانت شبه جزيرة البلقان مجزأة بينها ، وصارت الدولة العثمانية متاخمة لإمارات الصرب والبلغار وألبانيا . (١)

وكان لهذه الانتصارات التي حققها السلطان مراد أصداء بعيدة في أوربا ، فقد أثارت موجة عارمة من السخط على العثمانيين ، وطلب الملوك المسيحيون المجاورون للدولة العثمانية من البابا" أو ربان الخامس" (١٣٦٢- ١٣٧٠م) دعوة ملوك أوربا كلها للتحالف ضد العثمانيين وإخراجهم من أوربا خوفاً من امتداد فتوحاتهم إلى ما وراء جبال البلقان .

---

* أدرنه : مدينة تركية كانت تسمى أدريانوبل تقع في وسط تراقيا ، أصبحت عاصمة للدولة العثمانية بعد فتحها لأهمية موقعها الجغرافي ولوقوعها عند ملتقى ثلاثة أنهار وظلت عاصمة الدولة حتى فتح القسطنطينية ونقل العاصمة إليها .

* فيلبه : أو فيليبوبوليس أي مدينة فيليب والد الإسكندر الأكبر، تقع إلى الجنوب الشرقي من صوفيا بين صوفيا وأدرنه .

* وردار Vardar : تقع على نهر ورادر إلى غرب كلجمينا .

* كلجمينا : أصلها كوملجنة ، وتقع إلى الجنوب الغربي من أدرنه على بعد نحو ٢٥ كم شمال بحر إيجه .

(١) محمد فزيد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النفائس ، سنة ١٩٨٣ م ، ص ١٣٠ .

فدعا البابا إلى إنفاذ حملة صليبية ضد العثمانيين ، ولم تلق دعوته استجابة من ملوك وأمراء أوربا الغربية ، ووقف حكام شبه جزيرة البلقان بمفردهم في وجه العثمانيين ، وكونوا تحالفاً أوربياً باركه البابا ، وقاده " أوروك " ملك الصرب آنذاك وضم التحالف أمراء البوسنة والبلغار والفلاخ *.

وتحرك جيش ذلك التحالف لمهاجمة مدينة أدرنه عاصمة العثمانيين الذين سارعوا لمقابلته والتقوا به على شاطئ نهر " ماريتزا " * ، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بهزيمة قوات التحالف ، وفرار كل من أميري الصرب والبلغار من أرض المعركة ولكنهما ما لبثا أن غرقا في نهر ماريتزا وكان ذلك سنه ١٣٦٣م.(١)

و ترتب على هذا النصر العثماني ، تعاظم شأن الدولة العثمانية و زيادة نفوذها ، فسارعت بعض القوى الأوربية بالاعتراف بسيادتها عليها مثل جمهورية "راجوزة" * التي أعلنت ذلك سنة ١٣٦٥م ، وتعهدت بدفع جزية سنوية ، وكانت هذه أول معاهده بين العثمانيين و دويلة مسيحية . (٢)

---

* الفلاخ : أو " والاشيا " أي رومانيا الحالية .

* نهر ماريتزا : أو ماريتسا ينبع من غرب بلغاريا ويتجه جنوباً بطول الحدود التركية اليونانية ويصب في بحر إيجه .

(١) محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ؛ عبد العزيز الشناوي ، أوربا ، مرجع سابق ، ص ٦٠٢ – ٦٠٤ .

* راجوزة بالإيطالية : هي دوبروفنيك تقع على شاطئ البحر الأدرياتيكى.

(٢) يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عدنان محمود سليمان ، إستانبول ، ١٩٨٨م ، جـ١ ، ص ٩٩ .

وفى أعقاب هذا النصر استكمل العثمانيون فتح إقلـيم تراقيـا ، ومقـدونيا ووصلوا إلى جنوبي بلغاريا وشرقي الصرب ، واستمر جيش السلطان مراد يستولي على المدن البيزنطية والبلغارية و الصربية التي تساقطت أمامـه تباعـاً، وفى سـنة ١٣٧٩م تعهد "لازار" ملك الصرب بدفع الجزيـة للعثمـانيين ، كمـا تعهـد " سيشمان " أمير البلغار بذلك ووافق على زواج السلطان من ابنته . (١)

وعندما تأخر ملك الصرب وأمير البلغار في دفع الجزية ، قـاد " تيمورطـاش " القائد العثماني جيشاً لإجبارهما على ذلك ، وفتح عدة مـدن هـي مناسـتير * ، و برلبه * ، وأستيب * ثم صوفيا * و سلانيك * . (٢)

واستغل لازار ملك الصرب انشغال الجيوش العثمانية بفتوحاتهـا في الأناضـول وكوّن تحالفاً حارب به القوات العثمانية الموجودة في أوربا وأوقع بهـم هزيمـة في معركة"بلوشنيك" سنة ١٣٨٨م .

وكان هذا التحالف الصليبي يتزعمه " لازار " ملك الصـرب و " سيشـمان " ملك بلغاريا كما ضم قوات من البشناق (البوسنة والهرسك) وألبانيـا وبولنـدا والمجر و والاشيا (الفلاخ) .

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

* مناستير : بلدة تقع على الحدود الألبانية اليونانية وتسمى اليوم بيتولا .
* برلبة : تقع في يوغسلافيا (السابقة) شمال بلدة بيتولا .
* أستيب : تقع في وسط يوغسلافيا (السابقة) إلى الجنوب من مدينة أسكوب .
* صوفيا : مدينه بلغارية وهى حالياً عاصمة دولة بلغاريا .
* سلانيك : مدينة قديمة كانت تقع جنوب مقدونية ، وتقع حالياً في اليونـان على خليج يعرف باسمها .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

وفى محاولة لتفتيت هذا التحالف أرسل السلطان مراد جيشاً بقيادة الوزير " على باشا بن قرة خليل " لمهاجمة ملك بلغاريا ، فنجح في الاستيلاء على بعض المدن التابعة له مثل " ترنوه "* و " شملا "* ، وحاصروه في مدينة نيكوبولى* وفى نهاية الأمر هُزم هزيمة كبيرة ووقع أسيراً ، فضم السلطان مراد نصف بلاده ، ولم يأمر بقتله ، بل رتب له ما يقوم بمعاشه مراعياً مقامه السابق وعيَّنه حاكماً شبه مستقل على النصف الباقي من بلاده سنة ١٣٨٩م . (١)

ولم يكترث لازار ملك الصرب بما حدث لحليفه ملك بلغاريا ، وأصر على قيادة هذا التحالف والزحف به لمحاربة العثمانيين ، وتقابل الجيشان في سهل قوصوه أو كوسوفابوليا * في ١٥ يونيو سنة ١٣٨٩ ، وكان السلطان مراد يقود بنفسه الجيش العثماني ورافقه ابناه " بايزيد " و " يعقوب " .

وقبل بداية المعركة وقف السلطان مراد في جوف الليل داعياً الله رافعاً يديه وبدأ يتضرع إلى الله ويقول :

" يالله يا رحيم السماوات والأرض يا من تتقبل الدعاء لا تخزني ، يا رحمن يا رحيم ، استجب دعاء عبدك الفقير ...، وأرسل السماء علينا مدراراً ، وبدد سحب الظلام فنرى عدونا ، يا موجوداً في كل الوجود أنت الواحد

---

* وقيل أن هذه المعركة كانت سنة ١٣٨٧م .

* ترنوه : أو ترنوفو وتقع في الجانب الشرقي من بلغاريا .

* شملا : شومله أو شومن وتقع إلى شمال ترنوه .

* نيكوبولى أو نيكوبوليس ، وتعني مدينة النصر، تقع في شمال بلغاريا على حدود رومانيا .

(١) روبير مانتران ، مرجع سابق ، ص ٥٨ ؛ محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ١٣٥ .

* كوسوفابوليا : اسم البلدة التي وقعت فيها هذه المعركة الشهيرة وتقع في إقليم كوسوفا .

و الملك حقاً لكل الوجود ،وما نحن سوى عبيدك المذنبين ، إنك الوهــاب ونحــن فقراؤك ، ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع ، أنت العلــيم يــا عــلام الغيــوب و الأسرار و ما تخفى الصدور ، ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة، و لم يحملــني طلب المغنم ، فأنا لا أطمع إلا في رضاك بإخلاص يا الله يا عظيماً يا موجوداً في كل الوجود أفديك روحي ، فتقبل رجائي ،و لا تجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمــام العدو ، ياالله يا رحيماً ، لا تجعلني سبباً في موتهم ، بــل اجعلــهم المنتصــرين ، إن روحي أبذلها فداءً لك يارب ، إنني وددت ولازلت دوماً أبغي الشهادة من أجــل الإسلام ... " . (١)

وهكذا استعد السلطان لتلك المعركة الحاسمة بطلب العون والنصــر مــن الله ، ودارت المعركة بين الجيشين ، وكانت سجالاً بينهما وقُتل منهما أعداد غفيرة ، ولما تبين أن النصــر حليــف العثمــانيين ، انضــم صــهر الملــك لازار ويــدعى (فوك برانكوفيتش) ومعه عشرة آلاف فارس للجيش العثماني ، وانتهت المعركة بهزيمة جيش التحالف الأوربي ووقوع قائده لازار في الأسر ثم قتله . (٢)

وبعد انتهاء المعركة ، وبينما كان السلطان مراد الأول يتفقد الجرحى والشهداء، تقدم إليه جندي صربي ، كان قد أصيب في المعركة وادّعى أن له شكوى يريــد أن يتقدم بها للسلطان ، فسمح له السلطان بالتقدم نحوه ، ولما دنا منه طعنه بخنجر كان يُخفيه ، فوقع السلطان شهيداً .

---

(١) علي حسون ، مرجع سابق ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ١٣٥ ، وحول تفاصيل هذه المعركــة انظر : كتاب قوصوه ظفري ، أنقره هزيمتي ، للمؤلفــة فاطمــة عليــه ، إستانبول ١٣٣٢ هـــ ؛ محمد م ، الأرناؤوط ، كوســوفو – كوســوفا ، مركز الحضارة للدراسات السياسية ، القاهرة ، ١٩٩٨ م .

ورغم موته ، فقد كان لانتصار العثمانيين في تلك المعركة نتائج مهمة منها بسط نفوذهم على بلاد الصرب ، وخضوعها للسيادة العثمانية لمـدة خمسـة قـرون ، ودخول عدد كبير من أهلها في الإسلام . (١)

السلطان بايزيد الأول (يلديرم) (١٣٨٩ – ١٤٠٢)م

خلف بايزيد والده في الحكم ، وكان يتمتع بقسط وافر من الشجاعة والمهـارة العسكرية واستأنف سياسة الفتح ، وكانت تتم في اتجاهين في وقت واحد وهما اتجاه الأناضول واتجاه أوربا ، واشتهر هذا السلطان في التاريخ باسـم " يلـديرم " أي " البرق" لسرعة تنقلاته الحربية بين الجبهتين .

وفى بداية حكمه اتبع سياسة الود والمهادنة مع الصرب ، فأقر ابنا الملك الصـربي "لازار" في الحكم وفق قوانين بلادهما ، شريطة إعلان الولاء ودفع الجزية السنوية ، ثم زحف على بلغاريا ، فاستكمل فتحها ، وقبض على الملك " سيشمان " وأعدمه سنة ١٣٩٣م .

وكان لاستيلاء العثمانيين على بلغاريا دوى هائل في أوربـا ، وعـم الجـزع أنحاءها وكان أكثر ملوكها خوفاً هو ملك المجر الذي أصبح الخطر يتهدده ويقترب منه ، ولذلك دعا لتشكيل تحالف أوربي آخر لمواجهة الخطر العثماني ، وشـاركه في هذه الدعوة البابا " بونيفاس التاسع " (سنة ١٣٨٩ – ١٤٠٤)م وكـان هـذا التحالف من أكبر التكتلات العسكرية التي واجهها العثمانيون في القـرن الرابـع عشر ، إذ حشدت أوربا نحو (١٣٠) ألف جندي مجهزين بصورة جيـدة ، مـن جنسيات مختلفة من المجر ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وبولونيـا ، وجمهوريـة البندقية وأسبانيا ، وأراجون ، وفرسان جزيرة رودس ، ومملكة النرويج ، ومملكـة اسكتلندا ، وجمهورية جنوه . (٢)

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، مرجع سابق ، ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

(٢) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

تجمعت تلك القوات تحت قيادة ملك المجر سيجموند سنة ١٣٩٦م ، ولكـــن قواد تلك المجموعات اختلفوا معه حول طريقة سير العمليات العسكرية ، فبينمـــا كان سيجموند يرى أن تبقى قوات التحالف الأوربي في أماكنها بانتظار مهاجمهـــة العثمانيين لهم ، كان بعض القادة –خاصة الفرنسيين – يفضلون أن تبادر قـــواتهم بالهجوم ، وفى نهاية الأمر نزل سيجموند على رأيهم ، و زحف الجـــيش الصـــليبي منحدراً مع نهر الدانوب باتجاه الأراضي الخاضعة للعثمانيين حتى وصل إلى مدينـــه نيكوبولى وحاصرها و هزم القوات العثمانية الموجودة بها ، و استولى على المدينة .

ولما علم السلطان بايزيد بذلك اتجه على رأس جيش كبير ، وانضم إليه حاكم الصرب " استيفان لازارفيتش " وتوجها لملاقاة الجيش الصليبي ، ودارت بينـــهما معركة حامية الوطيس في ٢٥ سبتمبر سنة ١٣٩٦م . (١)

استبسل الجنود العثمانيون وتميزوا بنظامهم الجيد في القتال وبراعتهم الحربية التي مكنتهم من النصر في نهاية المعركـــة ، وقتـــل الآلاف مـــن الجـــيش الصـــليبي، وأسر الآلاف (٢) ، و استسلم كثير من الأمراء والجنود الفرنســـيين ، وأدى هـــذا الانتصار العثماني إلى تزايد هيبة العثمانيين ، و تحصين مواقعهم في أوربا ، وتوطيـــد أقدامهم في البلقان، وتأكيد خضوع بلغاريا والبوسنة للحكم العثماني . (٣)

---

(١) روبير مانتران ، مرجع سابق ، ص٦٨ .

(٢) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص١٠٨ ؛ محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

بيد أن أهم نتيجة لهذا النصر كانت ، اعتراف أوربا بالدولة الإسلامية الجديدة القادمة من آسيا الصغرى ، وإدراك الأقطار الإسلامية الشرقية للوجود المهم والحقيقي للدولة العثمانية الإسلامية . (١)

وفى سنة ١٣٩٧ م أعد السلطان جيشاً وزحف به نحو القسطنطينية لفتحها ، وحاصرها لمدة ست سنوات حتى أشرفت على السقوط ، ولكن الظروف الطارئة التي واجهته جعلته ينهي هذا الحصار ، وتمثلت هذه الظروف في الخطر المغولي بقيادة تيمورلنك ، الذي هاجم أملاك العثمانيين في آسيا الوسطى ، فتوجه السلطان لصده ، واشتبك الطرفان في معركة أنقرة في ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ م ، انتهت بهزيمة الجيش العثماني ، ووقوع السلطان بايزيد في الأسر ، وبعد هذه الحادثة بثمانية أشهر توفي السلطان . (٢)

وبوفاته توقفت الفتوحات العثمانية في أوربا ، بسبب المشاكل الداخلية في الدولة، والصدامات التي وقعت بين أبناء السلطان بايزيد ، واستمرت نحو عشر سنوات بين سنتي ١٤٠٣ – ١٤١٣ . *وترتب علي ذلك تمرد بعض شعوب البلقان على الحكم العثماني ، وانتهت تلك الفترة باعتلاء السلطان " محمد بن بايزيد" العرش وعرف باسم " محمد الأول " أو محمد شلبي ١٤١٣ – ١٤٢١ م .

---

(١) علي حسون ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

* حول آثار معركة أنقرة ، والصراع بين أنباء بايزيد انظر : ابن عربشاه (أحمد بن محمد) ، عجائب المقدور في نوائب تيمور ،الطبعة الأولي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦م ، ص٣٣٤-٣٣٦ .

نجح السلطان محمد شلبي في إزالة آثار معركة أنقرة ، وعمل على تنظيم الدولة ومهد الطريق لمن يخلفه لاستئناف عملية الفتح و التوسع . (١)

السلطان مراد الثاني (١٤٢١–١٤٥١م)

تولى عرش الدولة بعد وفاة والده محمد شلبي ، فاستأنف سياسة الفتح ، وكان يمتاز بالنشاط ، والكفاءة العسكرية ، و جعل أولى اهتماماته القضاء على حركات التمرد في البلقان ، و تثبيت دعائم الحكم العثماني بها .

وبدأ ببلاد الموره فقضى على تمرد قامت به جالية ألبانية موجودة بها ، ثم اتجه شمالاً فأخضع حاكم إقليم والاشيا وفرض عليه جزية سنوية سنة ١٤٢٣م.

أما ملك الصرب " استيفان لازارفيتش " فأعلن خضوعه وولاءه للسلطان ،كما طلب ملك المجر سيجموند عقد هدنة مع العثمانيين سنة ١٤٢٤م ، فوافق السلطان.

وفى سنة ١٤٢٨ م قاد أمير الصرب " جورج برانكوفيتش" حركة عصيان ضد الدولة العثمانية و لقي تأييداً ومساندة من ملك المجر ، ولكن السلطان قضى على عصيانه ، وفرض عليه جزية سنوية وأخذ عليه عهداً بتقديم فرقة من جنوده للجيش العثماني في وقت الحرب .

ثم اتجه السلطان مراد إلى ملك المجر لمعاقبته على تحريض ومساندة أمير الصرب ، وقامت بين الطرفين معركة سنة ١٤٢٨م ، انتهت بهزيمة ملك المجر ، واستيلاء العثمانيين على مدينة كولمباز . (٢) *

---

(١) أحمد جودت ، تاريخ جودت ، ترجمة عبد القادر الدنا ، بيروت ، ١٣٠٨ هـ جـ١ ، ص ٤٠ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، أوربا ، مرجع سابق ، ص ٦٢٦ .

* كولمباز : أو كوتشيفو مدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة بلغراد .

وتم توقيع معاهدة بين الطرفين اُتفق فيها على أن يكون نهر الدانوب حداً فاصلاً بينهما ، وتخلى بذلك ملك المجر عن أملاكه على الشاطئ الأيمن لذلك النهر .

وفي سنة ١٤٣٠م قاد السلطان حملة عسكرية استرد بها مدينة سالانيك من جمهورية البندقية ، ثم توجه لفتح ما بقي من بلاد الصرب وألبانيا (الأرناؤود) و الفلاخ ، فاتجه إلى ألبانيا وبدأ بمدينة يانيه ، التي أعلنت خضوعها دون مقاومة ، وأسلم حاكمها ،وتبعتها مدن أخرى ، اشترط أهلها عدم التعرض لهم في دينهم وممتلكاتهم ، وطلب السلطان من زعيم عشيرة الكاستريوت " جان كاستريوتي " تسليم أولاده الأربعة رهائن ، دليلاً على صدقه وولائه .* (١)

وقد كان العثمانيون يتطلعون إلى امتلاك إقليم (ألبانيا) نظراً لموقعه الاستراتيجي حيث يقع على الطرف الغربي لشبه جزيرة البلقان ، عند مخرج البحر الأدرياتيكي إلى البحر المتوسط ، و أضيق مسافة بين الساحل الشرقي والساحل الغربي للبحر الأدرياتيكي، وبالتالي فهو أقرب مكان في البلقان لشبه جزيرة إيطاليا، و الجزر الأيونية ، و يمكن اتخاذ موانيه قواعد عسكرية للقوات العثمانية في حروبها ضد البندقية وغيرها من الدول والإمارات الإيطالية والدول البحرية في حوض البحر المتوسط ، بيد أن هذا الإقليم كان من ناحية أخرى مقبرة للآلاف من جنود الجيوش العثمانية نظراً لوعورة أراضيه ، فإن طبيعة تكوينه الجبلي تجعله لا يصلح إلا لحرب العصابات . (٢)

وفي سنة ١٤٣٨م عزم السلطان على محاربة مملكة المجر حيث كان يرى فيها الخطر الحقيقي الذي يهدد سياسته التوسعية ، بتزعمها لكل التحالفات التي قامت ضد العثمانيين ، وآخرها تحالف " فلاديسلاف " الذي خلف سيجموند ، مع أمراء

---

(١) محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

* ستتكلم عن فتوحات العثمانيين في ألبانيا بالتفصيل في المبحث القادم من هذا الفصل .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، أوربا، مرجع سابق ، ص ٦٢٧ .

الصرب والفلاخ و والاشيا ، وحرضهم على نقض عهودهم مع الدولة العثمانية ، فأرسل السلطان جيشاً لمحاربته ، ونجح في هزيمته وضم عدد من المدن لحوزة العثمانيين ، الذين أخذوا يتقدمون نحو بلغراد . (١)

وكانت بلغراد بمثابة بوابة للعبور خارج البلقان ، وفي سنة ١٤٤٤م حاصرها تمهيداً لفتحها واستمر الحصار ستة أشهر ، ولكنه أخفق لشدة دفاعاتها . (٢)

وشعر ملك المجر بالخطر يقترب منهم فدعا ملوك وأمراء أوربا إلى حملة صليبية جديدة ولاقت دعوته استجابة من الصرب والفلاخ وجنوه والبندقية و الإمبراطورية البيزنطية كما انضمت إليه كتائب من الألمان والتشيك ، وأسندت قيادة تلك الجيوش إلى الأمير"جون هونيادى" ابن ملك المجر الأسبق " سيجموند" . وزحف هونيادى بتلك الجموع جنوباً واجتاز نهر الدانوب وتقابل مع جيش عثماني سنة ١٤٤٢ م وأوقع به هزيمتين متتاليتين .

وفى سنة ١٤٤٣م نقل " هونيادى " الحرب إلى بلاد الصرب وكبد العثمانيين هزيمة ثالثة عند نهر مورافا أحد فروع الدانوب (٣) . ولم يكن في مقدور هونيادى أن ينزل تلك الهزائم بالعثمانيين لولا انشغالهم بإخماد ثورة " إسكندر بك " في ألبانيا كما سيأتي بعد.

واضطر العثمانيون لطلب الصلح ، فعقدت هدنة تلتها معاهدة " سزيجيدين " في يوليو سنة ١٤٤٤ م مع المجر ، وكانت شروطها قاسية بالنسبة للعثمانيين فتنازلوا عن سيادتهم على بلاد الفلاخ (رومانيا) ، وبعض مدن الصرب التي وضعت تحت سيادة المجر ، وظل نهر الدانوب حداً فاصلاً بين الطرفين ، واتُفق على وقف القتال بينهما لمدة عشر سنين .

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق، ص ٦٣١ .

(٢) محمد موفاكو ، تاريخ بلغراد الإسلامية ، الطبعة الأولى ، الكويت ، مكتبة العروبة ، سنة ١٩٨٧ م ، ص ١٦ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، نفس المرجع ، ص٦٣٢،٦٣١.

في تلك الأثناء اعتزل السلطان مراد الحكم * ، وترك إدارة شئون البلاد لابنه محمد البالغ من العمر أربع عشرة سنة .

استغل البابا فرصة تنازل السلطان مراد عن الحكم لابنه ، ووجدها فرصة لطرد العثمانيين خارج أوربا ، وحرَّض فلاديسلاف ملك المجر على نقض الهدنة ، ودعا إلى حمله صليبية جديدة ، ضمت المجر و جمهورية البندقية ، والإمبراطورية البيزنطية، وأسندت قيادة الحملة إلى القائد هونيادى،الذي هاجم بلغاريا وحاصر مدينة فارنا *

أثار هذا الأمر حفيظة السلطان مراد فقطع اعتكافه ، وقاد جيشاً كبيراً اتجه بــه لرفع الحصار عن مدينة (فارنا) ، و اشتبك الجيشان في معركة في نــوفمبر ســنة ١٤٤٤ م ، انتهت بانتصار العثمانيين انتصاراً تاماً وساحقاً ، و لقي فلاديســلاف ملك المجر حتفه وفر باقي الجيش مهزوماً. (١)

وبعد موت فلاديسلاف خلفه في الحكم هونيادى ، الذي جهز جيشاً وزحــف به في سبتمبر سنة ١٤٤٨ م على بلاد الصرب لطرد العثمــانيين منــها ، وتحــرك السلطان مراد بجيش يبلغ نحو خمسين ألف جندي ، والتقــى الجيشــان في ســهل قوصوه * في أكتوبر سنة ١٤٤٨ م ودارت بينهما معركة ، استمرت نحو ثلاثة أيام ، انتهت بهزيمة هونيادى ، وحقق الجيش العثماني نصراً ساحقاً ، ووقع هونيادى في الأسر كما قتل الآلاف من فرسان المجر .

---

* قيل إن السبب في ذلك كان حزنه الشديد على وفاة أكبر أبنائه وكان يــدعي علاء الدين .

* فارنا أو وارنه Varna بلدة بلغارية تقع على شاطئ البحر الأسود .

(١) على حسون ، مرجع سابق ، ص ٦٠ ؛ محمد فريد ، مرجع سابق ، ص١٥٧

* من الطريف حول هذه المعركة أن الأوربيين لاقوا هزيمة قاسية في نفس المكان قبل (٥٩) سنة على يد السلطان مراد الأول ثم لاقوا نفس الهزيمة في نفــس المكان ، وعلى يد السلطان مراد ولكنه الثاني ولذلك سميت في التاريخ باسم " كوسوفا الثانية".

وكانت تلك المعركة المحاولة الأخيرة من الأوربيين لإخــراج العثمــانيين مـــن البلقان، حيث تحولوا بعدها إلى موقف المدافع وليس المهاجم ، وأضـــعفت تلـــك الهزيمة دولة المجر لعشر سنوات لاحقة لم تستطع خلالها القيام بأي عمل عســـكري ضد العثمانيين . (١)

السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١م)

تولى محمد الثاني حكم الدولة بعد وفاة والده في فبراير ١٤٥١م ، وكان عمره آنذاك (٢٢) سنة ، وكان ذا شخصية فذة جمعت بين القوة والعدل . (٢)

كما تميز بالكفاءة والذكاء ، ويقترن اسمه بحادث مهم في تاريخ منطقة الشـــرق الأدنى وهو فتح القسطنطينية ولهذا السبب علقت باسمه صفة الفاتح .

وما إن استقر على العرش حتى أخذ يستعد لإتمام فتح ما بقى من بلاد البلقـــان ومدينة القسطنطينية حتى تكون جميع أملاكه وحدة واحدة لا يتخللها عدو .

كما أن القسطنطينية خاصة كانت تستخدم مقراً للمؤامرات التي كانت تحاك ضد الدولة العثمانية ، والسيطرة عليها تدعم الوجود العثماني في أوربا بصورة كـــبيرة ، لذلك أخذ يستعد عسكرياً وسياسياً لهذا الأمر ، لعلمه أن هذه المهمة ليست هينـــة وأن موقع القسطنطينية وحصونها واســـتحكاماتها ، يســـتلزم التخطـــيط الجيـــد والاستعداد القوي . (٣)

---

(١) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص١٢٨،١٢٩ ؛ عبد العزيز الشـــناوي ، أوربا، مرجع سابق ، ص ٦٥٣ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مرجع سابق ، ص٦٥ .

(٣) محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص١٦١؛ عبد العزيز الشناوي ، أوربـــا ، مرجع سابق ٦٣٦.

وبدأ تحرك الجيش العثماني في أول إبريل سنة ١٤٥٣م ، واقترب من أسوار القسطنطينية ، وبدأ الحصار الفعلي لها في ٦ إبريل من نفس العام ، وكان الجيش العثماني مكوناً من نحو(٢٠٠) ألف * جندي على اختلاف تشكيلاتهم ، وأسطول من السفن بلغ حوالي (١٨٠) سفينة ، إلى جانب المدافع الكثيرة والمتنوعة في مدى قوتها ، فكان بها مدفع معدني يقوم بقذف حجر وزنه (١٩٠٠) رطل ، وكان المدفع يطلق كل يوم ما بين مائة ومائة وعشرين قذيفة . (١)

الجدير بالذكر أن السلطان العثماني عرض على الإمبراطور البيزنطي تسليم المدينة دون قتال ، وتعهد باحترام حياة سكانها وممتلكاتهم ، ورحمة بهم من ويلات الحرب ، ولكن الإمبراطور البيزنطي رفض .

وأمام ذلك الرفض قام السلطان بتنظيم وتقسيم القيادات العسكرية وتنسيق قطاعاتها فجعل "زغنوس باشا" الألباني * ، على رأس جيش مهمته مراقبة منطقة جلطه ، وجعل "صاريجة باشا " على الميسرة وكلفه بمهاجمة المدينة من أعلي القرن الذهبي ، وجعل الإشراف على المدفعية وجنود الأناضول لإسحاق باشا ويعاونه محمود بك ، وجعل السلطان نفسه ومعه الوزير خليل باشا في الوسط . (٢)

---

* اختلفت إحصاءات المؤرخين حول العدد الفعلي للقوات العثمانية ، وكذلك عدد السفن ، والأرجح أن عدد الجنود كان يتراوح بين (١٥٠-٢٥٠) ألف جندي ، والسفن بين (١٥٠-٢٠٠) سفينة .

(١) ج . ر . جونز ، حصار القسطنطينية ، ترجمة حاتم عبد الرحمن الطحاوى ، القاهرة ، عين للدراسات ، ٢٠٠٣ ، ص١٠٥-١٠٧ .

(٢) عبد السلام عبد العزيز فهمي ، فتح القسطنطينية ، القاهرة ، دار الكاتب العربي ،١٩٦٩، ص٦٨ .

* سيرد حديث مفصل عن ذلك الرجل في الفصل الرابع في إطار جهود الألبان في خدمة الدولة العثمانية .

واستمر ذلك الحصار نحو خمسة وخمسين يوماً ، وكانت أهم الصعاب التي واجهت السلطان هي صعوبة وصول سفنه إلى أسوار القسطنطينية ، بيد أنه اهتدى لحيلة جيدة ، ينقل من خلالها هذه السفن براً وليس بحراً ، فقام بتعبيد الطرق البرية، ودهنها بالزيت والشحم ، ثم قام جنوده بدفع هذه السفن وهي تفرد أشرعتها ، ونجحوا في نقل اثنين وسبعين سفينة من مضيق البسفور إلى خليج القرن الذهبي . (١)

وقام السلطان بتشييد قلعة على الجانب الأوربي من البسفور ، سميت " روم إيلي حصار " على مسافة قريبة من القسطنطينية عند أضيق نقطة من البسفور لمنع الإمدادات عنها . (٢)

واستنجد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بملوك وأمراء أوربا ،فلم يستجب له إلا أهالي جنوه حيث أرسلوا له خمس سفن يقودها القائد الجنوي جستينيان ، يرافقه سبعمائة جندي من دول أوربية متعددة ، وصلت هذه السفن إلى العاصمة البيزنطية بعد نجاحها في اختراق الحصار المضروب عليها،وبعد مواجهة مع السفن العثمانية .

وفى تلك الأثناء تكررت هجمات القوات العثمانية ، وأطلقت كثير من القذائف على المدينة حتى كان يوم التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣م ، صدرت الأوامر بالهجوم النهائي على المدينة براً وبحراً في وقت واحد ،وشهدت المدينة معركة شرسة ظهر فيها استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين ، وأخذ التعب والخوف يحل بالقوات البيزنطية في الوقت الذي تمكنت فيه فرقة من الإنكشارية من تسلق أسوار المدينة وفتح أبوابها ، ومهدوا الطريق لدخول الجيش وأصيب القائد جستينيان وانسحب من أرض المعركة .

---

(١) ج . ر . جونز ، مرجع سابق ، ص١٠٨ .

(٢) على محمد الصلابي ، الدولة العثمانية ، القاهرة ، دار التوزيع والنشر ٢٠٠١ ، ص٩٢ .

كما قتل الإمبراطور قسطنطين ، وبموته ضعفت مقاومة قواته فاستسلموا ، ودخل السلطان محمد المدينة منتصراً ، وهو يقول " الحمد لله ، ليرحم الله الشهداء، ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ، ولشعبي الفخر والشكر " . (١)

ثم توجه إلى كنيسة "أيا صوفيا" ، وطمأن الناس وأمنهم على حياقم ثم صلي بالكنيسة وأمر بتحويلها إلى مسجد ، ومنع الاعتداء على أهالي المدينة ، وترك لهم حرية إقامة شعائرهم الدينية ، و حرية الاحتفاظ بأملاكهم وأعطى لهم نصف الكنائس وجعل نصفها الآخر مساجد ، وأعاد بناء ما هدم من أسوار المدينة .

وما إن انتهى السلطان من فتح القسطنطينية حتى بدأ مرحلة أخرى من الحرب الهجومية شنها على بلاد الصرب والبوسنة والهرسك والموره وألبانيا وجمهوريتي البندقية وجنوه ومملكه نابولي ، وقد حالفه التوفيق في معظم هذه الحروب ولكنه أخفق في الاستيلاء على بلغراد عاصمة المجر وفى غزو جزيرة "رو دس" ولكنهما سقطا في قبضة العثمانيين في عهد السلطان سليمان القانوني (المشرع) .

وكانت بداية تحركات السلطان تجاه الصرب التي رأى ضرورة غزوها ليجعل منها قاعدة ثابتة للجيش العثماني في حروبه ضد المجر ، واستغل السلطان الحروب الداخلية التي قامت بين أمرائها على العرش بعد موت برانكوفيتش، ونجح السلطان في دخول البلاد بعد الانتصار على بعض الفرق المقاومة له وأصبحت الصرب منذ ذلك الوقت سنة ١٤٥٩ م ولاية عثمانية . (٢)

---

(١) على محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص ٩٢ – ١١٠ ، وللمزيد حول فتح القسطنطينية انظر : ج . ر . جونز ، الحصار العثماني للقسطنطينية،مرجع سابق ؛ برناردين كلتي ، فتح القسطنطينية ، ترجمة شكري محمود نديم، بغداد ، مكتبة النهضة ، ١٩٦٢م ؛ سالم الرشيدي ، محمد الفاتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩م .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مرجع سابق ، ص٧١ ؛ محمد موفاكو ، تاريخ بلغراد ، مرجع سابق ، ص١٧ .

كما تمكن أيضاً في تلك الأثناء من فتح بلاد الموره ، ثم البوسنة والهرسك ، التي استنجد أهلها بالعثمانيين لتخليصهم من الاضطهاد الذي لاقوه على يد ملوك البوسنة *بتوجيه من البابوية في روما ، واستجاب السلطان لدعوتهم ، ونجح في ضم كل مدن البوسنة إلى حكمة سنة ١٤٦٤م .

وهكذا توالى ضم جميع بلدان البلقان واحدة تلو الأخرى ، في نفس الوقت الذي كانت تسير فيه الحملات العثمانية لضم ألبانيا كواحدة من بلدان البلقان وسنفرد لها المبحث الثاني من هذا الفصل .

ولعله من الجدير بالذكر أن الآراء التي ذهب أصحابها بالقول أن السيادة العثمانية تركت أثاراً سلبية على الأهالي في جنوب البلقان وحالت دون انتظامهم في شعب واحد والقول بأن الفتوحات العثمانية أخرت اشتراك العناصر البلقانية في ركب الحضارة والثقافة الأوربية ، هي آراء تفتقر إلى الدليل ، ومهما كانت الفتوحات العثمانية في البلقان قد مهدت السبيل لتغيرات هامة في التركيب السكاني للعناصر المحلية إلا أنها مكنتها من المحافظة على هويتها ، ومثال ذلك الألبان الواقعون تحت الضغوط العرقية والثقافية والدينية الشديدة من جانب الروم البيزنطيين والسلاف ، استطاعوا أن يحافظوا على تركيبهم العرقي بعد أن اعتنق الكثيرون منهم الإسلام ، وفشلت محاولات تحويلهم إلى الجنس السلافي والبيزنطي . (١)

---

* كان أهل البوسنة والهرسك يدينون بالمذهب البوجوميلي وهو مذهب مسيحي ولكن أصحابه يرفضون عبادة المسيح والسيدة مريم ، وهم قريبو الشبه في عباداتهم بتعاليم الدين الإسلامي مما جعلهم يميلون إلى الخضوع للحكم العثماني خيراً لهم من الخضوع للكنيسة .

(١) أكمل الدين إحسان ، (إشراف وتقديم) ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، نقله إلى العربية ، صالح سعداوي ، إستانبول ١٩٩٩م ، ص١٧.

المبحث الثاني

الفتح العثماني لألبانيا

أولاً : بدايته والظروف التي تم فيها .

لم يكن الفتح العثماني لألبانيا بالشيء الهين واليسير بالنسبة للعثمانيين ، ولم يتم ذلك في وقت وجيز ، بل استغرق الأمر سنوات طويلة حتى تمكن العثمانيون من بسط سيادتهم على جميع البقاع الألبانية وإخضاعها لحكمهم الذي استمر حتى سنة ١٩١٢ م ، وقد تجمعت عدة عوامل وراء الصعوبات التي واجهها العثمانيون في عملية الفتح، والتي أخرته سنوات طويلة ، كان أولها :

الطبيعة الجبلية الوعرة لبلاد الألبان ، وكثرة جبالها ، و هضابها ، وممراتها الضيقة التي كانت تُتخذ مخابئ لرجال المقاومة الألبانية ، إضافة إلى جهل العثمانيين بهذه الممرات .

ثانياً : طبيعة الشعب الألباني الأبية الصلبة التي ترفض الخضوع ، فهم " قوم عزيزو النفس" (١) ، إلى جانب تميزهم بالقوة الجسمانية ، والمهارة الحربية الفائقة ، والجلد والصبر وتحمل المشاق .

ثالثاً : مساندة بعض القوى الخارجية التي كان لها مطامع في ألبانيا ، مثل جمهورية البندقية ، ومملكة نابولي ، ودولة المجر .

رابعاً : انشغال العثمانيين بالحروب في أكثر من جبهة في وقت واحد ، وتشتت جهودهم العسكرية .

وعلى أية حال فإن مسألة تحديد سنة بعينها تاريخاً للفتح العثماني لألبانيا كان موضع خلاف بين عدد من المؤرخين * .

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية ١٨٩١ – ١٩٠٩م ، بيروت، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٧م ، ص ٧٦ .

* وعلى رأسهم المؤرخ التركي " خليل إينالجق " .

فيرى بعضهم أن العثمانيين دخلوا ألبانيا سنة ١٣٨٥م ، واعترف بعض أمرائها بسيادة العثمانيين عليهم ، و أن دخول العثمانيين ألبانيا في تلك السنة أعقبه منافسة حادة للغاية بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية على ألبانيا ، واستمرت سنوات طوالاً ، حتى تمكن العثمانيون من فتح ألبانيا فتحاً حقيقياً ، وأنشأوا ولاية الأرناؤد " أرناؤدايلي " بين سنتي ١٤١٥-١٤١٧ . (١)

أما المؤرخ الإنجليزي " توماس أرنولد " فيرى أن دخول العثمانيين ألبانيا كان سنة ١٣٨٧م . (٢) ووافق توماس أرنولد في هذا الرأي المؤرخ " ك سوسهيم " حيث قال : إن العثمانيين تقدموا بفتوحاتهم إلى أرتا ، وهزموا الأمير" بلشه الثاني" سنة ١٣٨٧ م ثم تقدموا نحو إقليم "بر لبه " و" مناستير" ، و" يانيه " التي قدم ملكها فروض الولاء والطاعة للسلطان مراد الأول . (٣)

أما عن الظروف التي تم فيها دخول العثمانيين ألبانيا ، فقد كانت بلاد الألبان قبيل الفتح العثماني تتشكل من الناحية السياسية -كما مر في الفصل الأول - على النحو التالي:

شمال ووسط ألبانيا وكان يشهد تنازع القوى المجاورة مثل الصرب والبلغار وجمهورية البندقية ، وكانت الصرب تحتل منطقة كوسوفا بعد ما طردوا منها أسرة " بلشه " في أواخر السبعينيات من القرن الرابع عشر (٤) ،في حين كانت جمهورية البندقية تسيطرعلى بعض المناطق الساحلية على البحر الأدرياتيكي ،

---

(١) خليل إينالجق ، دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين جـ٣، ص ١٤٤،١٤٥.

(٢) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة إسماعيل النحراوي وآخرون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ ، ص ١٧٣ .

(٣) ك ، سوسهيم ، " الأرناؤوط " ، دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين ، جـ٣، ص ١٤٢ .

(٤) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

أما بقية الجزء الشمالي وألبانيا الوسطى فكانت موزعة على نبلاء إقطاعيين ينتمون لأسر إقطاعية تحكم كل أسرة بعض المدن أو المقاطعات ومن هذه الأسـر ، أسـرة " بلشه " و " توبيا " و " كاستريوت " و " دوقاجين " وغيرهم ، وكـان أبرزهـا وأقواها أسرتي " بلشه "و " توبيا " . (١)

أما الجزء الجنوبي فكانت تقطنه قبائل جبلية رعوية تخضع اسماً للدولة البيزنطية ، ولكنها مستقلة بنفسها من الناحية العملية .

كانت الصراعات دائمة بين تلك الأسر بهدف توسع واحـدة علـى حسـاب أراضي الأخرى ، وشهدت ألبانيا صراعاً بين أسرتي بلشه وتوبيا حينما اسـتولت أسرة بلشه سنة ١٣٨٥م على أراضي تابعة لأسرة توبيا في مقاطعـة " دوريـس " Durres ، فاستنجد "كارل توبيا "حاكم دوريس بالعثمانيين – بصـفتهم القـوة العظمى المجاورة له آنذاك – واستجاب لطلبه السلطان العثماني ، وأرسل جيشـاً بقيادة " تيمور طاش " الذي سلك طريق " إجناتيا" " Via Egnatia " وتقابـل هذا الجيش مع قوات " بلشه الثاني " عند موضع يسـمى "سَـوْرة " علـى نهـر " فويسا " Viyose وسط ألبانيا في سبتمبر١٣٨٥م ونشبت بينهما معركة انتهت بمقتل بلشه وهزيمة قواته . (٢)

وقد سجلت هذه الأخبار العثمانية ووصفت الحادثة بالحملة على " قارلى إيلـي " أي أرض قارلى (كارل توبيا) ، واعترف ورثة بلشه وعلى رأسهم " جرجي الثاني" خليفته في الحكم بسيادة العثمانيين عليهم ، وقبل دفع الجزية . (٣)

وتبع حاكم بلشه كثير من نبلاء الألبان منهم نـبلاء صـوفيا ، ودوقـاجين ، و موساقي ، وأرانيت ، وكان ذلك أول دخول للعثمانيين بلاد الأرناؤوط . (٤)

(١) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٥٨-٦١ .

(2) Reymond Zickel , Op , Cit , p. 15 .

(٣) خليل إينالجق ، الأرناؤوط ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

(4) Suleyman Kulçe , Osmanli Tarhinde Arnavutluk , Izmir , 1994 , p . 39 .

وأخذ السلطان العثماني على هؤلاء النبلاء ، اعترافاً منهم بخضوعهم لحكمه كما تعهدوا بتقديم أبنائهم كرهائن ، ليتربوا في القصور العثمانية وتعهدوا بدفع خراج سنوي على المناطق التي تركها لهم السلطان يحكمونها بأنفسهم .

ثانياً : موقف الألبان من العثمانيين

ورغم سياسة التسامح واللين التي اتبعها العثمانيون مع النبلاء الألبان ، إلا أن بعضهم شعر أن الوضع الجديد قد حرمه بعض الامتيازات داخل وطنه فقرروا التمرد ونقض الاتفاق المبرم مع السلطان وشجعهم على ذلك أن الدول الأوربية قد شكلت تحالفاً صليبياً بهدف محاربة العثمانيين ، فانتهز هؤلاء النبلاء هذه الفرصة وانضموا إلى ذلك التحالف ناقضين بذلك عهودهم مع السلطان وشاركوا في معركة كوسوفا الأولى ضد الدولة العثمانية سنة ١٣٨٩ م ، ومن هؤلاء النبلاء كان " جورج بلشه الثاني " ونبلاء الموزاق ، إلى جانب" تشارلز توبيا "الذي اتفق مع جمهورية البندقية على إعطائها مدينة دوريس مقابل مساعدته ضد العثمانيين.(١)

ورغم ذلك يتعمد المؤرخون الصرب تجاهل اشتراك قوات ألبانية في جيش لازار، بينما يعطي المؤرخون الألبان مكاناً بارزاً للقوات الألبانية في ذلك الجيش ، ويؤكدون أن نبلاء من كوسوفا على رأس قواتهم شاركوا في هذه المعركة ببسالة وقُتل بعضهم ، حيث وردت أسماؤهم في مذكرات تاريخية لأسرة موزاقا الكوسوفية.

واستبعاد ذكر الألبان في التاريخ الصربي له دلالة مقصودة هي إنكار وجودهم في كوسوفا في ذلك الوقت ، بينما تؤكد الروايات العثمانية التي دونت مبكراً في القرن الخامس عشر اشتراك عناصر ألبانية من كوسوفا في جيش لازار .

كما كشفت أقدم المدونات الصربية التي كُتبت بعد معركة كوسوفا بسنوات قليلة أن جيش السلطان مراد كان يشتمل على قوات أجنبية من اليونانيين والبلغار والألبان أيضاً. (٢)

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 54 .

(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

انتهت معركة كوسوفا – كما مر – بانتصار العثمانيين وهزيمة الحلف الصليبي وبعد الهزيمة فر الألبان الذين شاركوا في المعركة إلى جبالهم الوعرة ليحتموا بها ولم يتعقبهم الجيش العثماني بسبب طبيعة بلادهم التي لا تساعد الجيش على التحرك والمناورة ، وخاصة أن الجيش العثماني لم يكن حتى ذلك الوقت قد تعود على الحرب الجبلية ، (١) وبعد موت السلطان مراد ، خلفه ابنه بايزيد الذي أراد استكمال فتح بلاد الألبان ، وخاصة بعد وقوع قوصوه في أيدي العثمانيين ، وما تمثله من موقع استراتيجي هام لاستكمال الفتوحات في تلك المناطق ، حيث إن قوصوه تطل على الجانب الغربي لشبه جزيرة البلقان ، وترتفع عن سطح البحر بمقدار (٥٠٠ – ٦٠٠) متر وتحوطها جبال"الشار" و " بوار قرة داغ" وبهما مجموعة مضايق هي قجنيق ، وجيرتلوا ، و أبيك ، وترجع أهمية هذه المضايق في كونها الممرات الوحيدة إلى بلاد الأرناؤوط ، والجيش الذي يسيطر عليها يستطيع السيطرة على البلقان وبلاد الأرناؤوط ، وفى سنة ١٣٩٢م أرسل السلطان بايزيد القائد العثماني "غازي أورانوس " لفتح بعض المدن الألبانية فاستولى على " أو لكون " وما حولها ثم " اسكوب "و " قرة نوف " و"ترحالة " و " بيرات " و " أقجه حصار " وكاد السلطان يجهز على ما بقي من بلاد الأرناؤوط لولا انشغاله بالخطر المغولي على بلاده سنة ١٤٠٢م، (٢) والذي انتهى بهزيمة العثمانيين، وأسر السلطان بايزيد ، ثم وفاته ، ونشوب حرب داخلية بين أبنائه على الحكم ، وتوقف الفتوحات مدة ما يقرب من عشر سنوات .

اتخذت جمهورية البندقية من تلك الأحداث فرصة لها ، وأخذت تحرض نبلاء الألبان على التمرد ونقض اتفاقهم مع العثمانيين ، بل وأشعلت صراعات داخلية بين هؤلاء النبلاء بعضهم البعض ، مما أحدث اضطراباً داخل البلاد ، وهيأ لها احتلال بعض المناطق الألبانية الساحلية .

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 85 .

(2) Suleyman Kulçe , Op , Cit , pp.42 , 43 .

وخرج بعض نبلاء الألبان على الحكم العثماني وأعلنوا تمردهم ، خاصة نبلاء دوقاجين وتوبيا ، و تحالفوا مع جمهورية البندقية .

وباعتلاء السلطان محمد الأول الحكم ، استقرت أحوال الدولة العثمانية ، واستأنف سياسة الفتح ، فأرسل سنة ١٤١٥م جيشاً إلى بلاد الأرناؤوط لإخضاع المناطق التي أعلنت تمردها على الدولة العثمانية ، ونجح هذا الجيش في مهمته ، ولإحكام السيطرة على تلك المناطق قام بتشكيل أول حامية عثمانية في مدينة " كرويا " القريبة من دوريس وتبع ذلك نشر هذه الحاميات العسكرية في المناطق الألبانية الجنوبية مثل فلورا ، وقانينا ، وبيرات ، وجيرو كاستر ، وأولونيا ، وكوينجة ، (١) وبذلك سيطرت الدولة على مساحة كبيرة من بلاد الألبان بين سنتي (١٤١٥-١٤١٧)م ، و أطلقوا على هذه المنطقة التي فتحوها اسم " ولاية الأرناؤوط " أو "أرناؤدإيلي" وكان هذا فتحاً حقيقياً لهذه المناطق .

وبالاستعانة بالتفصيلات التي وردت في سجل التيمار الخاص بسنة ١٤٣٢م يمكن معرفة الأسر الإقطاعية التي كانت تابعة للعثمانيين منذ سنة ١٤١٦م ، وهي إوان إيلي (أرض كاستريوت) ، وبلشه إيلي (شرقي كفاية وجنوبي شكومبي) ، وكيونومايو إيلي (شمال بكسن) ، وباولوقورتسك إيلي (وادي يلمه) ، وكوندوميهو إيلي (زنبيسي كينوكاستير وأرباضها) ، وبغدان ريبة إيلي (شمالي إلبسان) ، وأشتين إيلي (بريمتي) ، وغيرهم . (٢)

وفي سنة ١٤٢١ م توفى بلشه الثاني فسقطت أهم مدنه في حوزة جمهورية البندقية وهى " ريفاستو " و " أنتيفارى " و " ودلسنيو " و " أليشيو " و " بدوا " وكانت قد احتلت دوريس من قبل ، وبذلك بسطت سيطرتها على الشاطئ الألباني. (٣)

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 85 .

(٢) خليل إينالجق ، "الأرناؤوط" ، دائرة المعارف ، مرجع سابق ، ص١٤٦ .

(٣) ك ، سوسهيم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ص ١٢٥ .

وفى بداية حكم السلطان مراد الثاني ، قامت جالية ألبانية في المورة بحركة تمـــرد ومقاومة للحكم العثماني ، فأرسل لها قوة عثمانية تمكنت من القضاء علـــى هـــذه الحركة وإخمادها ، وفى سنة ١٤٣١م توجه السلطان مراد على رأس جيش كـــبير إلى ألبانيا ، وركّز هجومه على المناطق الجنوبية فاستولى على أرتـــا ثم يانينـــا الـــتي استسلم أهلها دون قتال وأرسلوا مفاتيح مدينتهم للسلطان مشترطين عدم التعرض لهم في دينهم وعوا ئدهم ، ثم واصل الجيش العثماني تقدمه نحو مدن أيير وأفلونيـــا حتى وصل لأول مرة إلى ساحل البحر الأدرياتيكي . (١)

مما سبق يتبين أن العثمانيين لم يلاقوا مقاومة حقيقية في الجنوب وإنمـــا اســـتقبلوا بارتياح بسبب حسن سياستهم وأخلاقهم .

أما في شمال البلاد فقد خاضوا صراعاً حربياً مريراً ضد أسر إقطاعية ذات بـــأس شديد ، وكان نظام توزيع الأراضي الذي قامت به الدولة العثمانية والمعروف باسم " التيمار " هو الذي أثار غضب هؤلاء حيث رأى بعض النبلاء أن فيـــه مساســـاً ببعض صلاحياتهم والامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها من قبـــل ، فـــأعلن بعضهم التمرد على الدولة العثمانية ، وكان أول هؤلاء " جورج أرانيته " الـــذي قام في سنة ١٤٣٢م على رأس مجموعة من الجنـــود وهـــاجم فرســـان الســـباهي العثمانيين الموجودين في ألبانيا وقتل بعضهم .

غضب والي ألبانيا العثماني " على أورانوس " وقاد جيشاً صغيراً للقضاء علـــى "جورج أرانيته " المذكور والتقى الاثنان في معركة عند ممر " بزورشك " وبفضـــل المساعدات العسكرية التي تلقاها " جورج أرانيته " من أميري نابولي والبندقيـــة ، وملك المجر ، استطاع هزيمة الوالي العثماني وجيشه ، فكان ذلك إهانـــة للدولـــة العثمانية في مطلع عهودها بألبانيا.(٢)

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، مرجع سابق ، ص ٦٢٦ ؛ محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

(2) Nouray Bozbora , Op , Cit , pp. 68-89 .

وكان لهزيمة الوالي العثماني أثره الكبير في تشجيع نـبلاء آخـرين في ألبانيـا الوسطى والشمالية ، على القيام بتمردات مماثلة مثل أسر توبيـا، ودوقـاجين ، وكاستريوت.

ولم يتوان السلطان مراد في مواجهة هذه التمردات ، فأرسـل جيشـاً قويـاً سنة ١٤٣٤م ، تمكن من إخضاع هذه الأسر والقضاء على حركتها ، وأقر النظام في تلك المناطق . (١)

وخلاصة ما سبق أن الفتح العثماني لألبانيا لم يتم في سنة بعينها ، بل اسـتغرق الأمر سنوات طويلة ، وواجه العثمانيون صعوبات عدة ، كان أهمها طبيعة الـبلاد الجبلية ، وجهلهم بها ، إلى جانب طبيعة الشعب الألباني الصلبة وقدراتـه الحربيـة الفائقة ، إضافة إلى مساعدات الدول الأوربية لهم .

وقد بدأ دخول العثمانيين ألبانيا سنة ١٣٨٥م ، واستمروا يضـمون لحـوزتهم مدينة تلو الأخرى حتى سنة ١٤١٥م ، وكونوا من هذه المدن ولاية أطلقوا عليهـا اسم ولاية الأرناؤوط .

وبينما لاقى العثمانيون أثناء فتوحاتهم في ألبانيا قبولاً في بعض المناطق ، خاصـة الجنوبية ، وجدوا في شمال البلاد مقاومة شديدة من بعـض النـبلاء ، أصـحاب الأطماع الشخصية وبتحريض من القوى الخارجية .

وسوف أتحدث فيما يلي عن تمرد إسكندر بك ضد الدولة العثمانية الذي يعتـبر أهم تمرد ألباني ضد الحكم العثماني للبلاد .

---

(١) خليل إينالجق ، "الأرناؤوط" ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ .

ثالثاً: تمرد إسكندر بك وتقييم حركته

لم ينل أحد من الشهرة وذيوع الصيت في تاريخ ألبانيا ، مثلما نال هذا الرجل الذي قاوم العثمانيين ما يقرب من ربع قرن ، بدأت منذ عهد السلطان "مراد الثاني" واستمرت خلال عهد السلطان "محمد الفاتح" ونُسجت حول حياته وأعماله القصص والأساطير، ويعدونه في ألبانيا بطلاً قومياً ، ومازالت حياته موضع بحث ودراسة للباحثين في ذلك المجال.

و " إسكندر بك " * ليس اسمه الحقيقي بل لقب أطلقه عليه السلطان مراد الثاني، حتى يكون اسمه على اسم إسكندر المقدوني الألباني الأصل الذي فتح الكثير من العالم القديم ، أما اسمه الحقيقي فهو " جورج كاستريوت " George Castriot"، (١)ويرد اسمه في المراجع الأوربية والأمريكية باسم " إسكندر بج" " Scander Beg " (٢) وهو أصغر أبناء " جون كاستريوت " ، زعيم عشائر الكاستريوت التي كانت تسيطر على منطقة واسعة في شمال ألبانيا في ذلك الوقت ، وكان له من الأبناء ثلاثة غير جورج المعروف بإسكندر بك .

---

* بك : لقب تشريفي مشتق من الكلمة التركية " بيوك " التي تعني السيد أو الكبير أو الأمير أو الرئيس ، وقيل مشتق من الكلمة الفارسية " باك " بمعنى المقدس ، وكانت الدولة العثمانية تمنح هذا اللقب لأبناء الباشوات والعسكريين أصحاب الرتب العالية ، وقواد الجيش وكبار رجال الإدارة ، وقد ألغي هذا اللقب مثل غيره من الألقاب التشريفية بعد إلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية. انظر : حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة النهضة العربية ١٩٧٨م .

(1) Kristo Frashëri , Skënderbeu , Tirana 2002 , p. 76 .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ج٤، ص ١٨٤٧ .

وبعد دخول العثمانيين شمال ألبانيا ، خضع لحكمهم جون كاستريوت كباقي الأسر الإقطاعية ، وكان يعتنق المسيحية * ، فاعتنق الإسلام وأطلق على نفسه اسم حمزة ، (١) وكإجراء متبع في سياسة الدولة العثمانية مع زعماء المدن التي كانت تفتحها فقد أخذت أبناء "جون كاستريوت "الأربعة كرهائن حتى تضمن عدم خروجه عليها ، على أن يتلقوا تعليمهم وتربيتهم في القصر السلطاني في العاصمة أدرنه وكان ذلك ١٤٢٢م ، واختلفت الآراء حول سنة مولد إسكندر بك ، فقيل ولد سنة ١٤٠٠ م * ، لكن المتفق عليه بين المؤرخين أنه سُلم في صباه للدولة العثمانية وهو في سن التاسعة أو العاشرة من عمره ، وتربى في كنف السلطان .

وقد جذب إسكندر بك الأنظار إليه مبكراً لذكائه وشجاعته ، فاهتم السلطان بتربيته وتعليمه ، وجعله مع أبنائه ، أملاً في أن يكون قائداً عظيماً .

وانضم إسكندر إلى سلاح الفرسان ، و ترقى به حتى وصل إلى رتبة " أمير علم" *، وهو في سن الثامنة عشر من عمره ، وقد ظهرت براعته الحربية ومهارته من خلال مشاركته مع الجيش العثماني في بعض حروبه في آسيا وأوربا لتثبيت الوجود العثماني في تلك المناطق ، فأنعم عليه السلطان بلقب " بك " حيث اشتهر بعد ذلك باسمه المركب "إسكندر بك " . (٢)

---

(١) محمد موفاكو ،" إسكندر بك الألباني "، مجلة العربي عدد ٢٩٢ ، الكويت، مارس ١٩٨٣ ، ص ١٤٢ .

* كان جون كاستريوت على المذهب الكاثوليكي وكانت علاقته وطيدة بجمهورية البندقية ، ثم تحول إلى المذهب الأرثوذكسي بعد ما حدث تقارب بينه وبين ملك الصرب في الفترة ١٤١٩ – ١٤٢٢م ، ثم تحول إلى الإسلام ، وهكذا كان يغير عقيدته ومذهبه وفق مصالحه الشخصية مع تلك الدول .

* وقيل سنة ١٤٠٥ م وقيل ١٤١٤ م ، والأرجح هو سنة ١٤٠٠م.

* أمير علم ، أي قائد لمجموعة كبيرة من الجنود .

(٢) محمد موفاكو ، نفس المرجع ص١٤٢ ؛

Suleyman Kulçe ,op,cit, p. 55

وفى سنة ١٤٢٦م ، عاد إسكندر بك إلى ألبانيا ، ليستقر بها بجوار والده ، وتزوج من ابنة زعيم عشيرة " أرانيت " ، ولا توجد معلومات كافية حول حياة إسكندر في تلك الفترة ، ولكن المؤكد أنه كان يساعد والده ، وكان لـه تيمار خاص به ، يدير شئونه كغيره من فرسان السباهي العثمانيين . (١)

وفى سنة ١٤٣٨م عُين " صوباشي " * لمدينة " كرويا " (أقجه حصار) ، التي كان يحكمها والده .

تحول موقف إسكندر بك تجاه الدولة العثمانية

كان إسكندر بك حتى تلك اللحظة موالياً للدولة العثمانية ، رافضاً التمردات التي قام بها بعض النبلاء منذ ١٤٣٢م حتى ١٤٣٦م ، وكان حتى ذلك الوقت ضمن أعضاء النظام الإداري والسياسي العثماني في ألبانيا .

وبعد وفاة والده طالب إسكندر بأن يكون حاكماً على كرويا خلفاً له ، ولكن السلطان عين شخصاً آخر حاكماً عليها ، فغضب إسكندر لذلك وأسرها في نفسه، وعزم على تحين الفرصة للاستيلاء على تلك المدينة ، وحكمها . (٢)

وراح إسكندر يخطط سراً لهذا الأمر ، وتمت مشاورات بينه وبين بعض النبلاء الألبان للخروج على الدولة ، كما تمت اتصالات سرية بينه وبين البابا في روما ، حيث أرسل له الأخير الرسل والرسائل لتشجيعه على ذلك ، كما وطّد إسكندر علاقته بجمهورية البندقية حتى اعتبرته مواطناً فخرياً لها .

---

(1) Akademin E Shkencave Te Shqiperise , Historia E Popullit Shqiptar , Tirana , p393 ؛ Nouray Bozbora , Op , Cit , p90

* الصوباشي : من يقوم بحفظ الأمن والنظام في المدينة أو القرية (رئيس الشرطة) ، انظر: حسين مجيب المصري ، معجم الدولة العثمانية ، القاهرة ،مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٩ ، ص ١١٨ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ،ج٤، ص ١٨٥٢ ؛ خليل إينالجق ،" الأرناؤوط "، مرجع سابق ، ص ١٤٧ .

ويبدو أن هذه الاتصالات وتلك الاستعدادات كانت تتم دون علم العثمانيين فاستمرت ثقة السلطان بإسكندر بك كما هي حتى سنة ١٤٤٣م ، حيث أشركه معه في معركته مع المجر بالقرب من مدينة " نيش " سنة ١٤٤٣م .

وأثناء المعركة قرر إسكندر الانسحاب بمن معه من جنود وترك السلطان وجيشه في ميدان المعركة ، ظناً منه أن الجيش العثماني سيتأثر بهذا الانسحاب ويهزم في المعركة ، (١) وبعد عودته من ساحة المعركة مباشرة ، دخل إلى حجرة النشانجي (حامل أختام السلطان) المسئول عن ختم فرمانات السلطان ، وأمره بكتابة فرمان يعطى له الحق في حكم مدينة كرويا الألبانية ، وتحت تهديد السلاح وافق حامل الأختام على ذلك، ورغم ذلك قام إسكندر بقتله خوفاً من إفشاء سره ، وأخذ الفرمان واتجه به إلى كرويا وأظهره لحاكمها ، وأخذ مفتاح قلعتها واستولى عليها ثم أمر جنوده فقتلوا ذلك الحاكم ومن معه من الجنود التابعين للدولة العثمانية .

وصاحب ذلك إعلانه الارتداد عن الإسلام ولم يكتف بذلك ، بل تم استدعاء كل من اعتنق الإسلام في كرويا والمدن الأخرى التابعة له والتي اعترفت بسلطته ، وقام بتعذيب كل من بقى من أهلها على الدين الإسلامي ، وقتل منهم أعداداً كبيرة ، (٢) وفى سنة ١٤٤٣م أعلن إسكندر تأسيس إمارة كرويا إمارة ألبانية مستقلة ، ورفع على قلعتها علم الألبان . *

كان تمرد إسكندر بك يشكل ضربة قاصمة للعثمانيين ، نظراً لأن استقرار وضعهم في المناطق الألبانية الحدودية بينهم وبين الغرب المسيحي ، كان قد ساعدهم بمساندة الألبانيين على التوسع في البلقان ، كما أدى إلى تغير في سياستهم التوسعية ، فبدلاً من توجيه الجيوش لفتح القسطنطينية وهو الهدف الرئيسي لهم ، انشغل السلطان بالقضاء على تمرد إسكندر بك .

---

(١) محمد موفاكو ، "إسكندر بك الألباني" ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

(2) Soulyman Kulçe , Op , Cit , p 56 .

* كان ذلك العلم عبارة عن قطعة من القماش عليها صورة نسر ذو رأسين وهو علم جميع القبائل الألبانية آنذاك ، ومن ثم صار بعد ذلك العلم القومي للألبان .

وقد شجع تمرد إسكندر بك بعض نبلاء الألبان ، فأعلنوا تحالفهم معه وانقلابهم على الدولة العثمانية وأهمهم نبلاء بلشه ، وتوبيا ، وأرانيت ، ودوقاجين ، وقـاموا بطرد السباهي العثمانيين من أراضيهم واستولوا عليها .

وفي مارس سنة ١٤٤٤م عقد نبلاء الألبان – السابق ذكرهم – وعلى رأسـهم إسكندر اجتماعاً في مدينة أليشيو* الألبانية الساحلية والخاضعة آنذاك لجمهوريـة البندقية ، وكان الهدف من هذا الاجتماع مناقشة خطوات طرد العثمـانيين مـن الأراضي الألبانية .

وكان إسكندر يهدف من وراء ذلك الاجتماع إلي كسب التأييد الداخلي مـن ناحية ، وإبراز نفسه كزعيم لكل الألبان من ناحية أخرى ، كما دعا إسـكندر إلى هذا الاجتماع كلاً من جمهوريتي البندقية و راجوسا أملاً في نيل الـدعم والتأييـد منهما ، فشاركت البندقية واكتفت جمهورية راجوسا بإرسـال مـراقبين لهـا في الاجتماع لمعرفة ما يدور فيه .

واتفق نبلاء الألبان على تكوين جبهة قوية ضد الحكم العثماني ، وتأسيس جيش قوى مدعوم بالمال والجنود وأن يكون إسكندر بك هو قائد هذا الجيش .

وبدأ هؤلاء النبلاء يمارسون حقوقهم السيادية المستقلة على ما تحت أيديهم مـن أراضى، ولم تكن تلك الوحدة بينهم تسمح لإسكندر بك بالتـدخل في الشـئون الداخلية في المناطق التابعة لأي منهم .

وهكذا نجح إسكندر بك في تكوين جيش يتكون من عـدة آلاف مـن الجنـود الأساسيين إلى جانب جنود آخرين متطوعين ، وتكوّن هذا الجيش في فترة قصيرة ، وكانت أسلحته تقليدية وهى السيف والرمح . (١)

---

* أليشيو : تقع الآن شمال غرب ألبانيا ، وتسمى Lazha بالألبانية .

(1) Akademin E Shkencave Te Shqiperise , Op , Cit , p 402 ؛ Nouray Bozbora , Op , Cit ,pp.93 - 95 .

وأمام هذه التطورات المتلاحقة ، أرسل السلطان العثماني جيشاً كبيراً إلى المناطق الألبانية لإقرار النظام بها ، ولكن هذا الجيش مُنى بهزيمة فادحة ، ومن تلك السنة ١٤٤٤م أصبحت الحملات العثمانية التي توجه إلى إسكندر بك شبه دورية في كل سنة تقريباً. (١)

فأرسل السلطان جيشاً آخر بقيادة الوزير على باشا ، وتحرك الجيش تجاه كرويا عاصمة إسكندر ، وقد ترك الأخير الممرات المؤدية إلى المدينة خالية من الجنود ، فسلكها الجيش العثماني ، وعندما أصبح ذلك الجيش بأكمله داخل هذه الممرات أطبق عليه إسكندر بجنوده من أماكن متفرقة ، مما أدى إلى هزيمته ، وقُتل عدد كبير من الجنود العثمانيين .

ثم أرسل السلطان جيشاً آخر بقيادة مصطفى باشا ، لم يكن أوفر حظاً من سابقه فهُزم أيضاً . (٢)

وفى سنة ١٤٤٧م قرر السلطان مراد أن يقود الجيش بنفسه لحرب إسكندر بك وصحبه في تلك المرة ابنه ولى العهد الأمير محمد ، وسار الجيش حتى وصل إلى كرويا ، وحاصرها شهرين حتى تمكن من دخولها والاستيلاء عليها ، وفر إسكندر ومن معه إلى الجبال المحيطة بالمدينة ، وظل السلطان بها حتى حل فصل الشتاء .

وشعر السلطان بضرورة عودته إلى عاصمته لمواجهة أخطار أخرى تهدد دولته ، فعرض الصلح على إسكندر مقابل الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية ودفع الجزية ، لكن إسكندر رفض هذا العرض . (٣)

---

(١) محمد موفاكو ،" إسكندر بك "، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، مرجع سابق ، ص٦٢٩.

(٣) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولة عثمانية ، قربت مطبعة سي ، ١٣١٥ هـ، المجلد الأول ، ص ١٥١ .

وأثناء عودة السلطان بجيشه تعرض لهجوم مفاجئ من قبل إسكندر بك وجنوده من المرتفعات المتفرقة ، فأحدثوا خللاً وذعراً في صفوف الجيش العثماني ، وقُتل منه عدد كبير، ونجا السلطان وبقية الجيش من هذا الكمين .

وفى سنة ١٤٤٨م انشغل السلطان بحربه ضد المجر التي كونت تحالفاً صليبياً تمكن السلطان من هزيمته في معركة كوسوفا الثانية كما سبق الإشارة .

ثم عاد السلطان مراد بجيش أخر إلى ألبانيا سنة ١٤٤٩م ، ولكنه تعرض لكمين نصبه له إسكندر وقواته في الممرات الضيقة ، فانسحب الجيش بعد ما تكبد خسائر فادحة ، ورغم أن أغلب الانتصارات التي حققها إسكندر بك كانت بسبب مساعدة الدول الخارجية وعلى رأسها جمهورية البندقية ، إلا أنها بدأت تخشى أن تؤدى هذه الانتصارات إلى تعاظم نفوذه ، ومن ثم يشكل- فيما بعد- تهديداً لأملاكها في مدن ألبانيا الساحلية

وسرعان ما توترت العلاقة بينهما بعد موت حاكم بلدة" تيمورنجة " الساحلية ، وأراد إسكندر ضمها ، فاعترضت البندقية ، واستولت على البلدة ، وأقامت بها حامية عسكرية ، وتطور الأمر إلى صدام بين الطرفين انتهى بعقد اتفاقية بينهما تنص على أن تبقى "تيمورنجه" في أيدي البنادقة مقابل بعض الضمانات لإسكندر ، ورغم هذا الاتفاق إلا أن العلاقة بين الطرفين قد ساءت ودخلت مرحلة جديدة.(١)

وبدأ الاتحاد الذي كان بين إسكندر بك ، وبعض النبلاء الألبان يضعف شيئاً فشيئاً وهو الاتحاد الذي أسس في أليشيو سنة ١٤٤٤م ، بسبب سعي كل منهم وراء مصالحه ، وأهدافه الشخصية ، والتوسع على حساب الآخرين ، مما أدى إلى انهيار هذا الاتحاد ،كما ساءت العلاقة بين إسكندر بك ونبلاء " آركرى قصرى " و " أوهريد " و"بيرات"،الذين ظلوا على ولائهم للدولة العثمانية وخاضوا معارك عديدة ضده.(٢)

---

(1) Kristo Frasheri , Op , Cit , p. 160 .
(2) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 96 .

وهكذا بدا أن إسكندر أصبح وحيداً في معركته مع العثمانيين ، فبدأ يعتمد على أفراد عشيرته من الكاستريوت ، وجهز منهم جيشاً قوياً ، ثم بحث عن حلفاء جدد له من الخارج ، ووجد ضالته في ملك المجر صاحب العداء الشديد للعثمانيين، وبابا الفاتيكان "نيقولاس الخامس" وتقرب من الأخير حتى يضفي على حركته الصبغة الدينية ويضم إليه أفراداً جدداً ، كما أن البابا استغل حماس إسكندر وشجاعته لتحقيق أهدافه ، وأخذ يتودد إليه ولقّبه بنصير المسيحية وبطل النضال المسيحي ، كما طلب إسكندر دعم ومساعدة ملك نابولي ، صاحب المآرب الشخصية حيث كان يأمل في تأسيس إمبراطورية كبرى في البحر المتوسط ، تكون ألبانيا جزء منها ، ويكون هو حاكمها وأُبرمت بين الطرفين اتفاقية في ٢٦ مارس سنة ١٤٥١م، نصت على أن يكون ملك نابولي وصياً على جميع الأراضي الألبانية بما فيها كرويا بمجرد خروج العثمانيين من ألبانيا مقابل التأييد العسكري والسياسي لإسكندر بك ، وكانت بنود الاتفاقية كالتالي :

١- تسليم إسكندر وبقية زعماء قومه إماراتهم بما في ذلك مدينة كرويا إلى نائب الملك ألفونس الخامس .
٢- على هؤلاء أن يدفعوا للملك ألفونس الخامس الخراج الذي كانوا يؤدونه للسلطان العثماني بعد تحرير أراضيهم .
٣- يقوم ملك نابولي بتوزيع الأراضي الألبانية وفق رؤيته الشخصية .
٤- على إسكندر بك أن يأتي شخصياً إلى نابولي بعد استرداد أراضيه من العثمانيين لكي يعلن بنفسه خضوعه للملك ألفونس .
٥- يبقي الأمر للملك ألفونس في تثبيت امتيازات مدينة كرويا ، وامتيازات رؤساء العشائر الألبانية .

ورغم هذه الشروط كان ملك نابولي متخوفاً من اتفاقه مع إسكندر بك خشية أن يجر ذلك إليه المتاعب مع الدولة العثمانية أو جمهورية البندقية أو غيرهما لذلك كان يرسل له مساعدات ضئيلة . (١)

(1) Akademin E Shkencave Te Shqiperise , Op , Cit , p 427، Kristo Frasheri , Op , Cit , pp. 318 , 319 .

في تلك الأثناء كان السلطان" محمد الفاتح " الذي خلف أباه السلطان مـــراد بعد وفاته سنة ١٤٥١م، يعد العدة لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطيـــة ، حتى يتسنى له فتح ما تبقي من ممتلكاتها ، خاصة أن القسطنطينية كانت مقراً لعقـــد التحالفات والمؤمرات ضد الدولة العثمانية .

استغل إسكندر بك تلك الظروف واستطاع بالمساعدات التي وصلته من حكام راجوسا والبندقية و نابولي أن يستولي على مدينة بيرات وقلعتها التي تعتـــبر بوابـــة ألبانيا من ناحية الجنوب ، لكنه فشل في هجومه عليها بفضـــل شـــجاعة ومهـــارة حاميتها العثمانية ، وقائدها ، وانتهى الأمر بهزيمة قوات إسكندر ، وترتـــب علـــى تلك الهزيمة تخلى بعض مؤيديه عنه ، وقطع ملك نابولي المســـاعدات الـــتي كـــان يرسلها له ، ولكن إسكندر نظّم صفوف قواته مرة أخرى ، وبث فيهم الحماســـة ، ونجح سنة ١٤٥٧م في إلحاق هزيمة بالقوات العثمانية التي هاجمته فاستعاد بنصـــره هذا ، تأييد الدول التي تخلّت عنه ، بل وكسب تأييد بابا الفاتيكان " كاليكستوس الثالث " ، فأرسل له تهنئة بهذا النصر ، ووعده بمكانة مرموقة ضـــمن التحـــالف الصليبي الذي سيشكل ضد العثمانيين ، ولم يدم هذا النصر طويلاً فســـرعان مـــا أرسل السلطان جيشاً آخر بقيادة شخص يدعى "صوالى " استطاع إنـــزال هزيمـــة ساحقة بإسكندر بك ، كانت سبباً في فرار كثير من أتباعه وجنوده وانضمامهم إلى الجيش العثماني ، و من بين هؤلاء " دبره لي موسى " صديق إسكندر بك ، وقـــد رحب به السلطان لما عُرف عنه من شجاعة.

تعاون " دبره لي موسى " مع السلطان وطلب منه أن يرسل معه جيشاً قوامـــه خمسة عشر ألفاً من الجنود يستطيع بهم القضاء على حركة إسكندر بك واستجاب السلطان لطلبه ، وسار هذا القائد بمن معه من جنود حتى التقى بقوات إسكندر بك ودارت بين الطرفين معركة شديدة . (١) كان فيها جيش إسكندر هو الأقل عدداً

---

(1) Akademin E Shkencave Te Shqiperise , Op , Cit , p 419 ، Soulyman Kulçe , Op , Cit , p 254 .

ولكنه كان الأكثر تفوقاً وانتصر على القوات العثمانية ، التي مُنيت بهزيمة فادحة ، وقيل إن " دبره لي موسى" قد خان السلطان في تلك المعركة ، وانضم إلى إسكندر بك ، وأن ذهابه إلى السلطان منذ البداية كانت حيلة اتفق مع إسكندر بك على القيام بها .

وقيل أيضاً إن " دبره لي موسى " لم يخن السلطان وعاد مع باقي القوات العثمانية ولكن السلطان غضب لتلك الهزيمة فعزله ، فعندها عاد " دبـره لي موسـى " إلى ألبانيا مرة ثانية ، وطلب العفو من إسكندر بك فعفا عنه . (١)

وفى ذات الوقت نجح السلطان العثماني في استمالة أحد أقارب إسـكندر بـك ويدعى "حمزة " واتفق معه أن يجعله والياً على إحدى الولايات العثمانية بعد القضاء على إسكندر بك ، وجعله على قيادة جيش عثماني قوامه نحو أربعين ألفاً ، وأشرك معه قائداً تركياً يُدعى " عيسى بك بن أورانوس " وزحف هذا الجيش تجاه ألبانيـا وتوغل داخلها .

تظاهر إسكندر بك بالفرار أمام هذا الجيش ، حتى استقر الجنود العثمـانيون في أماكنهم فانقض عليهم وفاجأهم ، ودارت بين الجيشين معركة بين نهري "درين" Drin و"دريلو" Drilo وهُزم الجيش العثماني في هذه المعركة أيضاً ، وقُتـل منه عدد كبير ، ولجا القائد "عيسى بك " بصعوبة بالغة ، بينما أُسر " حمزة " . (٢)

وأمام تلك المحاولات المتعددة للقضاء على إسكندر بك ، وفشلها رأى السلطان أن يعقد هدنة معه حتى يتمكن من متابعة شئون الدولة الأخرى ، ويواجه الأخطار المحيطة بها فأرسل وفداً لهذا الغرض .

---

(١) السيد محمد يونس ، مرجع سابق ، ص ٣٨ ؛

Soulyman Kulçe , Op , Cit , p 254 .

(٢) أحمد فؤاد متولي ، هو يدا محمد فهمي ، تاريخ الدولة العثمانيـة ، مكتبـة إيتراك ، ٢٠٠٢م ، ص ١٥١،١٥٠ .

ورحب إسكندر بهذه الهدنة وتم الصلح بين الطرفين سنة ١٤٦١م ،ولكنه لم يدم طويلاً بسبب تدخل البابا بيوس الثاني وجمهورية البندقية ، حيث أقنعا إسكندر بنقض عهده مع السلطان محمد ففعل ، وأعلن الحرب على العثمانيين مرة أخرى وبعث إليه السلطان يذكره بالاتفاق الذي أبرم بينهما ، فلم يبال بذلك وتمادى في عدوانه على الأراضي التابعة للعثمانيين . (١)

فأرسل السلطان جيشاً بقيادة " شرمت بك " بلغ عدده نحو أربعة عشر ألف مقاتل ، وقابلهم إسكندر على بعد ثلاثة أميال من مدينة أوهري ، وهزمهم .

وبعث السلطان جيشاً آخر مكوناً من خمسة عشر ألف مقاتل بقيادة " بالا بان بك " الألباني الأصل ، وكان من أكفأ قواد السلطان ، وشارك في فتح مدينة القسطنطينية ، وأظهر شجاعة فائقة وبسالة نادرة .

حاول بالابان بك في البداية أن يستميل إسكندر باللين ، وبعث إليه الهدايا الثمينة وأغراه بالوعود ، ولم تفلح تلك الحيل فقرر بالابان بك خوض الحرب .

اتخذ إسكندر موقعاً متميزاً لملاقاة الجيش العثماني ، وكان خبيراً في اختيار المواقع الحربية ، والتقى الطرفان في معركة جديدة ، وما هي إلا ساعات حتى انهزم الجيش العثماني ، وترك ميدان المعركة ، ورغم تلك الخسارة ، إلا أن ثمانية من كبار قواد إسكندر بك أسروا. (٢) وأرسلوا إلى القسطنطينية وتم إعدامهم ، وكان لذلك أثر سيئ على معنويات إسكندر وجنوده .

---

(١) وول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة عبد الحميد يونس ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٩م ، جـ٢ ، مجلد ٦ ، ص٤٣ .

(٢) السيد محمد يونس ، مرجع سابق ، ص ٤٢،٤١ ؛
Soulyman Kulçe , Op , Cit , p 260 .

استغل السلطان محمد تلك الظروف وأرسل جيشاً أخر بقيادة "بالابان بـك "، قوامه سبعة عشر ألف فارس وثلاثون ألفاً من المشاة ، ووصل إلى ألبانيا ، وانقض على إسكندر وقواته ، وأنزل بهم هزيمة ، وأصيب إسكندر بك بجروح بالغة في ذراعه ، واصطدم جواده بجذع شجرة اصطداماً شديداً ، فمات الفرس في ساعتها، وسقط إسكندر مغشياً عليه ، لكنه ما لبث أن أفاق من غشيته ، وكر بجنوده على الجيش العثماني كرة عنيفة فرقت صفوفهم وهزمتهم .

ورغم حزن السلطان محمد وغضبه لما حدث إلا أنه واصل إرسال جيوشه إلى ألبانيا ، وتدارس الأمر مع قائده بالابان بك ، فأشار عليه بإعداد جيشين جديدين قويين ، يسيران في وقت واحد إلى ألبانيا من طريقين مختلفين ، ليصبح إسكندر وجنوده بين طرفي كماشة

وجعل على قيادة أحد الجيشين " يعقوب الأرناؤوط " وأمره بالاتجاه من ناحية الجنوب متبعاً طريق البحر ، بينما قاد بالابان الجيش الآخر ، وسار من تراقيا ومقدونيا ، ودخل ألبانيا من معابر الجبال .

وصلت هذه الأنباء إلى إسكندر بك ، فسارع إلى مواجهة كل جيش على حده قبل التقائهما ، فبدأ بجيش بالابان وهزمه ، وأسر منه عدداً كبيراً ، ثم وصلته أنباء وصول جيش يعقوب الأرناؤوط إلى مدينة بيرات فأسرع لملاقاته ، وعمد إلى حيلة قذف بها الرعب في قلوب ذلك الجيش ، حيث قام بذبح أسرى الجيش الأول وألقى برؤوسهم في ميدان المعركة ، بيد أن ذلك زاد من حماس جيش يعقوب وحنقه على إسكندر وقواته ودار بين الطرفين قتال عنيف ، وكادت الهزيمة تحل بجيش إسكندر ، لولا موت القائد العثماني يعقوب في وسط المعركة ، فانسحب جيشه منها . (١)

---

(١) سالم الرشيدي ، محمد الفاتح ، الطبعة الثانية ، بيروت، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩ ، ص ٢٣٠ ؛ السيد محمد يونس ، مرجع سابق ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

ورجع إسكندر بك إلى مدينة كرويا فرحاً مستبشراً بالنصر على العثمانيين ، واستقبله أهلها بمظاهر الفرح والابتهاج .

وأرسل إلى ملوك أوربا يبشرهم بهذا النصر ، وأهداهم بعض الغنائم والأسرى العثمانيين ، وعُد هذا النصر من أمجاد إسكندر بك ، ونظرت إليه أوربا على أنه حامى النصرانية الذي يذود عن حماها ضد الإسلام .

و أمام عجز القادة العثمانيين وفشلهم في هزيمة إسكندر ، قرر السلطان "محمد الفاتح" أن يقود بنفسه الجيوش ، وأعد جيشاً كبيراً ، وزحف به إلى ألبانيا ، واستعاد بعض القلاع والحصون .

وجد إسكندر أن لا طاقة له بهذا الجيش ، ففر إلى الجبال يتحصن بها ، وترك عاصمته كرويا ، وبها حامية قوية يقودها شخص يدعى " بالناسار بيردوس " .

وتقدم الجيش العثماني ، وحاصر المدينة حصاراً محكماً بهدف الاستيلاء عليها، وقاومت المدينة لفترة طويلة ، وطال الحصار دون تحقيق أية نتائج كما أن إسكندر لم يكف عن مهاجمة الجيش العثماني من آن لآخر ، بهدف إحداث خلل في صفوفه وإضعاف همة جنوده .

ولما طال هذا الحصار آثر السلطان أن يعود لعاصمته القسطنطينية لمتابعة شئون الدولة الأخرى ، وترك قيادة الجيش للقائد بالابان . (١)

في ذلك الوقت سنة ١٤٦٦م ، سافر إسكندر بك إلى روما متخفياً بزي فلاح وقابل البابا " بول الثاني " الذي استقبله بحفاوة بالغة ، وخلع عليه شارات التشريف وأهدى له قبعة وسيفاً .

---

(١) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٩٣ ؛ السيد يونس ، مرجع سابق ، ص٤٧،٤٦ .

وطلب إسكندر من البابا الدعم والعون ، فأصدر أوامره إلى أمـــراء أوربـــا وملوكها لمساعدته وإمداده بالمال والسلاح ، فأمدته جمهورية البندقية بعـــدد مـــن الجنود المشاة والفرسان ، ولما عاد إسكندر بك من رحلته ، وجد الجيش العثمـــاني بقيادة "بالابان" مازال محاصراً لمدينة كرويا ، كما علم أن السلطان سيرسل مـــدداً آخر بقيادة أخيه " يونس" ، فأعد إسكندر بك كميناً لهذا المدد في الطريق المـــؤدى إلى كرويا ، ثم فاجأهم بجنوده فشتتهم ، وأسر يونس وولده خضـــر ، وضـــربهما بالسيف فشقهما نصفين ، وأثار هذا الأمر بالابان وتملكه الغيظ لما حـــل بأخيـــه يونس ، فهجم بجيشه على المدينة لا يبالي بشيء واندفع وسط جنود إسكندر بـــك ، وظل يقاتل ، حتى سدد إليه أحد الجنود سهماً استقر في حلقه فخـــر صـــريعاً ، وبموته انسحب جيشه من المعركة منهزماً ، ورُفع الحصار عن كرويا.

ورغم تلك الهزيمة ، واصل السلطان محمد سياسته لإتمام فتح ألبانيـــا ، فقـــام بإنشاء قلعة حصينة في مدينة إلبسان التي فتحها من قبل وتقع علي الطريق المـــؤدى إلى كرويا ، ليقطع عنها الإمدادات والمساعدات ، كما هدم مدينة " تشورى " التي أسسها إسكندر وكان يتخذ منها حصناً لمهاجمة العثمانيين . (١)

وعندما رأى إسكندر بك ، ما قام به السلطان محمد الثاني ، وعزمـــه علـــى القضاء عليه، أصابه اليأس وقرر ترك مدينة كرويا للبنادقة ، وانتقـــل إلى إحـــدى الجزر ، وواصل تحركاته بين المدن الألبانية يدعو لقتال العثمانيين حتى أصابته حمـــى شديدة،شعر منها بقرب أجله ، فعقد اجتماعاً لقواده وأوصـــاهم فيـــه بمواصـــلة الحرب،ومساندة ابنه"جان "وعدم التخلي عنه، وأن يخلصوا له في المعونة والمشورة ، واشتد به المرض حتى مات في جمادى الآخرة سنة ٨٧١ هـــ / ينـــاير ١٤٦٧م ، وعمره آنذاك ثلاثة وستون عاماً قضى منها ما يقرب من خمسة وعشرين عامـــاً في حروب مع العثمانيين . (٢)

---

(1) Kristo Frasheri , Op , Cit , pp. 441 , 442 .

(٢) سامي فراشرى ، أرناؤدلق ، ترجمة شاهين قولونيا، إستانبول ، دار الطباعة العامرة د . ت ، ص ٢١ ، ٢٣ ؛ سالم الرشيدي ، مرجع سابق ، ص٢٣٤ .

وبموت إسكندر بك ، ضعفت المقاومة ، وتفرق أتباعه ، ولم يخلفه أحد في قيادة قواته، وواصل العثمانيون حملاتهم لإتمام فتح بقية المناطق الألبانية ، التي كانت تحت حكم البنادقة .

ففي سنة ١٤٧٤م أرسل السلطان محمد جيشاً بقيادة " سليمان باشا " لمحاصرة مدينة أشقودرة ، ولم يتمكن من فتحها بسبب شدة مقاومة أهلها ، ثم أرسل جيشاً آخر بقيادة "أحمد أورانوس " لمحاصرة كرويا سنة ١٤٧٦ م وفشل في اقتحامها.(١)

شعرت جمهورية البندقية بأنها لن تستطيع الوقوف في وجه العثمانيين أمام هذه المحاولات المتعددة والجيوش المتلاحقة ، فاضطرت لطلب الصلح مع السلطان وتعهدت بتسليم مدينة كرويا وجزيرة ليمنوس ، وجزء من شبه جزيرة الموره، ودفع جزية سنوية ،ولم يدم هذا الصلح ، فسرعان ما تراجعت البندقية عن تعهداتها، وأمام ذلك ، قاد السلطان محمد بنفسه جيشاً واتجه إلى مدينة كرويا وحاصرها حتى استسلم أهلها له مشترطين عدم التعرض لهم . (٢)

ثم اتجه السلطان بنفس الجيش إلى أشقودره وحاصرها ، وأمر جنوده باقتحامها، ولما فشل ، حاصرها حصاراً محكماً حتى اشتد على أهلها فطلبوا الاستسلام ، وخضعوا للحكم العثماني ، وطلب البنادقة الصلح مع العثمانيين ، وأبرمت بين الطرفين معاهدة في ٢٨ يناير سنة ١٤٧٩ م ، كان من شروطها أن تقوم البندقية بتسليم جميع المدن الألبانية التي تسيطر عليها للعثمانيين ماعدا ميناء دوريس ، وأن تدفع تعويضاً حربياً فضلاً عن جزية سنوية تؤديها للسلطان ، مقابل بعض الامتيازات التجارية مع العثمانيين . (٣)

---

(١) على سلطان ، تاريخ الدولة العثمانية ، ليبيا ، مكتبة طرابلس العلمية،ص٧٢.

(٢)أحمد جودت باشا ، المعلومات الكافية في الممالك العثمانية ، إستا نبول ١٢٨٩ هـ ، ص ٥٧ .

(٣)شارل ديل ، البندقية ، تعريب أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٤٧، ص ١٤٠ .

وسرعان ما استولى العثمانيون على دوريس سنة ١٥٠١م ، ولم يبق إلا مدينة أنتيفارى الساحلية التي تأخر فتحها حتى سنة ١٥٧١م ، واشترطت قبل التسـليم للعثمانيين أن تحتفظ بقوانينها القديمة ونظام حكومتها ، وأن تكفل لهـم الحريـة في أداء شعائرهم الدينية المسيحية ، وألا تتعرض كنائسهم ومعابدهم لسوء ، وأن يُعاد بناؤها إذا تطرق إليها البلى وأن يحتفظ السكان بـأملاكهم كلـها ، وألا يثقـل كاهلهم بضرائب إضافية ، وبذلك دانت كل مدن ألبانيا للحكم العثماني . (١)

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، ص ١٨٥٢ ؛ محمد فريد ، مرجع سابق ، ص ١٧٥ ؛ توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ٢٠٦ .

تقييم حركة إسكندر بك

انقسم المؤرخون حيال حركة إسكندر بك إلى فريقين متعارضين ، فالمؤرخون الأوربيون والأمريكيون وعلى رأسهم المؤرخ " ميلر " الإنجليزي و"سوسهيم "الألماني ، و"ستانفوردشو" الأمريكي يرون أن إسكندر بك بطل قومي، دفعته للقيام بحركته أهداف وطنية نبيلة ، هي تحرير ألبانيا من الحكم العثماني .

بينما يرى الفريق الثاني وهم المؤرخون الأتراك وعلى رأسهم المؤرخ " خليل إينالجق" أن حركة إسكندر بك كان الهدف منها تحقيق مصالح مادية شخصية ، فيقول :

إن إسكندر بك كان زوجاً لابنة أحد زعماء التمرد ضد الحكم العثماني في ألبانيا واسمه "أرانيتي " ، وكان إسكندر يعمل" صوباشي "لمدينة أقجة حصار (كرويا)سنة ١٤٣٨ م، وأقصى عن هذا المنصب سنة ١٤٤٠م ، فأراد أن يسترد أقجة حصار وباقي أراضي والده بأجمعها ، وأن يكون امتلاكه لها بصفته أميراً إقطاعياً ، وليس صاحب إقطاع ، ومن ثم بدأ حركة التمرد سنة ١٤٤٣ م ، وتحالف مع عائلات إقطاعية أخرى في " أليشيو " سنة ١٤٤٤م – كما مر بنا – وقد حاول الصوباشية و الصناجق الذين كانوا يحكمون آركري قصري " جيروكاستير " و أوهريد ، وبيرات أن يكبحوا جماح إسكندر بك بقوات محلية خوفاً من استفحال نفوذه ، فكان يرد عليهم بشن حرب عصابات .

ولم تكن هذه المعارك سوى صدامات محلية ، لأن جنود إسكندر لم يزيدوا في أي وقت عن عدة آلاف جندي .

ثم يقيم المؤرخ خليل إينالجق الدليل على أن إسكندر بك لم يكن بطلاً قومياً بأنه ارتضى لنفسه أن يكون تابعاً لملك نابولي " ألفونس الخامس " بمقتضى المعاهدة المبرمة بينهما في مارس سنة ١٤٥١م ، وأنه سلم مدينة كرويا لرجال هذا الملك ، ومعنى هذا أنه كان يعمل لحساب الاستعمار الأجنبي النابولي الذي ابتغى مد نفوذ

مملكة نابولي إلى ألبانيا ، وأنه فرّط في حق وطنه حين وافق على تسليم هذه المدينة الهامة ذات المركز الاستراتيجي في ألبانيا لملك أجنبي . (١)

ويزيد على ذلك فيقول ، إن الحالة العامة في ألبانيا لم تكن تتطلب هذه الأوضاع التي ارتضاها إسكندر بك ، ويستند في هذا الرأي إلى وثيقة أرجوانية معاصرة جاء فيها " أن العامة كانوا لا يكادون يجدون أي شكوى من الإدارة العثمانية " ، وهوما يؤكد أن الأصل في تمرد إسكندر بك ودوافع هذا التمرد لا تختلف عما كان عليه الأمراء الألبانيون الآخرون ، وأنه لجح في صبغ نشاطه الخارق وشجاعته النادرة والموقف الدولي السائد في ذلك الوقت بطابع من الأهمية الدولية، وجعلت المؤرخين الأوربيين ينساقون وراءه وينسجون قصصاً من الخيال عن تمرده، وعن حجم القوات التي كانت تحت إمرته ، وكان من بينهم المؤرخ الإيطالي "مارينو بارلزيو" . (٢)

ويبدو أن المؤرخين الأوربيين قد تعاطفوا مع حركة إسكندر بك ضد الدولة العثمانية ، وكان من أسباب هذا التعاطف وحدة العقيدة الدينية ، يضاف إلى ذلك أن معظم المؤرخين الأوربيين كانوا يمقتون الدولة العثمانية مقتاً شديداً ، ويرون فيها خطراً كبيراً يهدد الوجود المسيحي في أوربا ، ولذلك كانوا يتمنون أن ينجح إسكندر بك في إخراج العثمانيين من ألبانيا كخطوة أولى لها ما بعدها حيث طردهم من أوربا كلها .

وتغاضى هذا الفريق من المؤرخين عن مسألة هامة وهي أن إسكندر بك كان يبغي مصالحه المادية والشخصية ويضعها فوق كل اعتبار، وقد أعطوا له حجماً أكبر من حجمه الطبيعي ، وتغاضوا عن تصرفاته التي دلت على أنه كان يعمل لحساب دول أخرى لها تطلعاتها في ألبانيا مثل جمهورية البندقية ونابولي والمجر .

---

(١) خليل إينالجق ، مرجع سابق ، ص ١٤٨ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، جـ ٤ ، ص ١٨٥٣ .

وقد بالغ هؤلاء المؤرخون الأوربيون في وصف جيش إسكندر من حيث عـــدده وقدراته الحربية ، رغم أنه لم يتجاوز بضعة آلاف .

وإذا كان إسكندر بك محارباً قديراً ، وشجاعا عنيداً ، ومتعصباً دينياً ، فقد كان أيضاً له مطامعه ، وأغراضه الشخصية ، قضى أكثر من ربع قرن ، يقود حركـــة عصيان وتمرد ضد الدولة العثمانية وهى دولة عسكرية من الدرجة الأولى ، وذات موارد بشرية ومادية ضخمة ، وكانت لا تزال في عنفوانها ، ولكن الـــذي أعـــان إسكندر بك على مواصلة حركتة أمران:

الأول : أنه استغل ببراعة الطبيعة الجبلية في شمال ألبانيا

ثانياً : انصراف السلطان مراد الثاني وابنه محمد الثاني إلى مواجهة مشكلات عاجلة كانت تهدد الدولة في أوربا والأناضول ، وكانت هذه المشكلات أكثر خطورة من مشكلة ألبانيا واستكمال فتحها .

لقد أخفق إسكندر بك في تحقيق هدفه الشخصي من حركته هذه وبقي مركـــزه على ما كان عليه زعيماً كاثوليكياً محلياً في شمال ألبانيا وكانت استمرار العمليـــات الحربية على امتداد أكثر من ربع قرن قد استنـــزف موارد ألبانيا البشرية ، وأعاق النمو العمراني فيها وأصاب اقتصاديات البلاد بأضرار جسيمة . (١)

وبعد وفاته لجأ عدد من الألبانيين الذين تورطوا في مشاركته حركة العصيان إلى الجبال ، وهاجرت أعداد منها إلى نابولي ، واستمرت هجراتها على نطاق واسع في سنوات ١٤٧٨ ، ١٤٨١ ، ١٤٩٢م إلى جنوب إيطاليا ، وجزيـــرة صـــقلية ، حيث احتفظوا بلغتهم وعاداتهم حتى اليوم . (٢)

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، جـ٤ ، ص ١٨٥٤ ، ١٨٥٥ .

(٢) بطرس البستاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، بيروت ، دار المعرفة ، د . ت ، ص ٢٤٢ ؛ السيد حسين جلال ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢ .

وعلى الجانب الآخر فقد كان للحرب الطويلة التي قادها إسكندر بك والتي أنهكت الدولة العثمانية لمدة خمسة وعشرين عاماً تقريباً ، نتائج خطيرة وبعيدة المدى فيما يتعلق بالإسلام في أوربا بصفة عامه والبلقان بصفة خاصة ، كما تقول بذلك الباحثة السوفيتية "إيرينا سنكفيتش " المتخصصة في دراسة التاريخ الألباني ، والتي تشدد على دور إسكندر بك في إعاقة التوسع العثماني الإسلامي في أوربا سواء في الشمال تجاه المجر أو في الغرب تجاه إيطاليا ، إذ وجهت الدولة العثمانية إليه عدة جيوش لفترة من الزمن ، مما شغلها عن متابعة فتوحاتها في اتجاه أوربا الغربية .

حيث كان السلطان محمد الثاني يحلم بفتح روما بعد فتحه للقسطنطينية ، ليحول البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية .

إلا أن كرويا عاصمة إسكندر بك كانت هي العقبة في وجه السلطان محمد ولذلك قاد بنفسه الجيوش للقضاء عليه .

وحين سقطت كرويا سنة ١٤٧٨م انفتح الطريق إلى روما ، وأعقب ذلك مباشرة الإنزال العثماني على الشاطئ الإيطالي في " أوترانتو" سنة ١٤٨٠م إلا أن وفاة السلطان محمد سنة ١٤٨١م أجلت المشروع لأن خليفته السلطان بايزيد الثاني لم يكن مهتماً بمتابعة الفتح في هذا الاتجاه .

ولهذا الدور الخطير الذي قام به إسكندر بك ، مدحه البابا كاليكستوس الثالث (١٤٥٥ – ١٤٥٨م) في إحدى رسائله إلى ملك نابولي ألفونس الخامس بتاريخ ٨ شباط سنة ١٤٥٧م حيث استعمل أفضل عبارات التمجيد فقال عنه : " الذي أقام سداً منيعاً أوقف وراءه الفيضان التركي ومنعه من أن يجتاح أوربا المسيحية ". (١)

---

(١) محمد موفاكو ،" إسكندر بك "، مرجع سابق ، ص ١٤٥ .

وأخلص مما سبق أن إسكندر بك ، الذي أخذ إلى القصر السلطاني وتمت تربيته ورعايته بين أبناء السلاطين والأمراء ، وتعليمه فنـــون الفروســـية وعلـــوم الإدارة والسياسة ، حتى صار رجلاً قوياً ذا شأن عظيم .

وكان السلطان مراد الثاني يجد فيه ما يؤهله لبلوغ مراكـــز متقدمـــة في إدارة شئون الدولة ، وحرص على إسناد بعض هذه المراكز إليه ، كما أشـــركه معـــه في بعض حروبه لإعجابه بشجاعته وقدرته الحربية وثقته به .

إلا أن إسكندر بك قابل هذا الإحسان بالإساءة ، حين أقدم على ما أقدم عليه ويرجع ذلك لبعض الأسباب وهي :

قلة خبرته وحنكته السياسية ، وضيق أفقه ، وقصر تطلعاته إذ أنه غضب لعدم توليه مدينة صغيرة مثل كرويا في بداية الأمر ، وكان بإمكانه لو ظل علـــى ولائـــه للدولة العثمانية أن يتولى منصباً كبيراً مثل منصب الصدر الأعظم مـــثلاً ، الـــذي تولاه كثير من الألبان الذين أخلصوا للدولة العثمانية أو ربما كان قد تولى حكـــم ولاية عثمانية كبيرة .

لقد أخطأ إسكندر حينما انسحب من معركة " نيش " سنة ١٤٤٣م ، وتـــرك الجيش العثماني ، ظناً منه أنه سيهزم ، وأن الدولة العثمانية ستنهار وتنسحب مـــن ألبانيا ، ويسترد هو كل أملاك أبيه وغاب عنه أنه حتى وإن هُزم العثمانيون في تلك المعركة ، فإنهم بمواردهم وإمكانياتهم العسكرية أكبر من التأثر بهزيمة واحدة تنـــهار الدولة على إثرها .

ومما ساعد إسكندر على الاستمرار في سياسته تجاه العثمانيين ، اعتقاده بمساندة بعض دول أوربا له مثل مملكة المجر ، ومملكة نابولي ، وجمهورية البندقية ، ولم يدرك أن هذه الدول تبحث فقط عن مصالحها ، وتحقيق أهدافها، ولذلك تخلـــت عنـــه في أوقات الشدة ، حتى لا تدخل في حروب لا طاقة لها بها مع الدولة العثمانية .

بل إن البندقية نفسها حاربت إسكندر بك حينما رأت في انتصاراته خطراً يهدد مصالحها في المدن الساحلية الألبانية التي تسيطر عليها مثل دوريس وأشقودرة .

أما القول بأن إسكندر بك كان نصير المسيح وحامى المسيحية فهذا قول يجانبه الصواب ، حيث إن كثيراً من شعوب أوربا المسيحية دخلت طواعية في الإسلام ووجدوا فيه في ظل حكم العثمانيين حياة كريمة لم يشهدوها في ظل حكامهم المسيحيين من حيث الحرية ، والمساواة ، ورغد العيش ، ولم يجبر العثمانيون أحداً على اعتناق الدين الإسلامي والشواهد على ذلك كثيرة باعترافات الأوربيين أنفسهم ، وسأذكر ذلك في موضع لاحق من البحث ، ولم يكن لهذه الألفاظ من هدف إلا تشجيع إسكندر وإثارة الحماسة لدى أتباعه ، وكان لبابوات الفاتيكان الأثر الكبير في ذلك بدءًا من البابا "أوجين الرابع" الذي اتصل بإسكندر وشجعه على الارتداد عن الإسلام .

أما مسألة أن إسكندر كان بطلاً قومياً ، وثائراً وطنياً ، فقد سبق سرد بعض المواقف التي تدحض هذا الرأي ومنها تحالفه مع ملك نابولي ، وموافقته تسليم ألبانيا بعد خروج العثمانيين منها .

ولو كان إسكندر بطلاً قومياً لالتف حوله بقية شعبه وناصروه ، ولكننا رأينا كيف أن بعض رؤساء العشائر أعلنوا الحرب عليه ، ودارت بينهم وبينه أشبه ما يعرف بحرب العصابات ، ومعارك داخلية عديدة .

وحتى بعض النبلاء الذين تحالفوا معه في مؤتمر أليشيو سنة ١٤٤٤م ، سرعان ما انفضوا عنه وتركوه ، لإدراكهم أنه يسعى لمصالحه الشخصية ، ويحاول السيطرة على أكبر قدر من الأراضي الألبانية .

بالإضافة إلى ذلك فإن الدولة العثمانية ، لم تنتزع من أحد من زعماء الألبان مكانته ولا سيادته ، بل أقرت زعيم كل قبيلة على ما تحت يديه ، مقابل خراج يؤديه إليها وإمدادها ببعض الجنود في وقت الحرب ، وتركت له الحرية في كل شئ،فهل يعنى موقفهم هذا أنهم غير وطنين وأن إسكندر وحده هو الوطني الغيور على وطنه .

وأخيراً فإن إسكندر بك أخذ من الناحية التاريخية اهتماماً كـبيراً لأن أغلـب الكتابات التي كُتبت عن تاريخ ألبانيا كانت في الفترات المتأخرة من الحكم العثماني لألبانيا ، وبداية ظهور القومية الألبانية ، والسعي للاستقلال عن الدولة العثمانيـة و محاولة إظهار مساوئها وكانت أغلب تلك الكتابات لكُتّاب ومؤرخين من دعاة القومية .

ورغم ذلك كله فإننا نؤكد أن إسكندر بك المرتد عن الإسلام كان محارباً قديراً ماهراً أتقن فنون القتال ، وإعداد الخطط العسكرية ، واختيار جنوده وأعوانه بعناية واستفاد من الإمكانيات المتاحة لديه ، واستغل الطبيعة الجبلية لألبانيا أفضل استغلال في حروبه مع العثمانيين ،كما أنه كان نموذجاً لطبيعة الرجل الألباني الصلبة ، الذي يأبى الهزيمة والاستسلام .

الفصل الثاني

الـنظم الإداريـة و الاقتصـادية و الاجتماعيـة في ألبانيـا إبـان الحكم العثماني

المبحث الأول : النظام الإداري

المبحث الثاني : النظام الاقتصادي

أولاً: التيمار .

ثانياً: نظام الأعيان .

ثالثاً: مظاهر النشاط الاقتصادى

أ : الزراعة .

ب : الصناعة والتجارة .

المبحث الثالث : النظام الاجتماعي

المبحث الأول

النظام الإداري

في البداية تجدر الإشارة إلى أن الدولة العثمانية كانت تطلق علـــى أملاكهـــا في أوربا ومنطقة البلقان اسم "إيالة *الروملي"وكانت تطلق علـــى حاكمهـــا اســـم "البكلربك"*(١)ثم قامت بتقسيم هذا الإقليم أو الإيالة إلي مجموعه من السناجق *.

و قد جعلت ألبانيا سنجقاً من تلك السناجق ، و أطلقت عليه اســـم"ســـنجق أروانيد" أو" أرناؤدإيلي" أي ولاية الأرناؤود وكان ذلك سنة ١٤١٨م .

---

* الإيالة : هيالوحدة الإدارية الأساسية في النظام العثماني ويتولى حكمهـــا حـــاكم برتبة بكلربك، وكانت منطقة الروملي هي أولى الإيالات التي تشـــكلت عنـــد العثمانيين و قد جعل السلطان مـــراد الأول حكمهـــا للقائـــد " لا لاشـــاهين " سنة١٣٦٢م ، و إلي جانب إيالة الروملي ، كانت هناك إيالتا الأناضول والمنطقة العربية و قد تعرض نظام الإيالة لتغيرات و تحولات كثيرة خلال الحكم العثماني .

*بكلر بك : هو الحاكم العام للإيالة و معناها "أمير الأمراء"و كان يتمتع بصلاحيات سياسية وعسكرية واسعة أهمها حماية الرعايا و حفظ الأمن و تحقيق العدل و توزيع التيمارات و إعداد الجيش و الخروج للحرب وغيرها .

(١) بول كولز، مرجع سابق ، ص ٤٦.

* السنجق : لفظة تركية لها عدة معان منها "العلم و البيرق" و منها لواء أو فرقة أي تشكيل من تشكيلات الجيش ، و بصفة عامة هو وحدة تقسيم أساسية ذات صفة عسكرية و إدارية يتولى حكمها أحد البكوات ،و الجدير بالـــذكر أن تقســـيمات السناجق العثمانية ، كان يجرى تغييرها من حين لآخر ، و كانت الإيالة وهى اكبر وحدة إدارية في النظام الإداري العثماني تتشكل من مجموعة من السناجق .

ثم قامت الحكومة العثمانية بتقسيم سنجق أروانيد هذا إلى عدد من المقاطعـــات هي "أرجيرى قصرى" * (جيروكاستير) و " كليسورا " و "بيرات" و"تيمورنجة" و"إسكربار" و"باولوقورتك" و"جارتالوس" و"أقجةحصار" وجعلت مركــز هـــذا السنجق أو عاصمته مقاطعة "أرجيرى قصرى" التي سميت باسم قلعتها المشهورة ،ثم ضمت إلى السنجق مناطق أخرى بعد فتحها هي "بريمتي" و"إيوان إيلى" و"براســـبة إيلى" . (١)

وظل هذا النظام معمولاً به حتى سنة ١٤٦٦م ،حيث قام السلطان "محمـــدالفاتح" بفتح مدينة "إلبسان" وأنشأ بها قلعه عرفت باسمها ، ثم جعلها سنجقاً جديداً سمـــى سنجق "إلبسان" كما أنشأ في الجنوب سنجق "أولونيـــة" و في الشـــرق ســـنجق "أوهري" . (٢)

و قد طرأ على هذا التقسيم بعض التعديلات من وقت لآخر،ففي سنة ١٥٠٦ م، و بعد القضاء على التمردات الألبانية التي قامت ضد العثمانيين ،تم تنظيم ألبانيـــا إدارياً من جديد ،فتم تقسيمها إلى سبع سناجق هى :

---

(١) محمد الأرناؤوط ،دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان ، مرجـــع سابق ص ١٥ ؛

- Akademin E Shkencave Te Shqiperise , Op , Cit, pp. 515, 516 .

* كانت مجرد قلعة حتى منتصف القرن الرابع عشر حين أخذت تظهر في جوارها ضاحية سكنية ، فاختارها العثمانيون لتكون مركزاً للسنجق الجديد ، مما جعلها تتطور بسرعة إلى مدينة مهمة .

(2) Machiel Kiel ، Ottoman Architecture In Albania 1385-1912, Istanbul ,1990 , p.20.

أولونية ، بريزرن ، دوقاجين ، أشقودرة ، أوهرى ، إلبسان و فلورا ، (١)
و قيل بل كانت مقسمة إلي عشرة سناجق .

و استمر العمل بذلك التقسيم حتى منتصف القرن التاسع عشر ، حيث قامت الحكومة العثمانية – طبقاً لقوانين تشكيل الولايات بين عامي ١٨٦٤،١٨٦٧م – بتقسيم ألبانيا إدارياً من جديد حتى يسهل إدارتها ، فتم تقسيمها إلى أربع ولايات هى أشقودرة ، مناستير ، يانيا ، كوسوفا . (٢) *

و كانت هذه الولايات بمثابة وحدات إدارية مستقلة ذاتياً ، و لها إداراتها ، ووحداتها العسكرية الخاصة ، و لكل منها والى و مجالس إدارية (برلمانات) ، و جيش و محاكم وغيرها من المؤسسات الحكومية ، وكان حكام تلك الولايات الأربع نواباً في البرلمان التركي عن ولاياتهم . (٣)

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 107 .

(٢) عبد الرؤوف سنّو ، النزاعات الكيانية في الدولة العثمانية ، الطبعة الأولي ، بيروت ، بيسان للنشر ، ١٩٩٨م ، ص٤٠ .

* وكانت مساحة تلك الولايات في ذلك الوقت كالتالى :
مناستير (١١٠٠٠)كم ، كوسوفا (١٢٧٠٠) كم ، أشقودرة (٤١٧٠)كم ، يانيا (٦٩١٠)كم انظر :سليم العقاد ، تاريخ الحرب البلقانية ، مطبعة الهلال ، مصر ١٩١٣م .

(٣) بكر إسماعيل ، ما هى كوسوفا ، مرجع سابق ص١٥ ، و لمزيد من المعلومات عن السكان و دياناتهم في تلك الو لايات ، انظر :

- Peter Bartl , arnavutluk müslümanlari , 1878 - 1912 , Istanbul 1998 .

ورغم تلك التقسيمات و التعديلات إلا أن الدولة العثمانية حافظت بشكل عام على الحدود السياسية و الإدارية القديمة لألبانيا . *

وما إن استقر العثمانيون في البلاد ، حتى قاموا بوضع التدابير التي تضمن لهم إحكام سيطرتهم عليها، و من هذه التدابير تشييد المعسكرات الصغيرة في القلاع التي لها أهمية استراتيجية ، و تدمير القلاع عديمة الأهميه و ذلك لسببين:

أولهما : صعوبة توفير القوة العسكرية الدائمة التي تستقر بتلك القلاع .

ثانيهما : حتى لا تكون تلك القلاع مركزاً لبعض النبلاء يتخذونه لمقاومة الحكم العثماني . (١)

كان ذلك هو التنظيم الإداري لألبانيا في ظل الحكم العثماني ، و لعله من الجدير بالذكر أن أقاليم الدولة العثمانية لم تكن تدار جميعها بأسلوب واحد ، فالأقاليم التي تخضع مباشرة للإدارة المركزية العثمانية ، تختلف عن أقاليم أخرى تدار بمعرفة قيادات محلية من زعماء قبائل و أمراء تابعين ، و تعرف بالأقاليم الوراثية – لأن الحكم فيها كان يتوارث بين أبناء كل أمير – و لا تلتزم إلا بتقديم جزية سنوية تعرف بالساليانة * للحكومة المركزية فضلاً عن إبداء الولاء التام والطاعة للسلطان العثماني الحاكم . (٢)

---

* و هنا فرق شاسع بين أسلوب العثمانيين الذين حافظوا على حدود ووحدة و تاريخ البلاد التى حكموها بما فيها ألبانيا و بين قوى أخرى احتلت ألبانيا،كالنمسا ،و الصرب و البندقية ، لم يكن لها هم سوى استغلال ثرواتها ونهبها ، و تفريق شعبها حيث كان كل منهم يقتطع لنفسه جزءًا من الأراضي الألبانية يحكمه بالقهر و لا يبالى بحقوق أصحابه .

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , pp. 56 , 57 .

(٢) بيتر شوجر ، أوربا العثمانية ، ترجمة عاصم الدسوقى ، الطبعة الأولى ، القاهرة، دار الثقافة ١٩٩٨، ص ٥٨.

* ساليانة :كلمة فارسية تعنى الضريبة السنوية التي تؤديها الولايات لخزانة لدولة .

و بالنسبة لألبانيا فقد كانت من الأقاليم التي تخضع للحكم المباشر مـــن قبـــل الإدارة المركزية العثمانية ، و كان الجهاز الإداري العثماني يضم ثلاث قوى رئيسية هي :الوالى و فرقة الفرسان (السباهية) إلى جانب القضاة ، و أتنـــاول في إيجـــاز التعريف بكل منها و دوره .

أولاً : الوالي .

كان الولاة دائماً من القيادات العسكرية ، و كان الوالى يحصل على دخل جيد يكفيه و عائلته ، و كان مسئولاً عن إقرار الأمن و النظام في الإقليم ، و القضـــاء على حركات التمرد و العصيان ، و مواجهة الاشتباكات الصغيرة ، و مناواشـــات الحدود و تجهيز القوات المطلوبة للحملات العسكرية الكبيرة التي تطلبها الدولـــة العثمانية ، ومن حين لآخر كان يسعى لفض الخصومات والمنازعات بين الأفراد.(١)

كما كان من أهم مهامه منح التيمارات لمستحقيها ، و مراقبة أعمال الســـباهية وأصحاب التيمارات وضمان اشتراكهم في الحروب مع الجنود الـــذين يقومـــون بإعدادهم و تجهيزهم . (٢)

و كان يساعد الوالى بعض الموظفين من كبار القادة مثـــل "الـــدفتردار"و هـــو المسئول عن الخزانة ، و جمع الضرائب ، إلى جانب "الصوباشى " (رئيس الشرطة)، و القاضى ، وكبار فرقة السباهية (الفرسان) .

---

(١) بيتر شوجر ، المرجع السابق ، ص ٥٤ ،٥٥ ؛ محمـــد أنـــيس ، الدولـــة العثمانيـــة و الشـــرق العـــربي ، القـــاهرة ، مكتبـــة الأنجلـــو ١٩٨٥م ، ص٦٢-١٠١ .

(٢) رولان موسينيه ، تاريخ الحضارات العام (القرنان السادس عشر و السابع عشر) ، نقله إلى العربية يوسف أسعد داغر ، بـــيروت ، عويـــدات للنشـــر والطباعة ، ٢٠٠١م ، ص ٥٤٧ ؛ أكمل الدين إحسان ، مرجـــع ســـابق ، جـــ١ ، ص ٢٦١ .

ثانياً :السباهية (الفرسان) .

السباهى لفظة فارسية معناها الفارس ، وهى إحدى عناصر الطبقة العسكرية العثمانية مثل فرقة الإنكشارية ، و لكنهم يختلفون عنهم في بعض الجوانب ، حيث كانوا يمنحون من قبل الدولة إقطاعات من الأراضي تتفاوت في مساحتها حسب الرتبة العسكرية بدلاً من الحصول على رواتب نقدية بشكل منتظم من الخزانة .

وكانوا في المراحل الأولى للتوسع العثماني يتشكلون من الفرسان المسلمين الذين يعملون كمتطوعين في الجيش العثماني ،ثم لم يعد الأمر مقصوراً على المسلمين ، بل شمل المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية خاصة ملاك الأراضي الذين لم يشتركوا في مقاومة الجيش العثماني ، و أعلنوا ولاءهم للسلطان ، أو من المسيحيين ذوى النفوذ، و الفرسان الذين أبدوا استعدادهم للعمل في خدمة الدولة العثمانية .

وكان السلطان ينعم على أفراد الفرقة بإقطاعات كان معظمها ملكاً لنبلاء ألبان ، تخلّوا عنها ، و فروا هاربين بعد هزيمتهم أمام الجيوش العثمانية ، و كان السباهية يمنحون هذه الإقطاعات مقابل استعدادهم الدائم للحرب في الجيش العثماني ، وتلبية نداء السلطان عندمايطلبون للحرب ، و إحضار المقاتلين المسلحين و المدربين لذلك (١) ، ويبدو أن الدولة اتخذت هذا النظام لسببين رئيسيين :

أولهما : تخفيف العبء المادى على الخزينة فلا تدفع رواتب نقدية ، ثانيهما : صبغ المناطق المفتوحة بالصبغة العثمانية، فلم يكن الهدف من الفتوحات مجرد احتلال عسكرى فحسب ، بل محاولة إدماج أهالي البلاد المفتوحة داخل الكيان العثماني ، وقد نجح هذا النظام في إيجاد روابط قوية بين الدولة ورعاياها من مختلف الجنسيات.

(1) Malcolm Noel , Kosovo , London 1998 , pp. 97 , 98 ؛

بيتر شوجر مرجع سابق ، ص ٥٦ ؛ محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ص ٥٨؛ عراقي يوسف محمد ، الوجود العثماني في مصر في القرنين السادس عشر و السابع عشر ، القاهرة :دار الحكمة للإعلام و النشر ١٩٩٦م ، جـ١ ، ص ١٥ .

و إذا فشل أحد السباهى في أداء واجباته أو قصر في الاستجابة الفورية لنداء السلطان كان يتم تجريده من إقطاعيته ، و تنقل بذلك إلى سباهى آخر ، بحكم أن السلطان هو المالك الفعلي للأرض من الناحية القانونية . (١)

و إلى جانب عمل السباهى في سلاح الفرسان ، كان يناط بهم بعض الأعمال المالية و الإدارية التي كانت تجعلهم على اتصال مباشر مع السكان .

و يرجع الفضل في تنظيم تلك الفرقة إلى الوزير العثماني "ديمورطاش باشا"، و كانوا يتخذون لأنفسهم علماً أحمر كرمز لهم . (٢)

ثالثاً :– القضاة .

يأتي بعد السباهى من ممثلي النظام العثماني "القضاة" ، و كان هذا المنصب مقصوراً على المسلمين فقط ، حيث إن القاضى كان مسئولاً عن تطبيق الشريعة الإسلامية بين المسلمين، وكان يفصل أيضاً بين المسلمين والمسيحيين في بعض القضايا ، بعد استنباط الحكم من الشريعة الإسلامية و من القوانين المحلية الموروثة التي دمجها العثمانيون مع أحكام الشريعة . (٣)

وهكذا كان الإقليم يدار بواسطة هؤلاء ، الوالى ،و فرقة السباهى ، و القضاة بصفة أساسية و يساعدهم بعض الموظفين الذين يلونهم في الأهمية كالدفتردار و الصوباشى وغيرهم ، وقد أسندت الدولة العثمانية هذه الوظائف الثانوية إلى أهالي البلاد من المسلمين أو المسيخيين .

---

(١) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص١٣٢ .

(3) Malcolm Noel , Op , Cit , p. 98 .

المبحث الثاني

النظام الاقتصادي

أولاً : التيمار

أعقب دخول العثمانيين ألبانيا سنة ١٣٨٩م ، القيام بمسح للأراضي الألبانية التي سيطروا عليها ، و تم تسجيلها في سجلات و دفاتر ، و رغم أن العثمانيين اعتبروا أن السلطان العثماني هو المالك الوحيد للأرض في ذلك الوقت ، إلا أنهم بعد تسجيلها قاموا بتوزيعها على فرقة السباهية – السالفة الذكر – و على كبار الملاك و النبلاء من الأتراك و الألبان المحليين بهدف استمالتهم ، و حثهم على الدخول في طاعة السلطان العثماني و الولاء له ، فضلاً على تشجيعهم على اعتناق الإسلام . (١)

و قد أطلق على هذا النظام اسم "التيمار" Timar *.

فالتيماريون إذاً هم رجال هذه الطبقة التي منحت أراضي لزراعتها مقابل واجبات فرضت عليهم تجاه الدولة العثمانية ، و هذه الطائفة تشكلت من المحاربين الأحرار، الذين كانوا يلتحقون بإحدى القيادات العسكرية تطوعاً و اختياراً ، وكانوا يجندون من عائلات البكوات و العائلات الكبيرة الأخرى .

---

(١) خليل إينالجق ، "الأرناؤوط "، مرجع سابق ، ص١٤٥ .

* تيمار : بكسر التاء كل أرض زراعية تُدر في العام ما لا يقل عن (٢٠ألف) أقجة . وهى كلمة فارسية معناها الأصلي كل ما يعطى للمريض أو الحيوان أو الأرض أو النبات من مؤن وعناية ،و هو ترجمة كلمة Pronoia اليونانية ، و تقابل في اللاتينية لفظ Cura ، و اشتق من Curator الإنجليزية و curateur الفرنسية ، و معناها ناظر وقف أو وصى ، أو وكيل تركة ، أو ولى أو قيم .

و قد كان للتيماريين بناؤهم الوظيفي الهرمي ، و تتمثل مكانة كل واحد منهم في ذلك البناء ، و مسئولياته بمقدار الدخل الذي تُدره عليه قطعة الأرض التي تمنح له ، ويقدر حجمها بقدر منجزاته العسكرية . (١)

و قد أخذ العثمانيون ذلك النظام عن نظام الإقطاع عند السلاجقة ،و قيل أخذوه عن البيزنطيين ، و يُعد السلطان العثماني "بايزيد الأول" هو أول من وضع أساس نظام التيمار في ألبانيا ، إلا أن ذلك النظام لم يشهد استقراراً حقيقياًوتنظيماً إلا في عهد السلطان "محمد جلبي" (١٤١٣-١٤٢١)م . (٢)

ثم قام السلطان " محمد الفاتح " ببعض الإجراءات لإحكامه ، و إزالة العوائق التي تعوق تطبيقه ونجاحه ، كما اهتم بذلك أيضاً السلطان سليم الأول .

أما تدوين الأسس و القواعد القانونية لهذا النظام ثم تطويرها و وضع التعديلات اللازمة عليها فحدث في عهد السلطان سليمان القانوني . (٣)

والوحدة الأساسية في نظام التيمار من الأرض كانت تسمى "الجفلك" (الوسية الخاصة) حيث يحتوى كل تيمار على هذه الوحدة ، يقوم صاحب التيمار بزراعتها مباشرة أو من خلال مستأجر ينوب عنه ، و تختلف مساحتها من فرد لآخر ، و في كل الأحوال كان لابد أن تكون القطعة الواحدة كبيرة بدرجة تكفي صاحبها و أسرته بما تُدره ، و تتوقف مساحتها – شأن المساحة الكلية للتيمار– على مدى خصوبة التربة،و بصفة عامة كانت مساحتها تتراوح بين (١٤-٣٥) آكر . * (٤)

---

(١) بيتر شوجر ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(2) Halil Inalçik , Fatih Devri , Vzerinde Tetkiklar Ve Vesikaler, Ankara , 1954 , p. 158 .

(٣) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، جـ١، ص ٢٦٨ .

(٤) بيتر شوجر ، نفس المرجع ، ص١١٨ .

* تساوى هذه المساحة طبقاً للمقاييس التركية من ٦٠-١٥٠ دونم ،و الدونم الواحد = (١٢٤٢٤) ياردة مربعة .

و يفرض على صاحب الجفلك الاحتفاظ بسلاحه العسكري ، و حصانه ليكون متأهباً عند الطلب ، أما أصحاب التيمارات الكبرى ، فعليهم أن يكونوا بكامـــل دروعهم عندما تحين ساعة حشد القوات المتحاربة ، و عليهم أيضاً أن يمدوا الجيش بما يزيد عن حاجتهم من دخل التيمار . (١)

أنواع التيمار :-

يختلف حجم التيمار من شخص لآخر و من مكان لآخر ، و يتحدد نوع كـــل تيمار حسب ما يُدره من دخل لصاحبه ، فالتيمار الصغير هو الـــذي يُـــدر علـــى صاحبه دخلاً يبلغ ثلاثة آلاف أقجة* و يطلق على صاحبه "تيمارجى" .

أما التيمار الذي يدر دخلاً يتراوح بين عشرين ألفاً و أقل من مائة ألف أقجـــه، فكان يعرف بالزعامت ، و يعرف حائزوه باسم "الزعماء " ، وكان على أصحاب هذا النوع من التيمار واجبات عسكرية مهمة ، و أعباء إدارية تفوق التي كانـــت لأصحاب التيمارات البسيطة ، أما النوع الثالث ، فكان ذلك التيمار الذي يـــدر دخلاً أكثر من مائة ألف أقجة وكان يعرف باسم " الخاص" ، و يخصص لأصحاب الوظائف العليا ، والوجهاء ، ومعظم رجال الحكم و الإدارة ، و أفـــراد العائلـــة السلطانية . (٢)

---

* الأقجة :كانت الوحدة الأساسية للعملة العثمانية ، وتم سكّها لأول مرة في عهد السلطان أورخان سنة ١٣٢٧م ،وكانت تستخدم فى كل المعاملات الرسمية حـــتى نهاية القرن السابع عشر سنة ١٦٨٧م ، وكان وزنها حتى ســـنة ١٤٥٣م (٣,٢) جرام تحتوى على ٩٠ % من الفضة ثم هبطت قيمتها تـــدريجياً ، وحـــل محلـــها عملات أخرى مثل البارة والشريفى والقرش والطغرالى .

(١) بيتر شوجر ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(2) Gibb hamilton , Harold Bowen , islamic society and the west , Oxford university, 1957, Vol 1, pp. 49-59 ؛

عراقي يوسف محمد ، الوجود العثماني في مصر ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

و كان حاكم الإقليم (الباشا) يحوز تيماراً من حجم (الخاص) ، أما قادة الفـــرق العسكرية (آلاى بك) فيحوز كل منهم تيماراً من نوع (الزعامت) و كذلك الحال بالنسبة لمن يتبعوهم من الصوباشية . (١)

و قد كانت التيمارات في الأصل منحة من الحاكم ، وسرعان مــا أصـــبحت وحدات اقتصادية مهمة و دعامة أساسية لوحدة الجيش ، و كان مالك التيمار لـــه الحق في أخذ عائدات هذا التيمار طالما يؤدى واجباته المقررة بكفاءة ومقدرة . (٢)

و التيمار بالمعنى الدقيق للمصطلح ليس تنازلاً عقارياً ، بل هو تنازل ضـــريبي ، فعندما يخصص السلطان قرية أو عدة قرى أو أجزاء من قرية لأحد الأشخاص،فإنه لا يتنازل له عن الأرض ولا عن الفلاحين المرتبطين بها ، و إنما يتنازل عن العشـــور والضرائب النقدية و العينية الأخرى الواجبة الأداء على هؤلاء الفلاحين . (٣)

و لم تكن عملية تطبيق وانتشار نظام التيمار بالأمر الهين ، و إنما ترسخت من خلال عملية طويلة و شاقة ، استمرت في غضون القرن الخامس عشر ، و ظهرت خلال ذلك بعض التمردات وحركات العصيان من بعض النبلاء احتجاجـــاً علـــى تطبيق ذلك النظام . (٤)

و تجدر الإشارة إلى أن هذه التمردات لم تكن عامة في أنحاء المناطق الـــتي طُبـــق فيها النظام ، و إنما كانت من بعض الأفراد الذين حركتهم مطامعهم الشخصـــية وأهواؤهم* بتحريض من قوى خارجية ، كانت تسعى دائماً لزعزعـــة النظـــام في ألبانيا ، و طرد العثمانيين منها .

---

(1) Gibb hamilton , Harold Bowen , Op , Cit , Vol 1 , p 52 .

(٢) بيتر شوجر ، مرجع سابق ، ص ١١٩ .

(٣) روبير مانتران ، مرجع سابق ، ص ٢٩٦ .

(4) Halil Inalçik , arnavutluk ta osmonli hakimiyetinin Yerlesnesi Ve Iskender Bey Isyanin menşei , istanbul 1953 , p 158 .

* مثل إيفار كاستريوت في الشمال،و أريانتس أرانيق في إقليم آركرى قصرى.

وهذه القوى مثل دولة المجر و جمهورية البندقية و مملكة نابولى ،بدليل أن الـــذين قادوا قواتاً للقضاء على هذه التمردات كانوا أمراء ونبلاء ألبان طُبق عليهم هذا النظام ، ولم يجدوا فيه غضاضة ، بل وجدوا فيه حريـــة في التملـــك ، و رخـــاءً في العيش .

والجدير بالذكر أن ذلك النظام تم تطبيقه في جنوب و وسط ألبانيا فحسب ، أما شمال ألبانيا حيث المناطق الجبلية الرعوية فلم تخضع له ، إنمـــا أعطـــت الدولـــة العثمانية أهل الشمال وضعاً شبه مستقل بشرط الإلتزام بخراج سنوى يقدمونـــه للحكومة العثمانية ، إلى جانب إمدادها بالجنود في وقت الحرب . (١)

و طبقاً لسجل ولاية (أروانيدإيلى) عام ٨٣٥ هـــ /١٤٣٢م كـــان توزيـــع التيمارات على النحو التالى ، إجمالى التيمارات كان نحو (٣٣٥) تيماراً ، أُعطـــى السباهى المسيحيون منها (٥٦) تيماراً بنسنة ١٦ %، ومُنح الأتراك الوافـــدين ٣٠% ، ووزع الباقى على السباهى المسلمين الألبان . (٢)

و في تلك الفترة كان عدد التيمارات في بعض المقاطعات الألبانية على النحو التالي:

اسم المقاطعة	عدد التيمارات
بيرات	١٧ تيمار
باولوقورتيك	٢٠ تيمار
جارتالوس	٧ تيمار
أسكربار	٧ تيمار
أقجةحصار	٧ تيمار
أرجيري قصري	٤ تيمار
قالينا	٤ تيمار
قليسورت	٣ تيمار

---

(١) خليل إينالجق ، " الأرناؤوط"، دائرة المعارف الإسلامية ، ص ١٤٦ ، ١٤٧.

(2) Halil Inalçik , Fatih Devri , Op , Cit , pp. 159 , 160 .

أما عن توزيع هذه التيمارات في كل مقاطعة فكان يتم كاللآتي :

في مقاطعة باولوقورتيك على سبيل المثال ، كان بها عشرون تيمـــاراً ، أعطـــى المسيحيون منها تسع تيمارات ، و أخذ قاضي قلعة " ينىجه" (براتشوش) تيمـــاراً واحداً، وأعطى حارس القلعة تيماراً ، وخمس تيمارات لرئيس السباهى ، وواحـــداً لابنه، وواحداً لعيسى بن باولو قورتيك حاكم المقاطعة لأنه كان صوباشي المقاطعة، وواحداً لأخيه مصطفىبن باولو قورتيك ، وواحداً ليوسف و إبراهيم ابنا عيســـى باولو قورتيك ، ولم يكن الدخول في الإسلام شرطاً لازماً للحصول على تيمـــار ، فقد أعطى أحد المسيحيين في مقاطعة برات تيماراً ، و أعطى تسعة من المســـيحيين تيمارات في مقاطعة باولو قورتيك ، ووفقاً للإحصاء الذي تم سنة ١٤٣١م فـــإن السباهي المسيحين في مقاطعة كوسوفا كان لهم خمسة و ستون تيماراً ، و كـــان في سكوبية سنة ١٤٥٥م خمسة وخمسون تيماراً للمســـيحيين و في" فـــوك " شـــرق كوسوفا كان للسباهى المسيحيين سبعة و عشرون تيماراً .

وحرصاً من الدولة العثمانية على كسب غالبية الألبان و ضمان ولائهم فإنهـــا لم تحرم العائلات التي قاومتها ورفضت الخضوع لحكمها مثل عائلة أرانـــيقى فقـــد أقطعت "علىبن محمود "وهو حفيد أرانيقى تيماراً كبيرًا سنة ١٥٠٦م . وقد يكون التيمار جزءًا في قرية أو ربما يضم قرية كاملة و أحياناً أخرى يشكل مجموعة قرى ، و من الممكن أن يكون التيمار في أكثر من مقاطعة ، بحيث يضم مجموعة قـــرى في مقاطعة ومجموعة من مقاطعة أخرى ، (١) وربما كان ذلك يرجع لرؤيـــة الحكومـــة العثمانية ، ووفق مصالحها ، بحيث لا تركز ذوى النفوذ الذين يخشـــى بأســـهم في مكان بعينه فيشكلون خطراً عليها فيما بعد * .

---

(1) Halil Inalçik , Fatih Devri, Op , Cit , pp. 159 , 160 ؛ Malcolm Noel , Op , Cit , p 98 .

* للمزيـــد حـــول مـــنح التيمـــارات انظـــر : وثيقـــة رقـــم (١٣٤ ، ١٤٥) بالملاحق (١،٢) .

إلغاء نظام التيمار

لاشك أن نظام التيمار كانت له بعض الإيجابيات منـها التوسـع في زراعـة مساحات شاسعة من الأراضى داخل الأقاليم العثمانية في أوربا ، كما أنه كفـل للدولة العثمانية الحصول علي القوات اللازمة وقت الحـروب دون تكـاليف ، ووفر مرتبات العسكريين زمن الحرب والسلم . (١)

علاوة علي أنه أبقي علي العسكر داخل طبقتهم ،ومنـع ظهـور عناصـر عسكرية بلا مورد حتي لايصبحون خطراً حقيقياً علي الدولة . (٢)

ورغم ذلك فإن الدولة اتجهت إلى إلغائه في أواخر القرن السابع عشر وطبقت نظاماً آخر بدلاً منه ، وكان السبب الرئيسي والجوهري في ذلك هو العبء المالي الذي تكلفته الدولة نتيجة الحروب الخارجية المتتالية التي خاضتها في أوربا خلال القرن السابع عشر ، مما اضطرها إلي بيع الأراضي الخاصة بها إلي أشخاص أغنياء من أجل ضمان مصدر التمويل اللازم لتلك الحروب وخاصة بعد هزيمة الدولـة العثمانية في معركة فيينا سنة ١٦٨٣م . (٣)

ولا يغيب عن الأذهان ذلك التقدم العلمي والتكنولوجي الذي شهدته أوربـا الغربية في مجال العلوم ، وتحديث الجيوش ، وارتفـاع مسـتواها العسـكري ، واكتشاف طرق جديدة للتجارة ، كما تدفقت كنوز العالم الجديـد إلي أوربـا ، الأمر الذي أضعف قيمة العملة العثمانية ، وبالتالي أضعف اقتصاد الدولة فكـان ضرورياً توفير مصادر جديدة لإنعاش الخزانة العثمانية .

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، جـ١ ، ص١٣٨.

(٢) بيتر شوجر ، مرجع سابق ، ص ١١٩.

(3) Nouray Bozbora , Op , Cit , pp. 56 , 57 .

كما أن فرقة السباهية (الفرسان) قد فقدت أهميتها بعد التطـورات الـتي طرأت على الجيوش الأوربية ، والأساليب القتالية الحديثة ، والهزائم التي تعرضت الجيوش العثمانية لها ، وقد انشغلت هذه الفرقة بما لديها من إقطاعات ، وركنت إلى الدّعة والراحة ، فاضطرت الحكومة إلى توزيع اختصاصاتهم علـى مـوظفين مسئولين في الدولة وشرعت في بيع الأراضي التي كانت تحت أيديهم إلى كبـار النبلاء والقادة الألبان مما أوجد طبقة غنية جديدة ، ونظاماً جديداً عرف باسـم نظام "الأعيان" . (١)

وقد طبق هذا النظام في بلدان وأقاليم أخرى خاضعة للدولة العثمانيـة ، وإن اختلفت صور تطبيقه ، من حيث حقوق وواجبات كل من الدولة أو الملتـزمين ، فالوضع في ولاية مصر مثلاً اختلف عن الوضع في ألبانيا . *

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p . 116 .
ولمزيد عن نظام التيمار انظر : أكمل الدين إحسان ، مرجع سـابق ، ص ٢٦٧ ومابعدهـــا .

* للمزيد عن نظام التيمار في مصر انظر : هيلين آن ريفيلين ، الاقتصـاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة أحمد عبد الـرحيم مصـطفى ، دار المعارف ،١٩٦٧ ؛ عراقي يوسف محمد، الوجود العثماني في مصر ، مرجع سابق.

ثانياً : نظام الأعيان Ayanluk

كلمة " أعيان " كانت تطلق أول الأمر على علية القوم في منطقة ما ، ثم أصبح لها مدلول آخر في تاريخ الدولة العثمانية ، فكان يقصد بها طبقة حاكمة من كبار الأثرياء يشرفون على مساحات شاسعة من الأراضي ، ويمارسون نفوذاً سياسياً وإدارياً ومالياً وعسكرياً وقضائياً واسعاً على الفلاحين ، وسائر سكان هذه الأراضي وكان العثمانيون يطلقون عليهم اسم " أعيانلق " .

كما عرف ذلك النظام باسم " نظام الإلتزام " وقامت الدولة بتطبيقه في أغلب الولايات الخاضعة لها ، علماً بأنه كان معمولاً به ، ومعروفاً لدى بعض الأقاليم في الأناضول و البلقان أو في شمال العراق ، وفي مصر أيضاً ، ولكن تطبيقه اختلف من إقليم لآخر وفق سياسة الدولة العثمانية ورؤيتها لأوضاع كل إقليم .

وبدأ تطبيق هذا النظام في ألبانيا في نهاية القرن السابع عشر ، وكان الأعيان (الملتزمون) يتسلمون وثيقة رسمية من والى الإقليم بهذا الشأن تسمى " أعيانلق بيوريلديس " في مقابل دفع رسم يسمى " أعيانية " ، وقد نقل هذا الاختصاص من الوالي إلى الصدر الأعظم سنة ١٧٧٩ م . (١)

---

(١) عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، ص ١٨٦٤ ؛ عراقي يوسف محمد ، الوجود العثماني المملوكي في مصر في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٢٦٧ ؛

Nouray Bozbora , Op ,Cit , pp. 114 , 115 .

ورغم أن الحكومة العثمانية هي التي منحت هؤلاء الأعيان تلك المساحات الشاسعة كملتزمين في نهاية القرن السابع عشر ، إلا أنه مع تصاعد نفوذهم خشيت الدولة من ازدياد هذا النفوذ فيكون مشجعاً لهم للاستقلال عنها ، وفكرت مراراً في إلغاء ذلك النظام ، ولكنها كانت تدرك في كل مرة أنه من الصعوبة الاستغناء عن الخدمات التي يؤديها الأعيان للدولة وبخاصة في أوقات الحروب ، لذلك كانت تعود فتقر أوضاعهم السابقة .

وبذلك استمر هؤلاء الأعيان طبقة حاكمة شبه مستقلة لهم جيوش خاصة بهم ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون في المنازعات بين الأفراد ، ويزودون الدولة بالجنود أثناء الحروب ، وينفقون عليهم . (١)

وقد شهدت ألبانيا ظهور هذه الطبقة من الأعيان منذ أواخر القرن السابع عشر ، وبرز من بينهم أسرتان ألبانيتان تعاظم نفوذهما ، وعهدت إليهم الدولة العثمانية بحكم ما تحت أيديهما مقابل الوفاء بالتزاماتهم تجاه الدولة ، وهما أسرة " بوشاتلي " في أشقودرة ، وأسرة " علي باشا تبلنة " في مقاطعة يانيا . (٢)

وسوف نلقى الضوء على هاتين الأسرتين القويتين على النحو التالي :

أولاً : أسرة بوشاتلي

بوشاتلي لقب أطلق على تلك الأسرة ، وهو نسبة إلى قرية بوشات الواقعة بالقرب من مقاطعة أشقودرة . (٣)

---

(1) Puto Arben and Pollo Stefanaq , The History Of Albania,London 1981 , pp. 93 , 94 .

(٢) ك ، سوسهيم ، "الأرناؤوط" دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين ، مرجع سابق ، ص١٢٧ .

(٣) السيد حسين جلال ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

وقد ساعدت الظروف هذه الأسرة في الظهور على مسرح الأحداث ، والقيام بذلك الدور في تلك الفترة الزمنية من تاريخ ألبانيا .

كانت مقاطعة أشقودرة تتكون من ستة أحياء ، خمسة منها في ألبانيا ، وواحدة في الجبل الأسود وكان على رأس كل حي من تلك الأحياء أمراء يديرونها بشكل منفصل عن بعضها ثم قام هؤلاء الأمراء بتأسيس باشاويات مستقلة لهم .

وأدي حب التملك والسيطرة بين هؤلاء الباشوات إلى محاولة الاستيلاء على أملاك بعضهم ، مما أحدث نزاعات وصراعات بينهم،في ظل غياب سلطة الدولـــة العثمانية ، والمتمثلة في ضعف والي ألبانيا وعدم قيامـــه بالقضـــاء علـــى تلـــك النـــزاعات وإحكام سيطرته على الولاية . (١)

ولقد شهدت ضاحية أشقودرة نفسها وهي مركز مقاطعة أشقودرة نزاعاً بـــين عائلتين كبيرتين من عائلاتها هما : عائلة " تشاويش ليلر " وعائلة " بيجو ليلـــر " واحتدم الصراع بينهما واستمر قرابة عشرين عاماً مما أدى إلى انـــدلاع فوضـــي واضطراب كبيرين في المقاطعة ، ولم تستطع الإدارة العثمانية إصلاح الأمـــور ممـــا أتاح الفرصة لبعض الشخصيات للظهور والقيام بذلك الدور .

وكان " محمد بوشاتي " كبير عائلة بوشاتلي من كبار تجار الجلود آنذاك ، وقـــد التف حوله كثير من الناس وخاصة ملاك الأراضي وطائفة عمال الجلود التي تولي رئاستها ، ووجدت الدولة العثمانية فيه من الصفات ما جعلها تعهد إليه بمقاطعـــة أشقودرة كحاكم لها . (٢)

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p 117 .
(2) Puto Arben and Pollo , Op , Cit , p 95 .

وعقب توليه إدارة المقاطعة ، قام محمد بوشاتلي بطرد عـائلتي " تشـاويلي " و"بيجولي " وأنهى بذلك الفوضي الضاربة في الإقليم ، ومن ثم حاز رضـا الدولـة العثمانية فقامت بمنحه لقب " باشا " إلى جانب تعيينه والياً على أشـقودرة سـنة ١٧٥٧م وكانت أهم أعماله دعم الحرفيين وتطبيق سياسـة التسـامح الـديني ، وإضعاف قوة قراصنة البحر الأدرياتيكي . (١)

ونجح محمد بوشاتي في توسيع ممتلكاته ، وضم كثيراً من المناطق المحيطـة بـه مستخدماً القوة العسكرية ، واتسعت حدود مقاطعة أشـقودرة علـى حسـاب جيرانها على مدي عشر سنوات ، وعندما ازداد نفوذه بدرجـة كـبيرة في ظـل انشغال الدولة العثمانية بحروبها الخارجية مع روسيا والتي استمرت مـن ١٧٦٨م حتى ١٧٧٤م ، راح يفكر في الاستقلال بما تحت يديه ،ولكـن القـدر لم يمهلـه ليحقق ذلك وتوفي سنة ١٧٧٥م . (٢)

وفى محاولة من الدولة العثمانية للحد من نفوذ وسيطرة أسرة بوشاتلي قامـت بتعيين فرد آخر بعيداً عن هذه العائلة هو " كوستنجه محمد باشا " ولكن ذلك أثار السكان المحليين في أشقودرة ، وأمام هذا استجابت الدولـة لرغبـاتهم وعينـت " محمود بوشاتلي " الابن الأصغر لمحمد بوشاتلي والياً على أشقودرة .

عرف " محمود بوشاتلي " باسم " قرة محمود باشا " ، وعنـدما تـولى هـذا المنصب اتجه أيضاً لحو الانفصال عن الدولة وقام بتوسيع حـدود مقاطعتـه لحـو الشمال فاستولى على مقاطعة كوسوفا وأسس ما يعرف باتحاد " إيلليريا " الـذي تشكل من البوسنة والجبل الأسود وشمال ألبانيا ، وأعلن نفسه حاكماً على ألبانيا و أشقودرة عام ١٧٨٦م . (٣)

---

(1) Petrika Thengjilli . Ajet Shahu , Historia E Popullit Shoiptar ,Part 8 , p. 64

(2) Reymond Zikl , Op , Cit , p. 14 .

(3) Stavro Skendi , Op , Cit , p. 21 ؛ Ramadan Marmoulouku, Op , Cit , pp. 18, 19 .

كان لأعمال محمود بوشاتلي صدي كبير عند الدولة العثمانية ، حيث رفضت بشدة هذا المسلك ،بيد أنها استخدمت سياسة اللين والمهادنة معه ، فعرضت عليه أن تمنحه لقب وزير مقابل عدوله عما فعل وإعلان خضوعه للسلطان العثماني مرة أخرى ولكنه أبى وتعاظم في نفسه .

لم تر الدولة العثمانية بداً من إنفاذ قوة عسكرية لردعه بين عامي ١٧٨٦-١٧٨٧م . (١)

واستطاع محمود بوشاتلي هزيمة القوة العسكرية التي أرسلتها الدولة العثمانية وقطع صلته تماماً بها ، ولم يكتف بذلك بل انتهز حربها مع روسيا والنمسا وطلب مساعدة الأخيرة في تمرده ووقوفه في وجه الدولة العثمانية .

رحبت النمسا بطلب محمود بوشاتلي و أوعزت إليه بأنها ستجعله ملكاً على ألبانيا في حالة إعلانه الحرب على الدولة العثمانية ، وأثارت تصرفات محمود باشا إستياء الألبان المسلمين الذين رفضوا تعاونه مع دولتين كافرتين ضد دولة الإسلام. ومن ناحية أخرى تخلّت كل من روسيا والنمسا عن وعودهما لمحمود بوشاتلي ، بل إن اتفاقاً أبرم سراً بينهما على إعطاء ألبانيا للملك نابولي في حال هزيمة الدولة العثمانية.(٢)

و أذعن محمود باشا لرغبات شعبه وراح يحسّن علاقته بالدولة العثمانية مرة أخرى ، وإمعاناً في إظهار خضوعه قام بإعدام بعض السفراء الذين أرسلتهم النمسا للتفاوض معه وأرسل رؤوسهم للسلطان العثماني ، مما دعا الدولة العثمانية إلى الترحيب بعودة محمود بوشاتلي لسلطانها ، و أقرته مرة أخرى والياً على أشقودرة . (٣)

---

(1) Putto and Pollo , Op , Cit , pp. 96 , 97 .
(2) Stavro Skendi , Op, Cit , pp 21,22 ؛ Petrika Thengjilli Op, Cit , p. 65 .
(3) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 123 .

ولكن سرعان ما عاد محمود باشا لنزعته التوسعية الانفصالية ، فقامت الدولة بإصدار فرمان بعزله و تولية أخيه " إبراهيم بوشاتي " .

ثم كانت نهاية محمود بوشاتي حينما قاد قواته واتجه بهم للاستيلاء على منطقة الجبل الأسود ، غير أن أهالي الجبل قاوموه وانتهت المعركة بموته وقطع رأسه سنة ١٧٩٦م ، الأمر الذي أثلج صدر الباب العالي .

تولى إبراهيم بوشاتي حكم أشقودرة بعد موت أخيه ،وكان عادلاً متواضعاً نشيطاً واسع الثقافة ، وطّد علاقته بالدولة العثمانية ، واستقر الحكم في المنطقة لفترة كبيرة ، وشهدت نوعاً من الهدوء و الازدهار و إقبال كثير من المسيحيين على الدخول في الإسلام ، كما شهدت التجارة والصناعة تطوراً ملحوظاً وقد دعم الحرفيين ، وكان دائماً مطيعاً للسلطان العثماني حتى موته سنة ١٨١٠م.(١)

وتولي بعده أخوه " مصطفى بوشاتي " سنة ١٨١١م وأقام بدوره علاقات طيبة مع الدولة العثمانية ، وأمدها بقوات عسكرية شاركت معها في حروبها الخارجية للقضاء على بعض الثورات في اليونان وغيرها ، كما استعانت به الدولة في القضاء على الزعيم الألباني " على باشا تبلنه " والى إقليم يانيه في الجنوب ، والذي سنتناول الحديث عنه لاحقاً .

وظل مصطفى بوشاتي يحكم أشقودرة وضواحيها حتى موته سنة ١٨٣٢م ، وانتهت بموته حكم الباشوية واختفت أسرة البوشاتلية من الحياة السياسة الألبانية.(٢)

---

(1) Putto and Pollo , Op , Cit , p.99 ؛ Petrika Thengjilli , Op , Cit , p 65 ؛ Tajar Zavalani , Op , Cit , p . 165 .

(2) Petrika Thangjilli , Op , Cit , p. 66 ؛

- عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، جـ٤ ، ص ١٨٦٧ .

ورغم أن أسرة بوشاتلي ظهرت على الأحداث من خــلال نظــام اقتصــادي وضعته الدولة العثمانية وهو نظام الأعيان (الباشوية) إلا أنها لعبت دوراً كــبيراً في الحياة السياسة الألبانية لفترة كبيرة من الزمن بلغت ما يقرب مــن القــرن ، ورغم توتر العلاقة بين بعض أفرادها وبين الدولة العثمانية أحياناً ،تجدر الإشارة إلى بعض الملاحظات وهى :

أن هذه الأسرة كانت تتمتع بشعبية واسعة بــين الألبــان ســواء المســلمين أو المسيحيين وخاصة كبار الملاك والمزارعين حيث حافظت على أملاكهــم دون المساس بها وقدمت لهم كافة التسهيلات ، فأدي ذلك إلى نــوع مــن الازدهــار الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي . (١)

كما أن هذه الأسرة أبدت قدراً من التسامح الديني الذي ظهر من زعمائها تجاه سكان الجبال خاصة ، مما شجعهم للدخول في الإسلام ، فالغالبية العظمــى مــن قبيلتي "ريشي " و" لوهو " تحولوا من النصرانية إلى الإسلام ، كما كسبت هــذه الأسرة ود القبائل الشمالية الكاثوليكية .

وكان لجهود " محمود بوشاتي " مع طائفة التجار والعمل على تطوير تجارة الجلود دور مهم في تحقيق نوع من الازدهار الاقتصادي في ألبانيا . (٢)

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 123 .

(٢) عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، جـ ٤ ، ص ١٨٦٦.

ثانياً: أسرة علي باشا تبلنه (باشاوية يانيه)

كانت الباشاوية الثانية أو الأسرة الثانية في نظام الأعيان التي مثلت القوة الكبيرة الأخرى في ألبانيا آنذاك هي باشاوية يانيه تلك المدينة الواقعة بجنوب ألبانيا . *

وكانت مقاليد الأمور والحكم بهذه المدينة بيد أسرة " تبه دانلي " نسبة إلى قرية تبلنه الواقعة بين جيروكاستر وفلوري وبيرات ، وقد عرفت هذه الأسرة بأصولها الإسلامية حيث يقال إنهم من نسل درويش يدعى " نظيف " كان ينتمي إلى الطريقة المولوية إحدى الطرق الصوفية ، وأنه هاجر من كوتاهية بآسيا الصغرى إلى ألبانيا واستقر بها، وكان على رأس تلك الأسرة " على باشا " الذي ولد على مايبدو بين سنتي ١٧٤١، ١٧٥٠ م . (١) وحين بلغ التاسعة من عمره قتل أبوه فتولت أمه تنشئته وتعليمه ، خاصة العلوم العسكرية . (٢)

ولأن على باشا نال شهرة واسعة ومكانة رفيعة ، فقد نُسجت حول فترة نشأته وشبابه كثير من القصص الأشبه بالخيال التي ليس لها دليل من الصحة .

---

* يانيه : مدينة تقع الآن في شمال اليونان ، وغالبية سكانها من الألبان .

(١) اختلف في سنة مولد على باشا ورجحت بعض المراجع مولده سنة ١٧٤٤م انظر :

- Ramadan Marmoulouku , Op , Cit , p. 18 .
، Nouray Bozbora , Op , Cit , p.126 .

(٢) هـ ، ت ، نوريس ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨.

والأغلب أن على باشا قضى شطراً كبيراً من شبابه كقاطع طريق مع بعض الجنود بإيعاز من روسيا لقطع السبل وإيقاف حركة التجارة في اليونان وألبانيا كما كان يهاجم منافسيه من النبلاء في ألبانيا و تساليا ، إلا أنه عُرف عنه مساندته للطبقات الفقيرة مما أكسبه مكانة لديهم ، ثم التحق بخدمة السلطان العثماني ووطّد علاقته بالدولة العثمانية ، بعدما رأى في ذلك نفعاً له . (١)

وقد اتسم على باشا بالقوة والشجاعة ومساعدة الضعيف وصار موضع إعجاب الدولة العثمانية فكافأه السلطان العثماني سنة ١٧٨٥م على خدماته له وأسبغ عليه لقب " الباشا " ، ثم عينه متصرفاً (نائب والى) مقاطعة دلوين * ثم متصرفاً لسنجق " ترحالة " لإقرار الأمن والنظام بها .

وفى سنة ١٧٨٧م عُين على باشا والياً على منطقتي توسكيريا وتيسالي ، ثم انتقل إلى يانيه أو يانينا وهى مدينة غنية يكثر بها الصناع والتجار وملتقى لكبار الإقطاعيين الألبان . (٢)

نجح على في استغلال الصراعات بين الإقطاعيين في هذه المدينة ، وتمكن من الاستيلاء عليها سنة ١٧٨٨م ، ومنحه السلطان فرماناً بولايتها ومنح ابنه منصب "متصرف " ترحالة . (٣)

وما أن تولى على باشا حكم يانيه حتى قام ببناء جيش قوى ، واستغل فرصة الحرب بين الدولة العثمانية وبين روسيا والنمسا ، وتوغل في توسكيريا و إبيروس واستولى على مدن كونيتسا و بيرميتي وتبلنه و أرتا .

---

(1) Ramadan Marmoulouku , Op , Cit , p. 18 ؛ محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ٣٨٤ .

(٢) هـ ، ت ، نوريس ، مرجع سابق ، ص ٢٤١ .

(3) Suleynan Kulçe , Op , Cit , p. 159 .

* ثغر في شمال ألبانيا إلى الغرب من أشقودرة .

ولم تؤثر توسعات على باشا على علاقته بالدولة العثمانية فظلت العلاقة الطيبة مع السلطان ، واستعانت الدولة به وبقواته في الحملة التي وجهتها إلى أشقودرة سنة ١٧٩٣م لإخضاع أسرة بوشاتلي . (١)

وفى سنة ١٧٩٧م استولت فرنسا بزعامة نابليون بونابرت على جزيرتي يوانينا وكورفو ، وكانتا تحت سيادة البندقية فأصبحت فرنسا بذلك مجاورة لأملاك على باشا، وقام نابليون بتشجيعه على الثورة ضد الدولة العثمانية وأمده بالسلاح اللازم ، لكنه رفض ذلك . (٢)

وفى سنة ١٧٩٩م استولى الروس على جزيرة يوانينا وساءت العلاقة بينهم وبين على باشا فتآمروا عليه وقاموا بتحريض القبائل الألبانية الأرثوذكسية المعروفة باسم "السوليين " * التي عصت الدولة والتجأت إلى الجبال لحماية أنفسها ، وكلفت الدولة على باشا لمحاربتها فقاد جيشاً سنة ١٨٠٣م وقضى على عصيانهم وسمح للكثير منهم بالهجرة إلى اليونان،وأقر الأمن في تلك المناطق الجبلية النائية.(٣)

ويبدو أن انتصارات على باشا وقوة موقفه إلى جانب جيشه القوى، قد جعله يفكر في الانفصال عن الدولة العثمانية ، فاستغل الحرب العثمانية الروسية بين سنتي ١٨٠٨- ١٨١٢م وبدأ في التوسع شمالاً داخل ألبانيا فاستولى على بيرات سنة ١٨٠٨م ، وعين حاكماً عليها من قبله هو " مختار باشا " ثم استولى على فلوري سنة ١٨١٠م ، ودلوين و جيروكاستر وتيسالي سنة ١٨١١م .

---

(1) Suleyman Kulçe, Op , Cit , p. 159 .

(2) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 128 .

* هم سكان بلدة سولي الصغيرة التي كانت تقع وسط جبال ألبانيا وتبعد عن مدينة يانيه بمسافة ٤٥ كم واشتهروا بعصيانهم للدولة العثمانية .

(٣)محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ٣٨٥ .

وهكذا اتسع ملكه بصورة أزعجت الدولة العثمانية ، وأصدر السلطان محمود الثاني فرماناً عام ١٨١٢م بعزله من منصبه وأمره بالانسحاب إلى بلدته " تبلنه " وأذعن على باشا لأوامر السلطان ولكنه سرعان ما عاد إلى يانيه بعد شهرين . (١)

وخوفاً من بطش الدولة العثمانية وانتقامها دعم على باشا علاقته بإنجلترا للوقوف معه ضد السلطان .

ولحرص الدولة العثمانية على رجالها وتجنب الانشقاق الكامل بينها وبين على باشا فقد أعاد السلطان له ألقابه ، وظل يحكم المناطق التي تحت يديه بطريقة شبه مستقلة حتى سنة ١٨١٥م . (٢)

وفى الحقبة الجديدة من التناحر الأوربي الذي أعقب سقوط نابليون ، * تقرب على باشا من روسيا صاحبة العداء التقليدي للدولة العثمانية ، كما تقرب من الحركة القومية الثورية اليونانية المطالبة باستقلال اليونان ، وكانت تسمى "فليكي أتاريا" . (٣)

لم تقف الدولة العثمانية مكتوفة الأيدي أمام تصرفات على باشا ، واتبعت معه سياسة العقاب التدريجي ، فقامت في البداية بعزل ابنه من حكم منطقة الموره وجعلته حاكما على " ثغر لبانت" ،و أحس على باشا أن الدولة تنتقم منه في شخص ابنه وظن أن المحرض على ذلك هو صديقه " إسماعيل باشو بك " الألباني المقرب من السلطان العثماني .

---

(1) Putto and Pollo , Op , Cit , p. 102 .

(٢) هـ ، ت ، نوريس ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .

* حول الصراع الأوربي في تلك الفترة ومؤتمر ١٨١٥م انظر :

- بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، تعريب جلال يحي ، القاهرة ، دار المعارف د . ت ، ص ٤٤ – ٦٣ ؛ أحمد نجيب هاشم ، وديع الضبع ، تاريخ أوربا في العصر الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ١٠٠ – ١٣١ .

(3) Putto and Pollo , Op , Cit , p. 103 .

فاستأجر علي باشا بعض الأشخاص لقتل إسماعيل باشو ولكنهم أخفقوا وقبض عليهم واعترفوا بجريمتهم والمحرض عليها ، فأصدر السلطان فرماناً أعلن فيه أن علي باشا ثائر و خارج على القانون وعزله من منصبه وعين مكانه إسماعيل باشو بك.(١)

لم يُذعن علي باشا لفرمان السلطان وأعلن عصيانه ومحاربته له ، فصدر فرمان آخر يقضي بإعدامه ، و أعد السلطان جيشاً بقيادة إسماعيل باشو وتحالف معه " مصطفى باشا البوشاتلي " واتجه هذا الجيش سنة ١٨٢٠م إلى يانيه وحاصرها .

لم يستسلم علي باشا لهذا الحصار الذي استمر سبعة عشر شهراً ،ظل خلالها يقاوم حتى قُتل في ٥ فبراير سنة ١٨٢٢م عن عمر يناهز اثنين وثمانين عاماً . (٢)

وبنهاية علي باشا و أفول نجم أسرة بوشاتلي من الحياة السياسية الألبانية انتهى بذلك ما عرف بنظام الأعيان في ألبانيا ، وهو أحد النظامين اللذين أقامتهما الدولة العثمانية في ألبانيا، وهما نظام التيمار ونظام الأعيان ، وكانا يمثلان الحياة السياسية والاقتصادية في ألبانيا منذ بداية القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر .

وبعد استعراض ملامح النظامين لعله من المفيد الإشارة إلى مظاهر النشاط الإقتصادى الألباني في ظل هذين النظامين .

---

(١) عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، جـ٤ ، ص ١٨٦٩

(2) Putto and Pollo ,Op, Cit , p. 104 ؛ Tajar Zavalani , Op , Cit , pp. 148-161 ؛

- أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، جـ١ ، ص٣٣ ؛ محمد فريد ، مرجع سابق ، ص ٤١٠ .

ثالثاً : مظاهر النشاط الاقتصادي

أ : الزراعة

على مدى القرنين الأوليين للحكم العثماني ازدهرت الزراعة في ألبانيا ، بفضل حالة الاستقرار التي شهدتها البلاد ، ولقد عُنى السلاطين بشق القنوات وتمهيد الطرق، خاصة وأن النشاط الزراعي كان الحرفة الرئيسية للألبان في جنوب ووسط ألبانيا ، وأجزاء من شمالها .

وإذا أخذنا " كوسوفا " إحدى المقاطعات الألبانية كنموذج لذلك ، نجد أن إنتاج المحاصيل كان في وفرة دائمة ، ليس لسد احتياجات الاستهلاك المحلى فحسب ، وإنما كان يحقق فائضاً للتصدير ، وكان تجار راجوسا يحصلون على هذا الفائض مباشرة من الفلاحين ، ولم تكن الحكومة العثمانية تتدخل في تحجيم هذا الأمر إلا نادراً لتمنع المجاعة ، إذا شح محصول القمح في سنة من السنين ، عندئذ كانت تحظر تصديره للخارج .

وإلى جانب القمح،كان يزرع أيضاً الأرز والخضروات والفاكهة،خاصة العنب.(١)

وعندما زار الرحالة التركي " أوليا جلبي " مدن و مقاطعات ألبانيا في القرن السابع عشر ، ذكر أهم الزراعات بها وهى الفاكهة وخاصة الرومان ويسمي " لافان " والزيتون والليمون ، والشمام والتين ، وقال عن الزيتون :إنه ينقل إلى إستانبول لجودته ، وقال : إن التين في ألبانيا لا يوجد له مثيل في العالم ، وهو نوع من المبالغة في وصفه للتين وربما يكون ذلك لجودته وحسن منظره وربما كما يقول أوليا جلبي لأنه سهل الهضم ، ويعطي قوة . (٢)

---

(١)محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

(2) Evlia Çelebi , Evlia Çelebi Seyahatnamesi , Istanbul , vol 12 ,p. 303.

ولعله من المفيد أن نوضح وضع الفلاح الألباني في ظل النظام الاقتصادي الذي وضعه العثمانيون ، وخاصة نظام التيمار .

تحسنت أوضاع الفلاح الألباني تحسناً ملحوظاً في ظل الحكم العثماني ، وأصبح يتمتع بمزايا عديدة لم يتمتع بها في ظل الإقطاع الأوربي ، حيث أصبح يملك البيت الذي يسكن فيه ، ويملك إلى جواره حديقة صغيرة لزراعة الخضروات ، وقطعة أرض زراعية صغيرة .

ولم تكن ملكيته لهذه الأرض مطلقة ، وإن كانت تنتقل بالميراث لأبنائه بصفة متواصلة ، وقد أصدرت الدولة العثمانية الفرمانات التي تحفظ للفلاح حقه ، وشرعت القوانين التي تنظم العلاقة بينه وبين الموظفين الحكوميين من جهة وبينه وبين التيماري من جهة أخرى .

فقد صدر فرمان عام ١٥٦٠م جاء فيه :" وعلى منفذي العدالة ألا يتدخلوا في شئون أحد من الرعية أو يرهقوه ... دعوه يملك الأرض كما يشاء طول حياته ، فإن توفي دعوا ابنه يمتلك الأرض من بعده "وكانت الضرائب الأساسية التي يؤديها الفلاحون تتمثل في الضرائب على المحاصيل الزراعية لأرض التيمار بنسبة ١٠ % ، وعلى الأرض الخاصة بالمسيحيين ضريبة تسمي " إزبنس " والخاصة بالمسلمين ضريبة تسمي " تشفت " .

كما كانت هناك رسوم ضريبية على السلع المباعة في الأسواق " ضريبة تجارية " وهكذا كانت مجموعة الحقوق والفوائد الجديدة التي تمتع بها الفلاحون أكثر وضوحاً خاصة في القرن السادس عشر الميلادي ، وكانت معلومة لدى شعوب منطقة البلقان وهذا ما شجع كثيراً من الفلاحين في بعض المناطق التي لم تخضع للحكم العثماني على هجرة أراضيهم إلى المناطق التي يحكمها العثمانيون ليستقروا بها . (١)

(١) محمد يوسف عدس ، المرجع السابق ، ص ٦١، ٦٢ ، نقلاً عن :

- Motafcieva V , Agrarian Relations In The Ottoman Empire In The 16Th Century (Baulder Colorado 1988) , p. 157 .

فيقول أحد المؤرخين الأوربيين عن الفلاح في ظل الإقطاع الأوربي : لم يكن للفلاحين أدنى فرصة لإدارة وتسيير أمورهم الخاصة ، أما في ظل الدولةالعثمانية ، فحقيقة لقد كان سكان القرى (الفلاحين) يتمتعون بحرية نسبية في الحركة ، وفى تسيير أمور أنفسهم ، ولم تكن عمليات العنف التي تعرضوا لها بشكل قليل ومتقطع من بعض أصحاب النفوذ ، لتلغي ما تمتع به هؤلاء من تسيير ذاتي لأمورهم، ولكن هذا العنف كان يسيء لصورة العثمانيين . (١)

فإذا تحدثنا عن الفلاح الألباني في ظل الإقطاع الصربي في الفترة التي خضعت فيها أجزاء من ألبانيا لحكم الصرب لعلمنا أن الفلاح كان مقيداً فلا يستطيع مغادرة أرض الإقطاعي ، وإذا تمكن من الهرب ، وقبض عليه ، قطعت أطرافه ، وقد ألغيت تلك العقوبة في العهد العثماني ، وتحولت إلى غرامة مالية صغيرة كانت تسقط بالتقادم ، وهذا التيسير أتاح للفلاحين أن ينتقلوا من الأرض إذا رغب أحدهم في ممارسة الحرف الصناعية في المدن . (٢)

ويتضح مما سبق ذكره كيف شهد مجال الزراعة في ألبانيا في العهد العثماني مرحلة من التطور وصل إلى حد إنتاج المحاصيل وتصديرها للخارج ، وهذا لم يحدث من قبل في ظل أي من الحكومات الأوربية التي حكمت أجزاء من ألبانيا ، كما تحسنت أحوال الفلاح ، بعدما شعر بالحرية في حياته وفى أداء عمله ، من زراعة و بيع و شراء ، مادام يؤدي واجباته المقررة عليه تجاه الدولة كما بينتها القوانين الموضوعة .

---

(١) بول كولز ، مرجع سابق ، ص ٦٠ .

(٢) محمد يوسف عدس ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

ب : الصناعة والتجارة :

ارتبط النشاط الصناعي والتجاري في ألبانيا في ظل الحكم العثماني ، بفترة الاستقرار السياسي والإداري ، وانتشار الإسلام بين سكانها .

فمع استقرار الإدارة العثمانية ، و انتشار الإسلام في المناطق الألبانية ، حدث تحول في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فازدهرت المدن بشكل سريع ، وخاصة تلك المدن التي كانت تتمتع بأهمية في السابق .

و مع قدوم حرف كثيرة إلى ألبانيا ، من خلال الأفراد الذين نقلتهم الدولة العثمانية خاصة من الشرق الإسلامي بعد فتح العثمانيين له في القرن السادس عشر ، مما أدى إلى ازدهار الإنتاج الحرفي والتجارة بشكل واضح . (١)

ومنذ البداية دعمهم العثمانيون وأكدوا على كافة الامتيازات التي يتمتع بها الحرفيون ، وأقاموا المراكز الصناعية والتجارية العديدة ، كما اهتمت الدولة بإقامة مدن جديدة ، وتحسين أوضاع المدن القديمة ، وربطت تلك المدن مع بعضها بشبكة من الطرق ، أعفيت من الضرائب (الرسوم) للإبقاء عليها صالحة ، ليس فقط للاستخدام العسكري بل والتجاري أيضاً . (٢)

وكان أهم تلك الطرق ذلك الطريق الذي يربط ألبانيا ببقية دول البلقان ، ويبدأ هذا الطريق من (سيزر) مروراً بسالونيك ثم مناستير و أوهريد حتى يصل إلى بحر الأدرياتيك عند ميناء دوريس ، وكانت له أهمية عسكرية وتجارية كبيرة وجعل لبعض مدن ألبانيا أهمية كبري مثل دوريس ومناستير وغيرهما . (٣)

---

(١) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص ٩١ ؛ أكمل الدين إحسان مرجع سابق جـ٢ ، ص ١٣٨ .

(٢) بيتر شوجر ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .

(3) Halil Inalçik , The Ottoman Empire (1300-1600) Translated By Norman Itzkowitz and Colimimber , NewYork 1973 , p. 122 .

و قد بذل العثمانيون جهوداً ضخمة للحفاظ بصورة دائمة على تلك الشبكة من الطرق ووكلوا أمر إصلاحها والعناية بها ، إلى أشخاص كان يعرف أحدهم باسم "يولجي " أي عامل طرق ، وأعفوهم من تأدية الضرائب الطارئة .

أما عن نظرة العثمانيين للمدينة ، فقد حافظوا على النموذج الموجود إلى حد ما إلا أنهم جعلوا التقسيمات القائمة بين الأحياء أكثر تنظيماً ووضوحاً وتحديداً،وقد أخذت تلك المدن الملامح الشرقية .

وبوجه عام كانت المدينة الألبانية تضم مسجداً كبيراً ، وسوقاً كبيراً ، وعدداً من الأسبلة ، والمدارس والحمامات العامة والخزانات .

لقد أضاف العثمانيون عند دخولهم بلدان شرق أوربا بصفة عامة مختلف العمائر الدينية ، ومختلف مباني الخدمات العامة ، والخدمات التجارية ، والمستشفيات ، وإن كانت بعض المستشفيات قائمة بطبيعة الحال . (١)

ولعل أهم عوامل ازدهار المدن ، هو ظهور مؤسسات الأوقاف التي كان لها دور هام في العناية بالمدن وتطويرها ، وهي مؤسسات أهلية أو مدنية خالصة ، ومن أمثلة هذه الأوقاف ، وقف " محمد خير الدين أوغلي " في بريزرن ، وكان من كبار الأغنياء بالمدينة ، وقد أنشأه سنة ١٥٣٠م ، مشتملاً على (١١٧) محلاً تجارياً وصناعياً ، بالإضافة إلى ستة مطاحن لدقيق القمح ، واحتوت هذه المحلات على ورش صناعية بلغ عددها خمسا وأربعين ورشة لأنواع الصناعات اليدوية المختلفة،مثل صناعة دبغ الجلود،وغزل الحرير ، والحدادة ، وصناعة الأسلحة.(٢)

---

(١) بيتر شوجر ، مرجع سابق ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

ونتيجة لهذا التطور في المدن ، تطورت الحياة الاقتصادية بشــكل ملحــوظ ، وتراجع الاقتصاد التقليدي وحل محله الاقتصاد النقدي ، نظراً للتطور الذي لحق بالحرف الجديدة مما أدي إلى ازدهار التجارة الداخلية ، الـتي أدت بـدورها إلى انفتاح بعض المدن الألبانية على بعضها ، وإلى انفتاح القرية علـى المدينـة . (١) وأصبح للتجار الألبان علاقاقم التجارية بدول أوربية مثل فرنسا ، و راجوسـا ، وكان للتجار رابطة خاصة بهم لها إدارقما وتنظيمها .

وانتظم أصحاب الحرف والصناعات في طوائف * تشبه الآن النقابات المهنية وكانت كل طائفة تتألف من أصحاب صنعة أو حرفة معينة ،و ينتخب أعضـاؤها مجلساً لإدارقما ، و تعنى الدولة بتنظيمها ، و الإشراف عليها .

و مهمة هذه الطائفة المحافظة على مستوى الحرفة ، وأصول الصنعة و تقليـل المنافسة بين أعضائها ، كما تقوم بدور البنوك في تسليف أعضائها ما يلزم من مال للتوسع في مشروعاقم . (٢)

كما كان لهذه الطوائف دور في خدمة المجتمع بصفة عامة ، حيث تتـولى صـيانة الطرق و النافورات و الخانات و المساجد و الكنائس ، و كانت كل طائفة تـرتبط بطريقة صوفية مع إحدى الطرق الموجودة في ألبانيا ، و لها مرشد روحي أيضاً . (٣)

ومنذ القرن السادس عشر ، أصبحت بعض المدن الألبانية ، مراكز صـناعية ، وتجارية هامة ، مثل إلبسان وأشقودرة وبريزرن وبيرات ، وكانت كل مدينة تضم ما يقرب من تسعمائة محل ، أما " اسكوبيا " فكان بها سوق يضم نحو ألفين ومائة وخمسين محلاً .

---

(١) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .

* نظام الطوائف هو نظام اقتصادي اجتماعي عرف منذ العصور الوسطى في أوربا وفى العالم الإسلامي .

(2) Petrika Thengjilli , Op , Cit , p. 40 .

(٣) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٨١ .

وهذه البيانات توضح أن ألبانيا كان بها أسواق أكثر تطـوراً في البلقـان مـن غيرها، فرومانيا مثلاً لم يتجاوز عدد المحلات بها ألف محل ، وبلغاريا لم تتجاوز محلاتها ثمانمائة محلاً ، كذلك ازدهرت التجارة الخارجية ، خاصة بعد الهدنة التي عقدت بين الدولة العثمانية والبنادقة سنة ١٥٠٢م ، وإقامة علاقات تجارية مع فرنسا وهولاندا وإنجلترا سنة ١٥٣٥م .

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر جذبت المنتجات الألبانية انتباه الـدول الأوربية ، فقامت فرنسا بفتح قنصلية لها في دوريس سنة ١٦٩٩م ، وفيانينا وأرتـا سنة ١٧٠١، ١٧٠٢م ، وفى ١٧١٨م فتحت كل من البندقية وإنجلترا وهولنـدا قنصليات لها في أشقودرة وفلورا ودوريس .

وفى أوائل القرن الثامن عشر كانت معظم الصادرات الألبانية تتجه إلى البندقية ، ثم اتسعت دائرة التصدير إلى بلدان راجوسا وفرنسا وغيرها . (١)

و لتوضيح مدى تطور المدن و الحياة الاقتصادية بصفة عامة في ألبانيـا في فتـرة الحكم العثماني سوف نعرض بعض النماذج لهذه المدن و منها :

١- مدينة بريزرن :

أ صبحت في القرن السابع عشر من أكبر المدن في البلقان ،و لفتت النظـر إليهـا بسبب الطفرة الكبيرة في الحياة الاقتصادية بها مع تطور الحرف الجديدة ، و خاصـة صناعة السيوف و البنادق ، كما ازدهرت التجارة التي قامت بدورها على الإنتاج الحرفي حيث كانت تصدر كميات كبيرة من الأسلحة من بريزرن إلى مصر . (٢)

---

(1) Akademin E Shkencave Te Shqiperise , Op , Cit , pp. 556 - 559 .

(٢) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

كما تطورت منازلها ، و كثر عدد سكانها ، ففي سنة ١٦١٠م كان بها (٨٦٠٠) منزلاً ،و في سنة ١٦٧٠ م زاد العدد ليصل إلى عشرة آلاف منزل ، وعندما زارها كبير أساقفة الكاثوليك ، انبهر بجمالها فوصفها قائلاً " كل منزل في بريزرن له فناؤه الخاص به على غرار الفيلات الفاخرة التي يبنيها أغنياء إيطاليا، و تتمتع المدينة كلها بالمياه الجارية من النافورات ، و مصادر المياه العذبة الأخرى التي تجلبها السواقي الدائرة ، مما يضيف على المدينة جمالاً وبهجة . * (١)

٢- مدينة سكوبيا

كان بها نحو ألفان ومائة وخمسون دكاناً ، و سبعة فنادق مجانية وعشرون تكية وعدد كبير من الحمامات العامة و خمسة وأربعون جامعاً وخمسة وسبعون مسجداً و سبعون مدرسة ابتدائية وخمس مدارس عليا و تسع مدارس خاصة لقراءة وتجويد القرآن .

٣- مدينة مناستير

كانت تحتوي في القرن السابع عشر على سبعين جامعاً وتسعمائة دكاناً و أربعين مقهىً وعدد كبير من المدارس الابتدائية والعليا .

٤-مدينة إلبسان

أسسها العثمانيون في القرن السادس عشر حيث قام ببنائها السلطان محمد الفاتح ، وخلال قرن واحد تحولت إلى عاصمة للثقافة الشرقية وأصبح بها ستة وأربعون جامعاً و عشرون مسجداً وإحدى عشرة تكية وعدد من المدارس الابتدائية والعليا .

---

* أكدت ملاحظات ومشاهدات الرحالة أوليا جلبي الذي زار ألبانيا في القرن السابع عشر هذه المعلومات .

(١)محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٨١ .

٥- مدينة تيرانا

عاصمة ألبانيا الحالية تأسست في بداية القرن السابع عشر ،وبعد نصف قرن فقط ، وحين زارها الرحالة أوليا جلبي سنة ١٦٦٤م كانت تغص بدكاكين الحرف والتجارة والجوامع والمدارس . (١)

٦- مدينة أشقودرة

التي تضررت مبانيها من كثرة الحروب ، استغرق تطورها وإعمارها سنوات ولكنها أصبحت من كبري المدن وبلغ عدد سكانها في القرن السابع عشر (٤٠٠) ألف نسمة وصارت ذات صفة إنتاجية تجارية . (٢)

وقد نقل لنا الرحالة التركي " أوليا جلبي " الذي زار ألبانيا في القرن السابع عشر مشاهداته في مدن ألبانيا والتي تعكس حالة المجتمع الألباني من الناحية الاقتصادية والاجتماعية .

فحينما زار مدينة " بريشتينا " * بإقليم كوسوفا بشمال ألبانيا أعجب بما حفلت به من الحدائق والكروم ، وأعجبه منطقة " جياكوفا " ذات الألفي منزل وكان ابتهاجه عظيماً برؤية الحمامات العامة الفاخرة والمحلات التجارية التي بلغت ثلاثمائة متجراً .

(1) Machial Kial , Op , Cit , p. 21 ؛
محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص ٩٣-٩٥ .

(2) Petrika Thangjilli , Op , Cit , p. 56 .

* أوليا جلبي : رحالة تركي ولد سنة ١٦١١م باستانبول ومات بها سنة ١٦٨٤م كانت رحلته في القرن السابع عشر ، و استمرت ٤٤ سنة بدأها من إستانبول في إبريل سنة ١٦٤٠م وشملت نحو ٢٣ دولة في آسيا وإفريقيا و أوربا و دوّن مشاهداته في كتاب تُرجم إلى عدة لغات منها الإنجليزية و الفرنسية و اليونانية و الروسية و الصربية و الألمانية .

* بريشتينا : هي الآن عاصمة إقليم كوسوفا المستقل .

وذكر ما لاحظه على أهل المدينة من صفات ، كحسن المنظر وهدوء الطبع وعزا ذلك إلى طيب المناخ ونقاء الطبيعة . (١) ولاشك أن أسلوب الحياة الذي إعتاده الناس ينطبع على ملامح وجوههم ويبدو أثره في طريقة تعبيرهم وسلوكهم .

وفى ضاحية " نارضة " إحدى ضواحي ولاية يانيا في الجنوب عندما زارها قال عنها أن بها منازل جميلة ذات عيون وخزانات مياه ، وبها حدائق وبساتين تصل إلى ألفى بستان وحديقة ، وبها أربعمائة حانوت لصانعي الأحذية والفؤوس الصغيرة ، وشوارعها مرصوفة ، وبها الكثير من أشجار الرمان والزيتون والليمون الذي يقوم سكانها بتصديره لبعض البلدان والولايات الأخرى كما تشتهر بالشمام .

ويصف أوليا جلبي منطقة أخرى وهى ضاحية " آيدونات " بمقاطعة "دلونية " فيقول :إن بها خمسين حانوتاً ، واثنين من نُزُل الضيافة ، وأن بعض سفراء فينسيا (البندقية) وأوربا يترلون أحياناً في هذه الترل ويتبادلون البيع والشراء . (٢)

وكانت أهم الصناعات في ألبانيا في ذلك الوقت صناعة البارود والأسلحة وصناعة الصابون ، والصناعات الجلدية ، والمنسوجات .

وقد اشتهرت ألبانيا بمناجم الفحم ، خاصة منطقة كوسوفا ، وأدرك العثمانيون قيمة تلك المناجم ، فاهتموا بها وأولوها عنايتهم ، فعندما فتحوا مدينة " نوفوبردو " قاموا بتشجيع عمال المناجم على البقاء في مواقعهم والاحتفاظ بإداراتهم الذاتية لتلك المناجم على أن ينتخبوا من بينهم مجلساً لإدارتهم وتنظيم حياتهم وزيادة في تشجيعهم وحثهم على العمل قاموا بإعفائهم من الضرائب ، وقد كان لموقع ألبانيا الحيوي دور كبير في رواج التجارة بها ، حيث أتاح لها موقعها على بحر الأدرياتيك عملية التبادل التجاري بينها وبين جمهوريات إيطاليا مثل البندقية و نابولي و راجوسا

---

(١) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(2) Evlia Çelebi, Op, Cit, p. 296.

كذلك تجارتها مع بعض دول البحر المتوسط ومنها مصر وغيرهـا ، وكانـت صادرات ألبانيا الرئيسية من المعادن والمنتجات الزراعية والجلود والصوف ، وكان معظم هذه الصادرات إلى أوربا . (١)

يقول أوليا جلبي عن مدينة "بحور" الصغيرة في مقاطعة " أوهري " :" وترسل إلى أوربـا عنبـها الأسـود الـذي لا نـواة لـه ويـدعي" إسـتافيليا " ويقـول في موضع آخر : " وترسل حريرها إلى أوربا " .

ولقد كان ما جاء في كتاب أوليا جلبي الذي سـجل فيـه مشـاهداته ، أدق وأفضل توضيح للوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في ألبانيا على الأقـل في القرنين السادس عشر والسابع عشر والذي يتبين من خلاله مدي الاسـتقرار السياسي والاجتماعي ، والرفاهية والازدهار الاقتصادي ومدي اهتمـام الدولـة بالمنشآت العامة من مساجد ، ومدارس ، ومستشـفيات، وتكايـا ، وطـرق ، وشوارع ، وأسواق ، ومتاجر ، ونزل للضيوف ، وغيرها من المؤسسـات الـتي تؤدى خدمات للمواطنين .

ولم يكن ذلك في مدينة بعينها أو قرية محددة ، وإنما كان طابعاً عامـاً في أنحـاء ألبانيا ، ويذكر أوليا جلبي ذلك بالتفصيل ، ولنأخذ مثـالاً علـى ذلـك مدينـة " وارخور " في مقاطعة " قارل إيلي " يقول : " ولها سلطة مستقلة ، وبهـا ثلاثمائـة نزل ، في جميع أرجائها حدائق ، وبها ثلاثة جوامع وأحد عشر مسجداً ، ومدرستان كبيرتان وثلاث مدارس صغيرة (كُتّاب) و تكيتان وحمام وأربعـون حانوتـاً وبهـا أسواق ومتاجر ، وأماكن للتتره والأفراح ،و أشجارها سامقة مرتفعـة ، ويوجـد مقهي يجتمع عنده العارفون جميعاً ، والطيور تغرد بصوت جميل بين الأشجار ، المدينة صغيرة لكنها غاية في الروعة ، زعماء طوائفها والأعيان والكبـار يرتـدون فـرو السّمور ، ويأمر كل واحد منهم الخيالة بعمل ألعاب فروسية وعدو للخيول في فناء نزل كل واحد منهم " . (٢)

---

(١) محمد يوسف عدس ، المرجع السابق ، ص٦٤ .

(2) Evlia Çelebi , Op , Cit , pp. 278 - 288 .

وبالنظر إلى النشرة السنوية الخاصة بولاية الرومللى سنة ١٨٨٦م ، والتي جاء فيها بيان مساحة بعض المناطق الألبانية وعدد سكانها ، والمنشآت العثمانية بها يتبين لنا صحة ما أورده أوليا جلبي ، حيث جاء بالنشرة ما يلي :

- ترحالة : مركز لواء في إيالة روميللي بها ألفان وثلاثمائة دار وثمانية جوامع وثمانية مساجد وست مدارس وثمان تكايا وتسعة مكاتب وثلاث حمامات ونحو سبعين قصراً ، وجسر جميل ذو ست قناطر .
- يانيه : مركز لواء به ألفان ومائتان وستون دكاناً وثلاثة وعشرون جامعاً ، وإثنا عشر مسجداً ، وست عشرة مدرسة ، وأحد عشر مكتباً ، وسبع تكايا، وثلاث خانات ، وحمامان .
- أيدونات : قضاء تابع للواء دلوين ، وهو قصبة ألبانية مسلمة ، به ثلاثة جوامع، وثلاثة مساجد ، وستة مكاتب ، وثلاث تكايا .
- دلوين : مركز لواء بها جامع ، ومسجدان ، وثلاث مدارس ، ومكتبتان ، وثلاث تكايا .
- بيرات : وتسمى أيضاً (بلغراد) ، مدينة مهمة تحتوى على ثلاثين جامعاً ، وسبعة عشر مسجداً ، وخمس مدارس ، وأربع تكايا ، ومائة وسبعين قصراً ، وثلاثة مطابخ عمومية ، وأحد عشر خاناً .
- إلبسان : مركز لواء به ستة وأربعون جامعاً ، وأربعة وعشرون مسجداً ، وإحدى عشرة تكية ، وسبعة مقاهي فخمة ، وأحد عشر خاناً .
- أوهري : وتعد من أكبر مدن الرومللى ، وتحوى ما يقرب من خمسة عشر ألفا دار، وأربعمائة قصر ، وسبعة عشر جامعاً ، وثمانية عشر مسجداً ، وثلاث مدارس ، وسبعة مكاتب ، وثلاثة مطابخ عمومية . (١)

---

(١) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٧٠-٦٧٣ .

ولكن إذا كانت ألبانيا قد شهدت في ظل الحكم العثماني هذا الرخاء والازدهار في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ، فلماذا قامت تلك التمردات وحركات العصيان ضد هذا الحكم تحاول الانفصال عنه ؟ ولماذا تلك الصورة القاتمة التي رُسمت للحكم العثماني في أوربا بوجه عام ؟

فى حقيقة الأمر إن سلاطين الدولة العثمانية منذ دخولهم أوربا حرصوا على وضع نظام إداري واقتصادي جيد يحقق الاستقرار والرخاء لتلك الشعوب بهدف ضمان سيطرتهم عليها ، داخل دولة إسلامية قوية ، ثم نشر الإسلام بين أفراد تلك الشعوب وجذبهم إليه بطرق سلمية متعددة .

وكانت الأنظمة التي وضعت قوية في بدايتها ، قد طبقت بعناية وحكمة ، فأثمرت نتائج إيجابية ظهرت في جميع نواحي الحياة خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، بيد أنه سرعان ما شاب هذه الأنظمة بعض القصور ، بداية من أواخر القرن السابع عشر ، وازداد حتى أدى إلى سخط وتذمر الألبان ضد هذا الحكم .

ودعمت قوى خارجية معادية للإسلام وللدولة العثمانية هذا التذمر والسخط مستغلة ذلك القصور من جانب بعض السلاطين العثمانيين ، وقامت بتحريضهم على الثورة والانفصال ، وأهم هذه القوى كانت النمسا وروسيا وجمهورية البندقية إلى جانب البابوية التي كان لها الدور الرئيسي في إذكاء ودعم هذه الحركات .

وكان الضعف الرئيسي للحكم العثماني ، متمثلاً في الجهاز الإداري ، حيث أصبح أقل كفاءة ، وصار هدف أفراده جمع المال بشتى الطرق ، فقاموا بفرض ضرائب إضافية على عامة الشعب ، ورغم صدور فرمانات تمنع ذلك وتهدد من يقوم به ، مثل فرمان ١٦٠٩م الذي جاء فيه " إلى هؤلاء الموظفين الحكوميين إنكم لا تطوفون بأقاليمكم لتؤدوا واجباتكم الوظيفية ، ولكنكم تطوفون بها لتسلبوا أموال الناس بغير حق " .

وقد أدي اعتماد الدولة على حكام محليين وذوي نفوذ في مجتمعاتهم أن هـؤلاء كانوا يدفعون الضريبة المفروضة على الأراضي مقدماً للدولة ثم يحصلونها من الشعب بزيادة باهظة * ، ومن هنا بدأ الفساد ، لأن محصلي الضرائب كانوا يغالون في تقديرها .

كذلك أصبح بيع وظائف الدولة للقادرين على دفع الرشاوي لكبار رجال الدولة أمراً عادياً وبهذا تسللت إلى النظام الإداري عناصر لا تتميز بالكفاءة المطلوبة تركز اهتمامها على الثروة والسلطة . (١)

كما بدأ التحلل يطرأ على عناصر القوات العثمانية المتمثلة في فرقة السباهية الذين كانوا من أهم أعمدة القوة في الجيش العثماني ، وفى تدعيم النظام الإداري والاقتصادي ، وقد أخذ هؤلاء يقدمون الرشاوي لشخصيات ذات نفوذ في السلطة العليا من أجل إعفائهم من دخول الحروب والمعارك ، حتى فقدوا قيمتهم ووظيفتهم التي اشتهروا بها . ومن ناحية أخرى أصبح التيمار بالتدريج ملكاً خاصاً يباع ويشترى وبذلك فقد الفلاحون الحماية القانونية الخاصة بالتيمار . (٢)

وبناءً على ما سبق فإن أغلب الحركات والثورات التي قامت ضد الحكم العثماني لم يكن الهدف منها التخلص من ذلك الحكم العثماني الإسلامي ، بقدر ما كان احتجاجاً على زيادة الضرائب ، أو على طغيان بعض رجال السلطة ومطالبة السلطان العثماني بالعودة إلى ما كان عليه نظام الحكم في بداياته .

وقد استغل المؤرخون الأوربيون المتحاملون على الدولة العثمانية ، هذه الاحتجاجات وصوروا أياً منها على أنه عمل وطني بهدف الانفصال عن

---

* يذكر المؤرخ الأوربي Malcolm أن مستوي الضرائب في الدولة العثمانية حتى مع هذه الزيادات كان أقل من نظيره في الغرب

(١) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

(٢) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، ص ٢٧٠ – ٢٧٢ .

الدولة العثمانية ، حتى اعتبروا عمل اللصوص وقطاع الطرق وأعمال الخارجين على القانون بأنها من أعمال التحرر الوطني ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قامت به قبيلة "كالمينتي " في شمال ألبانيا حيث كانت تقوم بالسطو على الماشية والأغنام والبضائع العابرة في الطرق غرب كوسوفا سنة ١٦١٤م ، وامتدت عملياتهم إلى بلغاريا ، وكانوا مصدر قلق ورعب للأهالي في كل مكان ، فاشتكي سكان مناطق " بيتش " و"نوفي بازار " و " فوتشتيرن " إلى السلطان سنة ١٦٣٨ ، واستجابة لشكواهم أرسل السلطان قوة عسكرية كبيرة تضم نحو خمسة عشر ألف جندي إلى تلك المناطق الجبلية ، قضت على هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق ، وأعادت الأمن والهدوء إلى تلك المناطق . (١)

فكيف تُعد مثل هذه الأعمال كفاح ونضال وطني من أجل الانفصال أو الاستقلال إنما هي دعاوى مؤرخين مغرضين لتشويه صورة الحكم العثماني مستغلين حالة الضعف الإداري التي مرت بها الدولة العثمانية في تلك الفترة .

---

(١) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٧٠ – ٧٣ .

المبحث الثالث : النظام الاجتماعي

كانت حياة الألبان الاجتماعية قبل الفتح العثماني تسير في نظام قبلي عشائري ، فهم يعيشون حياة بدائية منتظمين في قبائل متماسكة تحت زعامة رؤساء أقوياء .

وكانت العائلة هي أول وحدة اجتماعية للألبان ، وكل قبيلة عبارة عن مجموعة من العائلات . (١)

وحينما استقر العثمانيون في ألبانيا ، أقروا الوضع القائم ، بيد أنهم أدخلوا على ذلك النظام القبلي العشائري نوعاً جديداً من التجمعات لم تكن مألوفة من قبل وسمي النظام الجديد باسم " بيرقتار " أو " بيرقدار " وهي كلمة مشتقة من بيرق التركية ، وتعني الراية الحربية ، ولكنه هنا يشير إلى نظام إداري طبقه العثمانيون في شمال ألبانيا بصفة خاصة اعتباراً من القرن السابع عشر .

ويقوم هذا النظام على أساس اختيار شخصية محلية من بين زعماء الألبان تكون مسئولة عن إدارة منطقة معينة يطلق عليها اسم " بيرق " ويكون حاكمها هو " البيرقتار " ، تمنحه الحكومة العثمانية وضعاً وامتيازات معينة . (٢)

وحدود البيرق غير حدود القبيلة أو العشيرة ، فقد يحتوي البيرق على عشيرة متوسطة الحجم ، وقد تنقسم العشيرة الكبيرة إلى عدد من البيارق ، وقد تجتمع بعض العشائر الصغيرة تحت بيرق واحد . (٣)

وكان الهدف من ذلك النظام ، إقرار الوضع القبلي القائم ، بإدخال تعديلات تضمن للعثمانيين إحكام سيطرتهم على القبائل الألبانية دون الدخول في صراعات معهم ، ودون المساس بنظمهم .

---

(١) واصوباشا ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، جـ ٤ ، ص ١٨٥٦ .

(٣) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٢٠ .

وكان لكل قبيلة شيخها أو رئيسها ومجلس شيوخها ، وكان يتم انتخاب رئيس القبيلة من أكبرهم سناً . (١)

ولم يكن للنظام السياسي أو الاقتصادي اللذين وضعهما العثمانيون ليستمرا وينجحا دون إطار قوي من القانون العرفي للألبان ، ومجالس من حكماء القوم ، وأعيانهم ، الذين كان لهم دور كبير في مساعدة الدولة العثمانية علي إدارة تلك القبائل ، من خلال تنفيذ أوامر وتعليمات الإدارة العثمانية في أوساط الناس ، وهكذا كانوا همزة الوصل بين هذه الإدارة وبين العامة .

فقد كانوا يجتمعون من وقت لآخر للاتفاق على سياسات و إجراءات ، لم يرد ذكرها في نظام الحكم العثماني ، وإنما هي أمور تستجد في حياتهم اليومية المتصلة بعلاقاتهم الاجتماعية من معاملات وزواج وميراث ، وحقوق العمل كالرعي ، وصيد الأسماك ، وعقوبات الجرائم ...وغيرها .

كان للألبان عادات وتقاليد ، مارسوها منذ القدم ، وحافظوا عليها ، رغم تعاقب كثير من الدول والحكومات عليهم ، لكنهم ظلوا متمسكين بهذه العادات والقوانين المعيشية التي شرعوها لأنفسهم ، خاصة في المناطق الجبلية التي ظلت بعيدة عن المؤثرات الخارجية .

وقام أحد الألبان ويدعى " ليك دوكاجيني " * بجمع عادات الألبان وتقاليدهم في كتاب سمى " قانون ليك دوكاجيني " كان يمثل قانوناً للألبانيين . *(٢)

---

(١) واصوباشا ، مرجع سابق ، ص ٥٣١ .

(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

* الجدير بالذكر أن ذلك الرجل أسلم بعد دخول العثمانيين ألبانيا ، وغير اسمه إلى "دوكاجيني محمد زاده " .

* لا يزال كثير من الألبان خاصة في بعض المناطق الجبلية والريفية يحتكمون إلى نصوص من ذلك القانون ، وهذا ما ذكره لي بعض الألبان أنفسهم فيما يتعلق بقضية الثأر .

وقد تضمن هذا القانون العرفي كل ما يتعلق بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالألبان ، ابتداءً من الصيد وتربية الماشية ، والزراعة ، والتجارة ، وانتهاءً بإكرام الضيوف ، وعهود الأمان ، والزواج ... وغيرها .

وأساس هذا القانون ، قائم على الشرف الشخصي ، والمساواة بين الأفراد ، وحرية كل فرد في التصرف وفقاً لمقتضيات شرفه في حدود ما يسمح به القانون.(١)

ومن بنود هذا القانون العرفي ما يتعلق بالجنايات كالقتل والسرقة مثلاً :

- من يقتل شخصاً يقتله ورثة المقتول ، وإذا امتنع عليهم أو اختفي عن أنظارهم يقتلون أباه أو أحداً من أولاده أو أخاه أو ابن عمه ، وأحياناً إذا امتنع القاتل وأنسباؤه عن ذوي المقتول ، أخذوا بثأرهم من أحد أفراد قبيلته .

ولا تزال عادة الأخذ بالثأر من الموروثات السيئة الموجودة بنسب قليلة في الوقت الحالي في بعض المناطق الألبانية .

ولم يكن الهدف من الأخذ بالثأر عقاب القاتل فقط وإنما – وفق تصوراتهم – إرضاء القتيل حتى يستريح في قبره ، إلى جانب تطهير الشرف الشخصي أو شرف العائلة ، وكان ذلك أمراً جوهرياً في المجتمع الألباني وضعت له قواعد صارمة تحكم عملية الثأر . (٢)

فالشخص الذي قام بتنفيذ الثأر عليه أن يعلن أنه فعل ذلك ، وإذا طُلبت هدنة وتسمى " البسا " * لفترة معينة ولسبب ما فيجب الاتفاق عليها بين الطرفين ، ويسمي الشخص الذي له حق الأخذ بالثأر " ولي الدم " وكان ولي الدم هذا يقتنع

---

(١) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص٢١ .

(٢) واصوباشا ، مرجع سابق ، ص٥٣١ .

* البسا : أي عهد الأمان ، وهو أعظم قسم لدى الألبان ، فإذا أعطى الألباني ذلك العهد فلا يمكن نقضه .

بنصيحة شيخ القبيلة أو حاكم المقاطعة من قبل الدولة العثمانية بتسوية الثأر بطريقة سلمية وكانت الإدارة العثمانية تحبذ ذلك وتشجع عليه . (١)

- وفيما يتعلق بالسرقة مثلاً ، كان على السارق أن يؤدي ضعف المسروق ، مع جزاء نقدي يدفعه لزعيم القبيلة ومجلس شيوخها .

وإذا قُتل السارق أثناء قيامه بعملية السرقة على يد ساكني البيت ، يشيع أمره بين القبيلة فيذكرونه بالسوء بأنه لم يمت موتة الأبطال الشجعان . (٢)

مكانة المرأة في قانون ليك دوكاجيني : -

وللمرأة الألبانية في ذلك القانون مكانة رفيعة ، فقد جاء به من المواد ما يحميها ويعلي شأنها ، وبصفة عامة عُرف الألبان بإنصافهم للمرأة ، وحفظ حقوقها ، وللمرأة الألبانية صفات عديدة فهي جميلة ، حسنة العشرة ، مطيعة لزوجها ، مخلصة له ، تساعده في كافة مجالات الحياة ، حتى أثناء الحروب تكون بجواره . (٣)

وتلخص " إديث دورهام " Edith Durham الخبيرة في شئون كوسوفا انطباعها أثناء مشاهدتها الحياة القبلية عن قرب في منطقة " ملاس " فتقول :

المرأة في الجبال رغم قسوة العمل المنوط بها ، تتمتع بحريات كثيرة ، فهي تتحدث مع الرجال بلا قيود ، وتتمتع بذكاء كبير وحيوية اجتماعية ، وكثيراً ما يرجع إلى فصاحتها ويؤخذ برأيها . (٤) ومن المواد المتعلقة بالمرأة في ذلك القانون مايلي :

---

(١) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٢) واصوباشا ، مرجع سابق ، ص ٥٣١ .

(٣) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .

(٤) محمد يوسف عدس ، نفس المرجع ، ص ٣٢ ؛

Edith Durham , Albania , Past and Present, Asiaw Affairs Vol 4 , pp. 4 -18 .

- من خطف امرأة متزوجة لا يغفر إثمه إلا بالدم ، إذ يُتاح لزوج المرأة المخطوفة وعائلته أن يقتلوا ذلك الخاطف أو أي فرد من ذوي قرباه أو أبنـــاء قبيلتـــه ، ولا فرق في عظم الذنب بين القتل و خطف النساء .
- وإذا خطب شخص ما ابنة شخص آخر ثم تزوجت بغيره ، يحق للخاطب الأول قتل والد الابنة أو أخيها أو عمها أو حماها ، وإذا خُطفت الإبنـــة المخطوبـــة ، فعلي خاطبها وعائلته أن يأخذوا بثأرها ويقتلوا الخاطف أو أحداً من ذوى قرباه أو أي فرداً من قبيلته .
- الزناة يعاقبون بالموت ، ويجوز لزوج المرأة أن يقتل الزاني إذا وجـــده مجتمعـــاً بامرأته ، أو اشتهر أمره معها فيحق له قتله بناء على اشتهار الخبر .
- من يقتل امرأة تقبح سيرته بين قومه ، ويرتدي رداء العار والهوان هو وأفـــراد عائلته وذلك عندهم من أقبح الأفعال . (١)

ومن المعروف عندهم أن نزول النساء السوق وتجوالهم بالمتاجر يكون عيباً . (٢)

وكما أن لكل قبيلة شيخها وزعيمها ، فإن للعائلة رئيسها وهو أكبر أعضـــائها سناً وله مكانته ومنزلته الرفيعة فهو الحاكم في بيته يأمر وينهي ، وجميـــع الرجـــال وقوف بين يديه يسارعون إلى قضاء حاجته ، إذا أمر فله السلطة المطلقة على جميـــع من في البيت من مال ومتاع وأرواح ، ولا يجرؤ أحد من ذويه على معصية أوامره .

أما إدارة شئون المنزل فمسئولية أكبر النساء سناً وقد عُرف الألبـــان بكثـــرة الإنجاب حتى صار عدد أبناء بعض العائلات يبلغ المائة .

وللألبان على مر تاريخهم صفات شخصية لازمتهم ، واشتهروا بها ، منها إجلال قدر المسن وتعظيم مكانته . (٣)

---

(١) واصوباشا ، مرجع سابق ، ص ٥٣٢، ٥٣٣ .

(2) Evlia Çelebi , Op , Cit , p. 299 .

(٣) واصوباشا ، نفس المرجع ، ص ٥٣٣ .

ومن صفاتهم أنهم غلاظ الطباع قلما يمزحون ، لا يعرفون الدّعة أو التسلية ، يتصبرون على المحن ويتكلفون الأعمال الشاقة ، صحاح الأجسام ، متقشفون في معيشتهم ، لا يسامون الخسف والمذلة ، لهم نفوس أبية وأخلاق دمثة رضية .

قال عنهم السلطان عبد الحميد الثاني " أنهم مفطورون على الحرية ، عزيزو النفس ، يكرهون أن تحد حرياتهم" . (١)

ومن مواد قانون ليك دوكاجيني المتعلقة بالمعاملات الشخصية :

- ينبغي على المديون أن يرد ما استدانه بلا زيادة ولا نقصان ، وأن يدفع الفضة بدلاً من الفضة والذهب عوضاً عن الذهب .
- المال والمتاع من الأشياء المقدسة فلا يجوز اختلاسها أو اغتصابها .
- النزيل أو الضيف مقدس ، وشروط الضيافة لا يمكن نقضها لأي باعث كان ، فإن الألباني الذي يقتل نزيله أو يمتهنه يثلم صيته ويفقد شرفه وربما أفضى به الأمر أن يطرد من قبيلته ، ويمتنع على أبناء قبيلته أن يصاهروه أو يعقدوا معه أي علاقة كانت ، فإن العار الذي يلحق بمرتكب هذا الفعل لا يكفر عنه بشيء من الأشياء حتى الدم .

وإذا قتل شخص نزيل جاره حق لجاره المذكور أن يأخذ بثأر نزيله من القاتل أو من أفراد قبيلته إذا تعذر عليه الوصول للقاتل . (٢)

وكان الألبانيون يتميزون بكرمهم وجودهم ، وقد قال عنهم أوليا جلبي " أنهم أصحاب موائد وكرم " . (٣)

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية ، ١٨٩١-١٩٠٨ ، بيروت، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٦ ؛ رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص٤٠ ؛

Evlia Çelebi, Op, Cit , p. 303

(٢) واصوباشا ، مرجع سابق ، ص ٥٣٣ .

(3) Evlia Çelebi , Op , Cit , p. 303 .

وللسلاح في حياة الألباني مكانة مهمة ، فيقال : إن سمير الألباني سيفه ، و بارودته نديمه ، و مطامح الألباني سيف صقيل ، وبارودة محكمة الصنعة . (١)

وعن ذلك يقول أحد الرحالة الإنجليز : " فخر الفلاح بقطعان ماشيته لا يساوي شيئاً أمام فخر الألباني بسلاحه ، فهو حارس بيته وموضع إعجابه و اعتزازه الدائم " . (٢)

هذه الشرائع والقوانين التي ذكرت استمرت أثناء الحكم العثماني كانت واجبة النفاذ على جميع أفراد المجتمع بالمساواة و الإنصاف ، ولا فرق في المذنب مهما كان دينه ومن أي شيعة كان فإن الجميع باعتبار الشرائع شخص واحد ، وقد جرى الألبان على هذه السنن والشرائع بأقصى الدقة والضبط . (٣)

ومما ساعد على تنفيذ ذلك أن القانون العثماني اشتمل في نصوصه على عناصر أخرى غير الشريعة الإسلامية مثل القوانين المحلية الموروثة من عهود سابقة .

ثم أُدمجت في القوانين العثمانية وأصبحت جزءًا من تقاليد القضاء وبلغت العدالة في القضاء أن المسلمين كانوا يشهدون لصالح المسيحي إذا كان صاحب حق ، وهذا ما جعل كثيراً من المؤرخين يشيدون بالمستوي العالي من الضمير والعدالة التي تمتع بها القضاة العثمانيون ومنهم المؤرخ الكوسوفي المولد " سيلا زيد صالح شلبي " (١٤٩٩–١٥٧٠ م) في وصفه لفترة حكم السلطان سليمان القانوني حيث قال : " إن أبواب الظلم والعدوان قد أغلقت بمسامير القانون " . (٤)

وكانت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين جيدة للغاية ، وقد محا الشعور القومي عندهم التفرقة بين أصحاب كل دين واختلفوا في ذلك عن غيرهم من شعوب البلقان فالمسلمون والنصارى كانوا سواءً ، ينعمون بحقوق واحدة ويؤدون واجبات

---

(١) واصوباشا ، مرجع سابق ، ص ٥٣٣ .

(٢) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٣) واصوباشا ، نفس المرجع ، ص ٥٣٣ .

(4) Malcolm Noel , Op , Cit , p. 99 .

واحدة ،يتكلمون لغة واحدة ويؤثرون تقاليد واحدة ، لقد خدموا جنباً إلى جنب كجنود في الدولة العثمانية ، وقد بلغ اعتزازهم بعنصرهم حداً كبيراً فإذا سُئل الألباني عن نفسه أجاب بأنه " شكيبتار " قبل أن يجيب بأنه مسلم أو مسيحي . (١)

وخلاصة ما جاء في ذلك الفصل :

أن العثمانيين قد حافظوا على حدود ألبانيا السياسية التاريخية طوال مدة حكمهم ، وقاموا بتنظيم ذلك الإقليم بطريقة إدارية تُسهل لهم إدارته والحفاظ على الأمن والاستقرار به ، وذلك بتقسيمه إلى وحدات إدارية مختلفة كانت تتفاوت في مساحتها وأعدادها بل ومسمياتها من وقت لآخر .

والحفاظ على حدود الدولة هو تقدير واحترام لشعبها وقوانينها وشرائعها ، وذلك عكس ما قامت به بعض الدول التي احتلت ألبانيا ، فما كان يشغلها سوى اقتطاع أراضيها ونهب ثرواتها وخيراتها الطبيعية ، وفرض النظم والقوانين التي تخدم مصالح هذه الدول وأهدافها ، كما فعل الصرب في شمال ألبانيا (كوسوفا) ، وكما فعلت البندقية في المناطق الساحلية الألبانية ، ومملكة نابولي التي كان هدف ملكها تكوين دولة تكون ألبانيا جزءًا منها .

ويلاحظ في النظام الإداري أن العثمانيين لم يفرضوا نظاماً غريباً أو مخالفاً لطبيعة وعادات الألبان ، وإنما أقروا بعض النظم والأوضاع القديمة مع إدخال بعض التعديلات عليها وتطويرها إلى الأفضل .

واختلف النظام الإداري العثماني في جنوب ووسط ألبانيا – حيث الطبيعة السهلية للبلاد وإمكانية الزراعة والصناعة والصيد والتجارة – عن النظام الإداري في شمالها حيث الطبيعة الجبلية القبلية الصالحة للرعي فقط .

---

(١) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ٢٠٦ .

ففي الجنوب والوسط أحكمت الدولة سيطرتها على نواحي الحياة بشكل مباشر أما في الشمال فاكتفت بأخذ اعتراف من القبائل القاطنة به بسيادة الدولة العثمانية، وأداء ما عليهم من ضرائب أو جزية وخلافه مقابل احترام نظامهم القبلي ومنحهم شبه استقلال ذاتي ، وعهدت إلى بعض هذه القبائل بحراسة الممرات الجبلية الهامة التي تربط ألبانيا بالبلقان .

كما يلاحظ أن نظام التيمار الذي طُبق في ألبانيا ، كان معروفاً ومعمولاً به من قبل في أوربا متمثلاً في نظام الإقطاع المعروف منذ العصور الوسطي ، وإن اختلف نظام التيمار العثماني في شكله وطريقة توزيعه ، بالإضافة أن الفلاح الألباني في ظل التيمار كان يحيا حياة طيبة لا مهانة فيها ولا استعباد أو تسخير من أحد ، فقد وضعت الدولة نظاماً أعطى لكل من النبلاء والفلاحين حقوقهم في حين كان نظام الإقطاع الأوربي نظاماً جائراً ، حوّل الفلاحين إلى عبيد عليهم واجبات كثيرة وليس لهم ثمة حقوق تذكر .

وقد ذكر المؤرخ الأوربي توماس أرنولد : أن الفلاحين الذين عانوا طويلاً من استبداد الإقطاعيين في المجر – مثلاً – كانوا يحرقون أكواخهم ويأخذون نساءهم وأطفالهم وأدواتهم الزراعية ، ويفرون إلى المناطق التي تحت سيطرة العثمانيين المسلمين ، ليجدوا فيها حياة أفضل ومعاملة أرحم من معاملة الإقطاعيين المسيحيين.(١)

وعندما استبدلت الدولة بنظام التيمار نظاماً آخر وهو نظام الأعيان لم تفرض أشخاصاً غرباء على الألبان ، وإنما اختارت شخصيات ألبانية من بينهم ووضعت لها القوانين التي توضح حقوقها وواجباتها ، وحقوق الفلاحين وواجباتهم .

وإن كانت الحكومة العثمانية قد جانبت الصواب حينما منحت لهؤلاء الأعيان حرية كاملة ، أساءوا استخدامها ، فأغار بعضهم على أملاك غيره وحدثت نزاعات وصراعات كما رأينا بين أسرتي " البوشاتلية " و " تبلنه " ، وهذه الحرية أيضاً هي

---

(١) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

التي شجعت بعضهم على الجنوح نحو الانفصال عن الدولة والاستئثار بما تحت أيديهم من مناطق ، أو فرض ضرائب ورسوم إضافية على الناس تسببت في إيجاد نوع من السخط والتذمر على الحكم العثماني في بعض الفترات .

ومن الملاحظ أيضاً أن الوضع الإداري و الاستقرار السياسي ألقى بظلاله على النواحي الاقتصادية ، فتطورت الزراعة من حيث جودة المنتج وكميته فكان يكفي حاجة الناس ، ويصدر منه إلى بعض بلدان أوربا وغيرها .

واهتمت الدولة بالصناعة الحرفية ونظمتها فتحسن الإنتاج وصار يصدر للخارج، وسمحت الدولة بإقامة علاقات تجارية بين الألبان وغيرهم من الشعوب المجاورة ، مستغلة موقع ألبانيا الاستراتيجي على البحر الأدرياتيكي ، فكان التجار الأجانب يذهبون للفلاح في مزرعته أو بستانه يشترون الإنتاج منه مباشرة ، دون عوائق ومعارضات من الحكومة العثمانية ماداموا يؤدون ما عليهم من رسوم أو مستحقات .

وأولت الدولة عناية فائقة بالمدن القديمة ، وأنشأت مدناً جديدة بكل مقوماتها من طرق مرصوفة ، ومدارس ، ومستشفيات ، و تكايا ، وحانات ، وحمامات عامة ، وغيرها من المنشآت الخدمية التي تحقق الهدوء والأمن والاستقرار والرفاهية للفرد .

ولعل هذه الجهود الملموسة فيها ما يكفي للرد على من يحاولون إلصاق التهم بالدولة العثمانية بأنها لم تقدم للشعوب التي حكمتها جديداً ، ورموها بإصابة تلك الشعوب بالتخلف والجمود والرجعية .

الفصل الثالث

الحياة الثقافية والدينية في ألبانيا

المبحث الأول :- الحياة الثقافية .

أولاً : اللغة .

ثانياً : الحياة العلمية والأدبية .

المبحث الثاني : - الحياة الدينية .

أولاً : سياسة العثمانيين الدينية تجاه رعاياهم في أوربا بوجه عام

ثانياً: عوامل انتشار الإسلام في ألبانيا .

المبحث الثالث : سياسة الدولة العثمانية تجاه الكاثوليك و الأرثوذكس في ألبانيا

أولاً: الكاثوليك .

ثانياً : الأرثوذكس .

المبحث الرابع : الطريقة البكتاشية ودورها الديني والسياسي في ألبانيا .

المبحث الخامس: الرابطة القومية الألبانية " رابطة بريزرن " .

المبحث الأول : الحياة الثقافية

أولاً : اللغة

ترجع أصول اللغة الألبانية إلى اللغة الإيلليرية ، واللغة الألبانية الحاليـة هـي إحدى اللغات المشتقة من الهندوأوربية ، وتشبه إلى حـد مـا لغـات اليونـانيين والإيطاليين والألمان . (١)

ورغم الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين سكان الشمال (الجـج) وسكان الجنوب (التوسك) إلا أن الألبان جميعاً يتحدثون اللغة الألبانية ، ولكـن لكل منهما لهجته المستقلة ، وتعتبر اللغة الألبانية الفصحى مزيجاً مـن اللـهجتين ، وهي المستعملة اليوم في الكتابات العلمية والأدبية . (٢) *

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p.34 .

(٢) بكر إسماعيل ، اللغة العربية وأثرها في اللغة الألبانيـة ،، الطبعـة الأولى ، القاهرة ، مؤسسة ألبابرس ٢٠٠٣ ، ص ٣٨ .

* الجدير بالذكر أن اللغة الألبانية يتحدث بها أكثر من سبعة ملايين نسـمة منـهم ثلاثة ملايين ونصف داخل حدود دولة ألبانيا الحالية ، وأكثر من مليوني ونصـف في كوسوفا ، وحوالي مليون في مقدونيا والجبل الأسود وصربيا، والباقي في أماكن أخرى متفرقة مثل اليونان وتركيا وإيطاليا وأمريكا واستراليا ومصر وبلاد الشام.

والألبانيون يعتزون – بصورة كبيرة – بلغتهم الألبانية (الشكيبتارية) ، ومع أنهم يعتبرون من أقدم الشعوب في البلقان وفى أوربا بشكل عام ، إلا أن اللغة الألبانية لا تتمتع بذلك التراث الذي يفترضه المرء ، فمن اللغة الإيلليرية لغة الأجداد لم يتم العثور على أية نصوص حتى الآن .

أما اللغة الألبانية الحالية ، فإن أول إشارة ذات مغزى حولها وحول أبجديتها وردت في تقرير لأحد القساوسة الكاثوليك سنة ١٣٣٢م ، حيث ذكر أن الألبان يتمتعون بلغة تختلف تماماً عن لغة الأمم الكاثوليكية ، إلا أنهم يستخدمون الحروف اللاتينية في كتابتهم . (١)

وقد كانت أول محاولة للتدوين باللغة الألبانية ، وأقدم نص كُتب بها هو صيغة التعميد المسيحية سنة ١٤٦٢م أي في القرن الخامس عشر ، وقام بتدوينها الأسقف "بال إنجيبيل " بالتعاون مع جورج كاستريوت (إسكندر بك) . (٢)

وبعد تلك المحاولة يوجد انقطاع طويل امتد إلى نحو قرن من الزمان حتى سنة ١٥٥٥م ، حيث صدر كتاب الصلاة للقس " جون بوزوكو " لمساعدة القساوسة على استخدام اللغة الألبانية في الصلوات ، ويعتبر أول كتاب مطبوع في اللغة الألبانية ، وإن جاءت به بعض الألفاظ التركية نظراً لخضوع الألبان في ذلك الوقت للحكم العثماني واحتكاكهم المباشر بالعثمانيين . (٣)

---

(١) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٢) السيد حسين جلال ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩ ؛ هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ٨٤ ؛

– Kristo Frshëri , Op , Cit , p.400 .

(3) Akademin E . Shkancave Te Shqiperi , Op , Cit , p.705 .

ثم دخلت اللغة الألبانية منعطفاً جديداً ومختلفاً ، هو منعطف التعريب الـــذي تم من خلال دخول كثير من المفردات العربية إلى اللغة الألبانيـــة أولاً ، ثم تحـــول الألبان إلى كتابة لغتهم بالحروف العربية .

وقد بدأت عملية التعريب نتيجة احتكاك الألبان بالأتراك وباللغة التركية الـــتي كانت تحمل بدورها الكثير من المؤثرات العربية ، وذلـــك مـــع اســـتقرار الإدارة العثمانية في المناطق الألبانية منذ القرن الخامس عشر .

ثم أصبح للألبانيين احتكاك مباشر باللغة العربية ، سواء عن طريق المدارس الـــتي انتشرت في بلادهم ، أو عن طريق صلاتهم بالعرب بحكم وجودهم معاً تحت الحكم العثماني ، كما كان لانتشار الدين الإسلامي بين صفوفهم الأثر الكبير في عمليـــة التعريب هذه ، فانتشرت اللغة العربية بفضل المؤسسات الجديـــدة الـــتي أقامهـــا العثمانيون ومنها الكتاتيب والمدارس العليا أو الثانوية .

وكان تعليم اللغة العربية يتم في البداية عن طريق اللغـــة التركيـــة ، ثم أصـــبح تعليمها يتم مباشرة منذ القرن السادس عشر .

وقد تأثرت اللغة الألبانية بمؤثرات عربية في وقت مبكر منذ القـــرن الخـــامس عشر وانتشرت فيها بعض المفردات ، وكانت أول كلمة عربية تدخل بين صفوف الألبان هي كلمة خراج Harage ، حيث إنها وردت في رسالة مـــن الـــزعيم الألباني إسكندر بك إلى الفونس الرابع ملك نابولي سنة ١٤٥١م ، وتدل هـــذه الكلمة على أن المفردات العربية الأولي التي دخلت إلى اللغة الألبانية كانت تتصل بالمجال العسكري ، ومن هذا المجال دخلت مفردات أخرى مثل عسكر Asqer ، وقلعة Kala وغيرها. (١)

ومع استقرار الإدارة العثمانية بدأت تدخل إلى اللغة الألبانية مفـــردات عربيـــة أخرى تتعلق بالإدارة مثل كلمات سلطان Sultan ، وزير Vezir ، حكومـــة Hyqumet إدارة idare ، قاضي Kadi ... وغيرها . (٢)

---

(1) Eqrem Çabej , Studime Gjuhësire , Vël III , Prişhtinë , 1976 , p. 277 .

(٢) بكر إسماعيل ، اللغة العربية في كوسوفا ،الطبعة الأولى ، القاهرة : مؤسســة ألبابرس ، ٢٠٠٣ ، ص ٨١ .

وفي القرن السادس عشر بدأ تطور المدن الألبانية يتضح على نحو شـرقي غـير مألوف للمحيط البلقاني ، فبرزت المنشآت الجديدة في هذه المـدن مـع مسـمياتها العربية كالمسجد Mesxhid ، وجـامع Xhami ، وحمـام Hamam ، عمارة Imaret ، ومحلات Mahallet ... وغيرها ،ومع تطـور وازدهـار المدن ونمو حرف جديدة اشتهرت بأسمائها العربيـة أيضـاً كالخيـاط Hajat ، والدباغ Depag ، والخباز Habbaz ، والعطار Attar ... وغيرهـا ،ثم توالى انتشار المفردات العربية في اللغة الألبانية في جميع المجـالات ، وبلـغ ذروتـه في القرن السابع عشر،واسـتمر بعـد ذلـك حـتى امـتلأت اللغـة الألبانيـة بالمفردات العربية (١)، كان ذلك أحد أشكال تعرب اللغة الألبانية ، أمـا الشـكل الآخر فكان تحول الألبانيين إلى كتابة لغتهم بالحروف العربية ، و ارتـبط ذلـك – بشكل وثيق – بعملية انتشار الإسلام بين صفوفهم .

والجدير بالذكر أن موضوع الأبجدية لدى الألبانيين ارتبط بشكل عام بالـدين ، وبأدبيات هذا الدين و أبجديته .

ففي المرحلة التي سبقت انتشار الإسلام كان الشعب الألباني منقسماً على نفسه بين الانتماء الكاثوليكي في الشمال والانتماء الأرثوذكسي في الجنوب ، وقـد أدى هذا الانقسام الديني إلى انقسام ثقافي مع مرور الزمن ، حيـث كـان الألبـانيون الأرثوذكس تحت تأثير الثقافة اليونانية التي كانت تجتذبهم ثقافياً وقوميـاً لتحـولهم إلى يونانيين في نهاية الأمر ، وحـين حـاول بعـض المـثقفين الألبـانيين الكتابـة باللغة الألبانية جاءت كتاباتهم بالأبجدية اليونانية مما جعلـها محصـورة في الـدائرة الأرثوذكسية فقط.(٢)، في مقابل ذلك كان الألبانيون الكاثوليك تحت تأثير رومـا والثقافة اللاتينية التي اشتهرت بمرور الزمن باسم " الأبجدية الكاثوليكية " . (٣)

---

(١) بكر إسماعيل ، اللغة العربية وأثرهـا في اللغـة الألبانيـة ، مرجـع سـابق ، ص٤٩،٤٨.

(٢) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص ٤٦ ، ٤٧.

(3) Stavro Skendi , Historia E Abecesë Shqipe Albania , vëll 1,1962 , p.355 .

وحين بلغ انتشار الدين الإسلامي بين الألبانيين ذروته في القرن السابع عشر تراجعت الكتابة بالأبجدية اليونانية وكذلك الكاثوليكية .

وكان طبيعياً أن يؤدى انتشار الإسلام وتشرب الألبانيين للثقافة العربية الإسلامية إلى بروز اتجاه جديد في الشكل والمضمون ، وقد بدأت هذه المسيرة ببطء منذ القرن الخامس عشر ، ثم اشتدت في القرن السادس عشر إلى أن طغت في القرن السابع عشر حين أخذ الألبانيون في تمثل الثقافة العربية الإسلامية ، وفى المشاركة في هذه الثقافة التي أصبحوا جزءًا منها . (١)

وقد بدأ بالفعل بعض المثقفين الألبان يكتبون بالحروف العربية في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، وأقدم النصوص الألبانية المكتوبة بالحروف العربية تعود إلى مطلع القرن الثامن عشر سنة ١٧٢٥م ، وهى قصيدة شعرية حول "القهوة " تتألف من سبعة عشر مقطعاً لمؤلف يسمى " موتشي زاده " .

وأدى هذا التحول لدى الألبانيين إلى وجود ثلاث أبجديات للغة الألبانية لأن الأقلية الأرثوذكسية في الجنوب بقيت على ولائها للأبجدية اليونانية ، كما بقيت الأقلية الكاثوليكية في الشمال تكتب بالحروف اللاتينية . (٢)

ورغم هذا الانتشار الواسع للكتابة بالأبجدية العربية ، فقد كانت هذه الكتابات دون نظام أبجدي موحد يسير عليه كل الألبان ، مما كان يؤدى إلى بروز اختلافات بينهم .

وقد دفع ذلك بعض المثقفين إلى محاولة وضع نظام أبجدي للغة الألبانية التي تكتب بالحروف العربية ، وكانت أول هذه المحاولات للشاعر " شميمي شكودرا " سنة ١٨٣٥م . (٣)

---

(1) Smail Balić , Kultura Bösnjaka , Wien ,1973 , p.59

(٢) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق . ص٤٨ .

(3) Dhimitër S. Shuteriqi ,Shkrimet Shqipe Në Vitet , 1332 - 1850 , Ribotim I Prishtinë 1978 , p.224 .

وأعقبها محاولة للشاعر " داود بوريتشي " وكان أستاذاً ومفتشاً للتعليم في مدينة أشقودرة ، تلاها أبجدية " هوجا تحسين " سنة ١٨٧٧م ، ثم محاولة الشاعر " علـــي أولشيناكو " سنة ١٨٧٩م ، ثم أبجدية " رجب فوكا " مفتي مدينة مناستير وأفضـــل علماء عصره ، وصدرت أبجديته سنة ١٩١٠م ، وكانت تتكون من أربعة وأربعـــين حرفاً ، وقد لاقت قبولاً بين الألبانيين وطبعت في كتاب مرتين خلال عام واحد .

وأهم ما تميزت به أبجدية "رجب فوكا" أنها جاءت في لحظـــة حاسمـــة ومليئـــة بالصراع بين أنصار هذه الأبجدية من جهة ، وبين أنصار الأبجدية اللاتينية من جهـــة أخرى . (١)

ومع نمو الحركة القومية الألبانية التي قامت في النصف الثاني للقرن التاسع عشر ودعت إلى حل عاجل لموضوع الأبجدية ، والوصول إلى أبجدية واحدة للغة الألبانية، وتطور التنافس بين أنصار الأبجديات إلى صراع سياسي بين مؤيدي الأبجدية العربية والارتباط بالدولة العثمانية ، وبين الراغبين في اللحاق بـــالغرب الأوربي وثقافتـــه و أبجديته في تلك الآونة تجاوز موضوع الأبجدية الساحة الألبانية وذلك مع تـــدخل قوى خارجية كانت تسعى لبسط نفوذها في ألبانيا من خلال تأييد أحد الأطراف ، خاصة النمسا وإيطاليا اللتان كانتا تدعمان الأقلية الكاثوليكية بأبجديتها اللاتينية.(٢)

وظل الصراع بين أنصار كل أبجدية وخصومهم حتى ســـنة ١٩١٢م ، حيـــث تغيرت خارطة المنطقة ، بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب البلقانيـــة الأولي الـــتي خاضتها ضد دول البلقان (صربيا والجبل الأسود وبلغاريا واليونـــان) ، وترتـــب علي تلك الهزيمة تخلي الدولة العثمانية عن مناطق شاسعة تابعة لها في البلقان ومنـــها المناطق الألبانية ، التي سرعان ما أصبحت مطمعاً للقوات البلقانية فدخلتها هذه

---

(١) محمد موفاكو ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٢) محمد موفـــاكو ، نفـــس المرجـــع ، ص ٥٩ –٦٣ ؛ بكـــر إسماعيـــل ، اللغة العربية في كوسوفا ، مرجع سابق . ص ٨٤ .

القوات بسهولة ، وحينذاك قامت مجموعة من الألبانيين بإعلان الاستقلال عن الدولة العثمانية في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٩١٢م في رقعة صغيرة حول مدينة "فلورا "باعتبارها المدينة الوحيدة التي لم تحتل من قبل القوات البلقانية وقامت هذه المجموعة بدعم من دولة النمسا ، ووافقت الدول الكبرى مبدئياً على استقلال ألبانيا في ٢٩ يوليو ١٩١٣م بإعلانها إمارة محايدة تحت رقابة الدول الكبرى ، وقطع كل صلة لألبانيا بالدولة العثمانية . (١)

وفى ذلك الإطار قامت الحكومة الألبانية المؤقتة بقطع صلتها بالشرق وبالأبجدية العربية ، وتبنت الأبجدية اللاتينية . (٢)

كان ذلك عرضاً لموضوع اللغة الألبانية ، تناولت فيه أصلها ، ولهجاتها ، وتطورها ، والمنعطفات التي مرت بها مثل التتريك والتعريب ، وموضوع الأبجدية منذ بداية الخلاف حول أبجدية تلائم الألبان وحتى استقلالهم ، واستقرارهم على الأبجدية الحالية .

---

(1) Ali Musa Başha , Islamine Shqiperigjate Shekujve . Tirane 2000 , pp. 108 - 110 .

(٢) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص ٧٣ ؛ بكر إسماعيل ، اللغة العربية في كوسوفا ، مرجع سابق . ص ٨٥ .

ثانياً : الحياة العلمية والأدبية

شهدت ألبانيا خلال الوجود العثماني ، نهضة علمية وأدبية كبيرة ،وكان للإدارة العثمانية أثر كبير في ذلك ، فمع استقرار العثمانيين بها قاموا بإنشاء المساجد والكتاتيب والمدارس العليا والمكتبات العامة ، مما أدى إلى ازدهار ثقافي كبير في كثير من المدن الألبانية ، وقد ذكر الرحالة التركي أوليا جلبي – في وصفه لمشاهداته في قرى ومدن ألبانيا خلال رحلته بها – أعداد الكتاتيب والمدارس والمساجد والمكتبات التي أقامها العثمانيون ، والتي تدل على مدى اهتمام العثمانيين بالجانب العلمي والثقافي للشعوب التي حكمتها ، وكيف تطورت تلك الشعوب في ذلك الجانب ، فمدينة " بريزرن " الألبانية –على سبيل المثال– اشتهرت في العصر العثماني بأنها مهد الشعراء ، وبرز فيها شعراء وأدباء تمتعوا بشهرة كبيرة في أنحاء الدولة ، وفي مدينة " سكوبيا " كان بها نحو سبعين مدرسة ابتدائية ، وخمس مدارس عليا ، وتسع مدارس خاصة لقراءة وتجويد القرآن ، وكذلك كان في " مناستير " عدد كبير من المدارس الإبتدائية والعليا . أما مدينة " إلبسان " التي أسسها العثمانيون في القرن السادس عشر ، فقد تحولت خلال قرن واحد إلى عاصمة للثقافة الشرقية ، حيث ضمت كثيراً من المدارس الابتدائية والعليا ، وكانت تغص بالأدباء والشعراء .

كما اشتهرت مدينة " بيرات " بشعرائها وأدبائها ، وأشاد أوليا جلبي بأهلها ، وتحدث عن الاجتماعات التي كانت تقام في مقاهيها وكانت تدور فيها المناقشات العلمية والأدبية بين هؤلاء الأدباء . (١)

---

(١) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص ٩٣ ، ٩٤ ؛

Evlia Çelebi , Op , Cit , pp.289 - 303 .

كذلك كانت مدينة " تيرانا " التي تأسست في القرن السابع عشر ، وفى خلال نصف قرن صارت تمتلئ بالجوامع والمدارس .

والجدير بالذكر أن انتشار التعليم كان مرتبطاً بانتشار الإسلام في تلك المناطق ، ففي إطار كل جامع تقريباً كان يقام الكُتّاب ، الذي كان يقوم مقام المدرسة الابتدائية وقد انتشرت هذه الكتاتيب في البداية في المدن الرئيسية ، ثم انتقلت بعد ذلك للمدن والقرى الأخرى ، وبمرور الوقت ازداد عددها إلى أن وصل إلى عدة مئات في القرن السابع عشر ، وفى هذه الكتاتيب كان التعليم يتركز حول القرآن الكريم ودراسة اللغة العربية التي كان يجرى تعليمها من خلال اللغة التركية حتى القرن السادس عشر ثم حلت محل اللغة التركية كلغة تدريس . (١)

وإلى جانب الكتاتيب أو المدارس الإبتدائية ، أُنشئت المدارس العليا منذ القرن الخامس عشر ، وكانت أول مدرسة قد تأسست في سكوبيا سنة ١٤٤٠م ، ثم زاد عدد تلك المدارس حتى تجاوز المائتين في القرن السابع عشر . (٢)

ففي سنة ١٨٨٠م في عصر السلطان عبد الحميد الثاني أُنشئت مدرسة لتخريج المعلمين في بريشتينا بإقليم كوسوفا وكانت أول ولاية يتم فيها ذلك بعد إستانبول . (٣) واستمر اهتمام العثمانيين بهذا الجانب في إنشاء المدارس وتحديثها، ففي مطلع القرن العشرين ١٩٠٥، ١٩٠٦م كان عدد المدارس الإبتدائية في أشقودرة ويانيه وحدهما يزيد على المائة مدرسة، بينما كان في كوسوفا ومناستير ما يزيدعلى خمسمائة مدرسة . (٤)

---

(1) Jashar Rexhepagiq. Zhvillimi I Arësimit Dhe I Sistemit Shkollor Te Kombësisë Shqiptare Në Teritorin E Jugosllavosë Së Sotm Deri Në Vitin 1918 , Pristinë , 1970 , p.33 .

(2) Hasan Kaleši , Najstariji Vakufski Dokumenti U Jugoslaviji Na Arepskom Jezika Priština 1972 , p.90 .

(٣) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، ص ٥٤٢ .

(٤) أكمل الدين إحسان ، نفس المرجع ، ص ٥٣٥ .

ولم تقتصر الدراسة في تلك المدارس على تعليم القرآن واللغة العربية ، إنما شمل العلوم الدينية الأخرى كالعقيدة والفقه والتفسير والحديث . (١)

وهكذا كانت هذه المدارس تقدم أرضية ثقافية واسعة للطلاب ، وكان العديد منهم يذهبون إلى مراكز الثقافة العربية الإسلامية في ذلك الوقت (دمشق – القاهرة) للتوسع والتعمق .

وكان التقليد العثماني الإسلامي يقضي بإقامة مكتبة في كل مدرسة ، حيث كانت تُجمع الكتب المخطوطة ويُنسخ ما هو نادر منها ، وبعض هذه المكتبات كانت تتمتع بسمعة وشهرة كبيرة في البلقان كمكتبة "عيسي بك" في مدينة " سكوبيا " التي كانت تعد من أكبر المكتبات في القرن الخامس عشر . (٢)

كما كانت تكايا الطرق الصوفية تتمتع بنشاط ثقافي كبير ، وقد أثرت في الحياة العلمية والأدبية الألبانية ، ففي كل تكية كانت هناك مكتبة غنية بالمخطوطات العربية والتركية والفارسية . (٣)

ولم تمنع الدولة العثمانية قيام مدارس أجنبية مختلفة في المناطق الألبانية ، حيث سمحت لإيطاليا والنمسا على سبيل المثال بإقامة المدارس في بعض المناطق . (٤) رغم أن الهدف من وراء إقامة تلك المدارس كان استعمارياً بالدرجة الأولي لخدمة مصالح تلك الدول .

---

(1) Akademin E . Shkancave Te Shqiperi , Op , Cit , p.705 .

(2) Jashar Rexhepagiq , Op ,Cit , p.41.

(٣) محمد موفاكو ، دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان ، مرجع سابق ، ص ١١٧ وما بعدها .

(4) Petrika Thengjilli , Op , Cit, p.71 .

وإلى جانب ما أحدثه انتشار التعليم وكثرة عدد المدارس والمكتبات من نهضة علمية وأدبية في ألبانيا ، فقد جعل الألبان على اتصال مستمر بالإنتاج الثقافي التركي والإسلامي بصفة عامة . (١)

وكانت بدايات ظهور أدب ألباني في القرن الخامس عشر ، وإن كان أدب عامي تغلب عليه القصص والحكايات وكان يكتب باللغة التركية ، ومن أوائل الأعمال الأدبية في ذلك القرن كتاب " حصار أشقودرة " للكاتب " مارين بارليتي " ويضم مجموعة قصص وحكايات متفرقة . وفى القرن السادس عشر تطورت الكتابة واتخذت العامية شكلاً أدبياً في الكتب التعليمية والمعاجم والأشعار .

وظهر في ذلك القرن كثير من الشعراء والكتاب المرموقين ومنهم شاعر بريشتينا "مسيهي " (١٤٧٠ – ١٥١٢م) الذي ألف ديواناً شعرياً باللغة التركية ، ويقال إنه ألف أول قصيدة هزلية (فكاهية) في الأدب التركي ، وقصيدة الربيع التي ترجمت بعد ذلك إلى اللاتينية ، إلا أن أحد أشهر الشعراء الألبان الأوائل والذي عرف بتناوله للموضوعات الشرقية هو " يحي بك " وكان من سباهي الجيش العثماني ثم مديراً للأوقاف ، وتوفي بالبوسنة سنة ١٥٧٥م ، وكان يذكر أنه من نسل عائلة دوكاجين الألبانية وفى أشعاره العثمانية لا يجد غضاضة في الإعلان عن أصله الأرناؤوطي (الألباني)، ويشبه قومه بالنسور التي تسكن الجبال كالجواهر.(٢)

وكذلك الشاعر " بريزريناس سوزى شلبي " الذي توفي ١٥٢٤م ، وكان كاتباً وقائداً عسكرياً ألف قصيدة من ثلاثة آلاف بيت،والمؤرخ " سيلا زيد صالح شلبي" الذي توفي ١٥٧٠م الذي كتب كتاباً في التاريخ مرتباً حسب السنين .

---

(١) محمد يوسف عدس . مرجع سابق ، ص ٦٥ .

(٢) السيد جلال حسين . مرجع سابق . ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

وشهد القرن السابع عشر أيضاً ظهور كثير من الكتاب والشعراء والمفكـــرين ، فمن أشهر شعرائه القس " بيتر بودى " (١٥٦٦ – ١٦٢٣م) الذي ترجم ونشر كثيراً من الكتب الدينية ، ويُعتبر أول من نظم الشعر باللغة الألبانيـــة ، وعاصـــره كاتب آخر هو "باردى " أو " بغدادي " الذي توفي ١٦٨٩م ، وكان يغلب علـــى ذلك الأدب الطابع الديني التنويري . (١)

أما أبرز المفكرين الألبان في القرن السابع عشر فهو" قوجي بك " الذي تـــوفي ١٦٤٨م وكان قد تربى في القصور العثمانية ضمن أطفال الدوشرمة ، و ارتقي بعد ذلك في المناصب وأعجب السلطان "مراد الرابع " بقدراته ومواهبه فجعله نديماً له .

وكان لقوجي بك كثير من الآراء الإصلاحية لأحوال الدولة العثمانيـــة ، وقـــد وضع كثيراً من الرسائل الأدبية التي دافع فيها عن أسس النظام العثماني وضـــرورة الاستفادة من قدرات الدولة العثمانية القديمة التي قامت عليها حتى تستعيد قوتهـــا ، ومن الرسائل التي تركها رسالة (كتاب) " تلخيصات " وهو من كتـــب اللـــوائح والإصلاحات التي يذكر فيها رأيه في إصلاح شئون الدولة في تلك الفترة . (٢)

وفى القرن الثامن عشر نهض الأدب والشعر في ألبانيا نهضة كبيرة وكـــان طليعـــة هذه النهضة الشاعر " إبراهيم نظيمي " * الذي توفي ١٧٦٠م الذي خلف ديوانـــاً شعرياً يعد أول ديوان شعري في اللغة الألبانية ، وعاصـــرهم شـــاعر آخـــر هـــو " سليمان نائبي " الذي توفي ١٧٧١م ، والشاعر " إسماعيـــل فلابيشـــي " الـــذي توفي ١٧٧٤م ، و"حسن كامبيري " . (٣)

---

(١) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٦٥ .

(٢) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠-٢٣٢ .

* حول هذا الشـــاعر انظـــر : محمـــد موفـــاكو ، الثقافـــة الألبانيـــة ، ص ١١٢-١١٩.

(٣) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ٨٩ – ٩٨ .

أما القرن التاسع عشر فقد غص بالأدباء والشعراء والمفكرين الـذين وجـدوا أرضاً خصبه لنمو مواهبهم وقدراتهم ، ورعاية من الدولة العثمانية ، فبرز الشـاعر " نسيبي طاهر باباي " الذي توفي ١٨٣٥م والشاعر " محمد تشامي " الذي تـوفي ١٨٤٤م ، و"طاهر أفندي ياكوفا " و " داود بوريجي " الـذي تـوفي ١٨٩٦م ، و " أدهم مولاي " الذي توفي ١٨٤٦م . (١)

وساهمت مدينة كوسوفا خاصة بعدد وافـر مـن العلمـاء والشـعراء مثـل " محمد طاهر أفندي برزرني " وهو من رواد الحركة الأدبية الذين أثروا تأثيراً مباشراً في الكتابات العربية في كوسوفا ، وكذلك الشيخ " حسـن ماسوريتسـا " الـذي توفي ١٨٦٩م . (٢)

وخلاصة ما سبق في ذلك المبحث أن الدولة العثمانية التي كانت تحمل الإسـلام وتتحدث بلسانه ، وفهم سلاطينها وحكامها أن أول تعاليم وأوامر هذا الدين هـي الدعوة إلى التعلم وبناء العقول المستنيرة ، من خلال قوله تعالي " اقرأ باسم ربـك الذي خلق ... " فأولى هؤلاء السلاطين هذا الجانب اهتماماً عظيماً فأقاموا الكتاتيب والمدارس الإبتدائية والعليا في كل المناطق التي فتحوها في أوربا بوجه عام وفى ألبانيا بشكل خاص ، ثم قاموا برعاية المواهب والقدرات التي ظهرت في المجالات العلميـة والأدبية وأتاحوا لها المجال ، فنبغ كثير من الشعراء والمفكرين الذين وجدوا أرضـاً خصبة لتنمية مواهبهم ، ومناخاً صحياً مليئاً بالحرية والتسامح ، حـتى أن الدولـة العثمانية – في هذا الإطار – لم تمنع إنشاء مدارس لتعليم المسيحيين من أبناء الألبان. فلم تكن الدولة العثمانية تسعي من خلال بسط نفوذها على المناطق التي دخلتها إلى نهب ثرواتها واستغلال شعبها وقتل أبنائها ، كما فعلت قوى الاستعمار الغربي مـع الشعوب التي استولت عليها ، ولم تقتصر اهتمامات السلاطين على إقامة المنشـآت المعمارية والمؤسسات الإدارية فحسب ، وإنما عنيت ببناء النفوس وتهذيبها .

---

(١) هـ . ت . نوريس ، المرجع السابق ، ص ٨٩–٩٨ .

(٢) بكر إسماعيل ، اللغة العربية في كوسوفا ، مرجع سابق ، ص ٩٠ وما بعدها .

المبحث الثاني : الحياة الدينية

لم ينقذ الألبانيين من خطر الذوبان في الشعوب الأخـــري المجـــاورة ، إلا الـــدين الإسلامي الذي انتشر بين صفوفهم مع استقرار الحكم العثماني .

وقد أكد ذلك "ياكوف ميلادي " وهو من الباحثين الألبانيين المعنيين بهذا الأمر، رغم كونه مسيحياً إلا أنه ذكر في كتابه "الجنس الألباني " * قائلاً : (لو لم يعتنـــق الألبانيون الإسلام لكانوا قد ذابوا تماماًفي المحيط السلافي) .

وإن كان الإسلام قد دخل بعض مناطق البلقان قبل دخول العثمـــانيين مثـــل بلغاريا ، وساحل الأدرياتيك عن طريق التجار والرحالة المســـلمين أمثـــال "ابـــن حوقل" و"الإدريسي "، كما أن كثيراً من مسلمي الأندلس الذين طُـــردوا منـــها انتقلوا إلى بعض المناطق البلقانية واستقروا بها . (١)

إلا أن الانتشار الفعلي للإسلام في ألبانيا ، وإقبال الألبانيين عليـــه كـــان مـــع استقرار الحكم العثماني في بلادهم .

وكان الدين الإسلامي فرصة للألبان للتماسك والتوحد ، بعد أن كانوا مهددين بالانصهار في بوتقة السلاف فضلاً عن التفكك بسبب خلافاتهم السياسية والدينية المزمنة ، وسأتناول في هذا المبحث سياسة العثمانيين الدينية تجاه رعاياهم في أوربـــا بوجه عام ، وفي ألبانيا بصفة خاصة ، وعوامل انتشار الإ سلام بين الألبانيين .

---

* صدر هذا الكتاب " Raca Shiqptare " في تيرانا سنة ١٩٤٤م .

(١) محمد موفاكو ، دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقـــان ، مرجـــع سابق ، ص ٧٧ – ٨٠ ؛ عبد الرؤف سنّو ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ ؛

أولاً : سياسة العثمانيين الدينية تجاه رعاياهم في أوربا بوجه عام .

لم تكد حاضرة الإمبراطورية البيزنطية تسقط في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م حتى توطدت العلاقة بين الحكومة الإسلامية العثمانية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت ، ومن أولى الخطوات التي اتخذها السلطان محمد الفاتح بعد دخول القسطنطينية وإقراره النظام والأمن بها أن قام بتأمين المسيحيين وأعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية ، ومنع اضطهاد المسيحيين بشكل قاطع ، وأعطى رجال الدين المسيحي حرية كاملة في ممارسة شعائرهم (١) قائلاً لهم : " أقول لكم ولجميع إخوانكم ولكل الموجودين هنا أنكم منذ اليوم في أمان في حياتكم وحرياتكم " . (٢)

ثم زاد السلطان في امتيازات رجال الدين المسيحي فأوكل إليهم الفصل في القضايا الخاصة بالمسيحيين ، وأمر بانتخاب بطريرك لهم ، كما سمح بعودة اليونانيين الذين غادروا المدينة أثناء الحصار ، ومنح البطريرك الجديد مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرؤوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق .

إن المعاملة التي أظهرها السلاطين العثمانيين للرعايا المسيحيين لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفاً في سائر أوربا وإن أتباع كلفن في المجر Calvin وترانسلفانيا ، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الخضوع لأسرة

---

(١) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ .

(٢) محمد حرب ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .

الهابسبورج المتعصبة ، كما نظر البروتستانت إلى تركيا بعيون الرغبة ، وتمنوا شراء الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي، ودفع ذلك التسامح ، والمعاملة الحسنة أحد بطارقة أنطاكية في القرن السابع عشر ويسمي " مقاريوس " وقد رأى أعمال القسوة الفظيعة التي أوقعها البولنديون الكاثوليك على الروس أتباع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية فقال : أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ، ولا شأن لهم بالأديان . (١)

وبصفة عامة حافظت جميع الشرائع والمذاهب على كنائسها بكامل تشكيلاتها ، دون وضع أي قيود على العبادات أو مراسمها ، وكان ذلك مبدأ للدولة العثمانية منذ بدايتها وقد أشاد بذلك الكثير من المؤرخين والمفكرين الأوربيين .

فقد ذكر المؤرخ " جيبون " Gibbon قائلاً : الحقيقة التي لا يمكن أن تنكر هي أن العثمانيون هم أول شعب اتخذ مبدأ إطلاق الحرية الدينية كحجر أساس عند تأسيس دولتهم في العصور الأولي .

وكتب العلامة الفرنسي " بودين " Bodin الذي يعتبر مؤسس القانون الدولي في أوربا في أواخر القرن السادس عشر أنه أوصي مليكه ، بأن يدير فرنسا كالدولة العثمانية ، وأن البادشاه * هو ليس فقد رئيساً للمسلمين ، وإنما هو في الوقت نفسه رئيس الأرثوذكس والكاثوليك الموجودين في دولته وأنه يعامل أتباع هذه الأديان بالمساواة ، ويُقسِّم النعم عليهم بالتساوي .

ويقول المؤرخ الإيطالي Chenier : أظهر الأتراك تفهماً عالياً وتسامحاً مطرداً تجاه جميع الأديان . (٢)

---

(١) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ١٨١ — ١٨٤ .

* يقصد السلطان العثماني .

(٢) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ .

ثانياً : عوامل انتشار الإسلام في ألبانيا

إن المتتبع لعوامل انتشار الإسلام بين صفوف الألبانيين خلال الحكم العثماني يلاحظ أن ذلك قد تم بشكل تدريجي ، وعلى أيدي أهالي البلاد أنفسهم .

وقد شق الإسلام طريقه رويداً إلى قلوب الألبان – قبل الحكم العثماني – ، بعد معركة قوصوه سنة ١٣٨٩م حينما اختلطوا بالعثمانيين ، وأعجبوا بمعاملاتهم ، وأخلاقهم التي لا عهد لهم بمثلها فبدأوا يقبلون على الإسلام . (١)

لقد كانت سياسة العثمانيين في ألبانيا كما في غيرها من المناطق الأوربية قائمة على التسامح الديني وحرية الاعتقاد والتعبد ، وكان لسياستهم ونظام حكمهم وأخلاقهم العامل الرئيسي لإقبال الألبانيين على الإسلام بشكل جماعي ، حتى أصبحوا أكبر شعوب البلقان اعتناقاً له .

ورغم الصعوبات التي واجهها العثمانيون في فتح ألبانيا ، والمقاومة الشرسة التي أبداها بعض الألبانيين مع إسكندر بك ، إلا أنهم حينما اعتنقوا الإسلام، تفاعلوا معه ، ووجدوا فيه من الحق ، وإعلاء شأن الإنسان وتكريمه ، كما وجدوا فيه كثير من الصفات الحسنة التي عرفت بينهم ، وحرصوا دائماً على المحافظة عليها فهو دين القيم والحرية ، ويعارض استعباد الكنيسة للشعوب ، وهو الذي يحث على احترام حقوق الآخرين ، ومساندة المظلوم ، والمساواة ، واحترام الكبير ، والعطف على الصغير ، وإكرام الضيف ، وتكريم المرأة ، ... وغيرها ، لذلك لم يكتفوا باعتناق هذا الدين عن قناعة ورغبة، بل إنهم ساهموا بدور كبير في نشره في كثير من مناطق أوربا والعالم ، إذ صاروا بعد ذلك عماد الجيش العثماني في حروبه و فتوحاته . (٢)

---

(١) بكر إسماعيل،ما هي كوسوفا ، القاهرة : مكتب ألبابرس ، ١٩٩٩م ، ص ٩ .

(2) Ali Musa Başha , Op , Cit , p.55 .

ولنتناول هذه العوامل التي أدت إلى انتشـــار الإســـلام بهـــذه الصـــورة الكـــبيرة بين الألبانيين .

أولاً : نظام التيمار

تم تناوله من قبل ، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى دوره الكبير في إقبال كبار النبلاء الإقطاعيين على اعتناق الإسلام ، بعدما تُركت لهم حريتهم في الاحتفاظ بأراضيهم، وممارسة حقوقهم ، التي كانوا يتمتعون بها كاملة عليها ، ولم تجبر الدولة أحداً منهم على اعتناق الإسلام ، ولم تُقصر منح التيمارات على المسلمين فقط ، وإنما منحت كثير من المسيحيين أيضاً . (١)

ووصف أحد الكتاب الأوربيين أثر تطبيق نظام التيمار على الألبـــان قـــائلاً : إن شعوب البلقان كانت تخضع قبل الفتح العثماني لها لنظام سيادي بغـــيض وســـيطرة شديدة ، جعل الفلاحين يعمدون كثيراً إلى الثورة ضد حكامهم ، ولم يلبث أن حل محل هؤلاء الحكام أصحاب التيمارات(يقصد بأصحاب التيمارات الدولة العثمانية) الذين أخذوا يشددون من جباية الرسوم العينية بدلاً من أعمال السخرة التي أجـــبر الفلاحون على القيام بها من قبل ، ولم يلبث هؤلاء الفلاحون أن شعروا بالارتيـــاح الكلى للنظام الجديد الذي حمل في ثناياه الهدوء والطمأنينة بعد فترات من الحـــروب والصدامات الدائمة بين الأمراء المسيحيين ، فاستتب الأمن ووضع العثمانيون حداً لأعمال قطاع الطرق الذين عاثوا فساداً ، فبرهن النظام الجديد عن روح تســـامح ديني إذ تركهم يتمتعون بمؤسساقم وعاداقم . (٢)

---

(1) Osmanli Tarihinin Araştirmasinin Geneldergisi , Arnavutuk , Ankara Universitesi , p.65 ؛
محمد موفاكو ، دراسات في التاريخ الحضاري ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٢) رولان موسينيه ، مرجع سابق ، ص ٥٥٢ .

وقد ساعد ذلك النظام الألبانيين علي تولى مناصب إدارية عديـدة في الدولـة العثمانية ففي النصف الأول من القرن الخامس عشر ، اعتنق أحد النبلاء الإسـلام وهو " يعقوب بن تيودور موزاقا " و أُدخل ضمن سلك الإدارة العثمانية ، وارتقي حتى وصل إلى منصب حاكم مقاطعة أروانيد سنة ١٤٤٢م ، بينما أصـبح أخـوه " قاسم باشا " من كبار القادة في عهد السلطان " مراد الثاني " ومن بعده السلطان " محمد الثاني " .

وبإسلام كثير من النبلاء تبعهم كثير من الناس في المدن والقرى ، بحكم الرابطـة الشديدة التي كانت بين رئيس القبيلة و أفرادها ، فهو في نظـرهم أكثـر علمـاً بالمصلحة العامة . (١)

ثانياً : فرقة السباهية (سلاح الفرسان) .

كان سلاح الفرسان من أهم مؤسسات الدولة العثمانية ، وقـد كـان سـبباً في دخول عدد كبير من الألبان خاصة العسكريين إلى الإسلام ، وقد سمحت الدولة العثمانية بذلك فلم تُقصر منح التيمارات علي السباهي المسلمين ، ولكنها منحـت السباهي المسيحيين كذلك ، مما شجعهم على اعتناق الإسلام .

وخلال بضعة أعوام تحولت أسر السباهية من المسيحية إلى الإسلام حتى اختفـت من السجلات العثمانية السباهية المسيحيين قبل نهاية القرن السادس عشـر ، وإن بقي عدد قليل حتى القرن السابع عشر .(٢) و إضافة لما سبق،كان لزواج السـباهي المسلمين أيضاً دور في نشر الإسلام من خلال زواجهم بفتيات ألبانيـات وإنجـاب أطفال مسلمين . (٣)

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 65 .

(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .

(٣) عصمت يارما قسز أوغلي ، " الدولة العثمانية " من كتاب سيد محمد سيد (ترجمة و إعداد) ، دراسات في التاريخ العثماني ،الطبعة الأولي ، القاهرة : دار الصحوة ، ١٩٩٦م ، ص ١١٤ .

ثالثاً : الدوشرمة *(ضريبة الدم)

وهى ضريبة فرضتها الدولة العثمانية على رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية باستانبول ، حيث كانت تأخذ بعض أبنائهم في سن صغيرة ، وترسلهم إلى القصور السلطانية بهدف رعايتهم وتعليمهم العلوم الدينية والعسكرية والإدارية ، فكانوا بدورهم يتحولون إلى الدين الإسلامي ، ويصبحون أدوات للحكم والحرب في خدمة الدولة ، وأطلق على هذه الضريبة في المصطلح التاريخي اسم " دوشرمة " Deuchurme أي " ضريبة الغلمان ".(١)

كما أطلق عليهم اسم " المتحولون " . (٢)

وكانت الدولة ترسل مندوباً لها إلى ألبانيا ، يجتمع مع قسيس المدينة ويطلب منه كشفاً بأسماء الأطفال الذكور الذين قام بتعميدهم * ، وكانت تحدد لكل مندوب عدداً معيناً من الأطفال عليه إحضاره ، وفى العادة كان الأطفال يُجمعون من الريف وهم أبناء المزارعين ، ودائماً كانت تتعامل برحمة ورفق في هذا الأمر ، فلا تأخذ الطفل وحيد والديه ، أو الأطفال في سن الرضاعة ، أو الذين بلغوا الحلم حيث يصعب فصلهم عن أهليهم وبيئتهم وماضيهم ، إنما كانت تأخذهم في سن السابعة حتى العاشرة ، وكانت هذه العملية تتم كل أربع سنوات . (٣)

---

* الدوشرمة بفتح وسكون وكسر ، تعنى الجمع والاقتطاف والمقصود جمع الجند وإحضارهم لأداء الخدمة العسكرية ، ويترجمها المؤرخون في أوربا وأمريكا The Tribute Boy . أو The Tribute Children .

(١) عبد العزيز الشناوي ، أوربا في مطلع العصور الحديثة،مرجع سابق،ص ١٢٠

(2) Nouray Bozbora , Op , Cit , p.66 .

* الجدير بالذكر أن كلمة " دفشرمة " مأخوذة من الفعل التركي " دفشرمك " ويعني تسجيل الأسماء وحرف (V) ينطق في التركية (و) .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص ١٢١ .

بيد أن تلك الفترة لم تكن ثابتة ، ففي أول الأمر كانت عملية الجمع هذه تتم كل سبع أو خمس سنوات، وفى عصور متأخرة تمت على فترات أكثر من ذلك ، وكان ذلك متوقفاً على حاجة الحكومة ، وكان على كل مدينة أن تتطوع بثلاثة أولاد أو أربعة أو بولدين على الأقل .

ومن الناحية الشرعية برر فقهاء المسلمين آنذاك هذه الضريبة بأن جعلوا هؤلاء الأطفال يمثلون " الخمس " الذي جعله القرآن من نصيب الحاكم في الغنائم ولكنهم أفتوا أيضاً بأن يجُنَّب هؤلاء الإكراه على اعتناق الإسلام . (١)

وتم العمل بنظام الدوشرمة منذ وضع حتى منتصف القرن السابع عشر ، وكان أحد أسباب قوة الجيش العثماني وتماسكه . (٢)

وقد حاول الأوربيون * المتحاملون على الدولة العثمانية ، تصوير هذه الضريبة بوحشية بالغة ، محاولين إظهار الجانب السيئ منها ، دون النظر إلى ما فيها من إيجابيات عديدة عادت على هؤلاء الأطفال وعلى ذويهم ، ومن ذلك مثلاً :

أن الظروف والأحوال التي فُرضت فيها هذه الضريبة كانت بالغة السوء على أهالي البلاد التي تعرضت للخراب جراء الحروب الكثيرة ، حتى أن بعض الأسر هلكت من شدة الجوع ، ومن ثم كان الأبناء الذين يؤخذون يكونون في الأغلب يتامى ، ولولا تبنيهم لتعرضوا للهلاك أيضاً .

---

(١) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ١٧٥ .

(٢) عراقي يوسف محمد ، الوجود العثماني في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، القاهرة ١٩٩٦م ، ص٢٢ .

* بعض الأوربيين هاجموا هذه الضريبة ، والبعض دافع عنها وكان من بين من دافع عنها المؤرخ توماس أرنولد ، والمؤرخ الأمريكي ليبير Lybyer .

إضافة إلى ذلك فإن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت في ذلك الحين قد انتشرت انتشاراً واسع النطاق ، كما كان الأباطرة البيزنطيون يقومون بنفس العمل من قبل، أي أن ذلك كان استمراراً لحالة مماثلة .

والجانب الأهم في هذا الأمر هو طريقة الدولة في تنفيذه ، والتي دلّت على رحمة وسماحة بالغة من قبل العثمانيين ، فهم لا يأخذون الابن وحيد والديه ، أو في سن دون السابعة ، ولا يأخذون أحداً بالإكراه إلا في القليل النادر ، وكان بعض الأباء يفتدون أولادهم بدفع الأموال ، (١) على حين كان غالبهم متشوقين لإدخال أبنائهم في خدمة تهيئ لهم حياة سعيدة وعيشة ناعمة مريحة ، حيث يُنشّئ هؤلاء الصغار ، ويثقفوا كأبناء السلاطين أنفسهم ، وكان يتم تعليمهم العلوم الدينية واللغة التركية ، والتاريخ الإسلامي العام ، والتاريخ العثماني ، والنظم العثمانية إلى جانب علوم الإدارة والفنون العسكرية .وكان أطفال الدوشرمة يقسمون إلى ثلاث مجموعات حسب قوتهم البدنية وقدراتهم العقلية .

المجموعة الأولي : يُعد أفرادها لشغل وظائف الغلمان في القصور السلطانية وكانوا في العادة أجمل الأولاد شكلاً ، وكان يطلق عليهم اسم " إيج أو غلانلر " أي غلمان البلاط.

المجموعة الثانية ، ويجهز أفرادها لشغل الوظائف المدنية في الدولة ، وهؤلاء كانوا يتلقون تعليماً عسكرياً ومدنياً خاصاً ، ووصل بعضهم لأرفع المناصب كمنصب الصدر الأعظم مثلاً .

---

(١) بيتر شوجر ، مرجع سابق ، ص ٧٣ – ٧٨ ؛ توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص١٧٦ .

المجموعة الثالثة ، كان أفرادها يعدون ليكونوا فرق مشاة في الجيش العثماني (١)، وقد أسفر عن تطبيق هذه الضريبة فوائد هامة لمصلحة الإسلام والدولـة العثمانيـة منها : دخول عدد كبير من أبناء الألبانيين إلى الإسلام طواعية ، ومنها دمج شعوب البلقان عامة والألبانيين خاصة في المؤسسات العثمانية ، كما فـتح ذلـك الأمـر المجالات الواسعة للألبان لشغل المناصب المرموقة في الدولة ، ومنها الوظائف القيادية والإدارية والسياسية ، وقيادة الجيوش (٢) ، حتى أن أكثر من ثلاثين ألبانيـاً بلغـوا منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) (٣) .

كما شغل بعضهم منصب الوالي أو السنجق بك ، أو الوزير ، وبذلك تكونـت طبقة اجتماعية أرستقراطية ألبانية مسلمة أمسكت بزمام الأمور في بلادها . (٤)

وفى ذلك رد على من وصفوا هذه الضريبة بأنها عمـل مـن أعمـال الـرق ، وجانبهم الصواب في ذلك ، فهذه الضريبة كانت وسـيلة للرقـي الاجتمـاعي ، والترقي في سلم الطبقات الاجتماعية ، وطريق أبناء الرعية البسطاء الفقراء لكـي يصبحوا أعضاء في الطبقة العليا الحاكمة في المجتمع ، وكثير من هؤلاء ظلـوا علـى علاقتهم وصلاتهم بأسرهم وذويهم المسيحيين في المناطق التي جاءوا منها ، فنـالهم أيضاً من الخير والنعيم الكثير .

وعندما تبين لسكان منطقة البلقان المسيحيين فائدة الالتحاق بهذا النظـام كـانوا يطلبون من جيرانهم المسلمين أن يحل أبناؤهم فيه محل أبناء المسلمين . (٥)

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، أوربا في مطلع العصور الحديثـة ، مرجـع سـابق ، ص١٢١-١٢٣ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، جـ٤ ، ص ١٨٦١.

(٣) عصمت يارما قسز أوغلو ، مرجع سابق ، ص ١١٥ .

(٤) محمد موفاكو ، دراسات في التاريخ الحضاري ، مرجع سابق ، ص ٧٩ ؛

- Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 64 .

(٥) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

وبذلك حققت هذه الطبقة لنفسها مكاسب عديدة ، وأفادت أقاربهم وذويهم وكان إسلامهم تشجيعاً لكثير من الألبانيين للدخول في الإسلام فيما بعد . (١)

رابعاً : أخلاق العثمانيين وسلوكياتهم

كان من أهم عوامل انتشار الإسلام في ألبانيا – وفي غيرها من المناطق الأوربية – أخلاق العثمانيين الرفيعة ، وسماحتهم مع غيرهم ، ورفقهم ورحمتهم في ممارسة سياستهم في ألبانيا ، مما جذب الألبانيين للإسلام ، وقد ذكر بعض المؤرخين الأوربيين * أمثلة كثيرة لذلك ، بينما ذكر آخرون أن العثمانيين نشروا الإسلام بالسيف وأجبروا الناس على اعتناقه * .

وفي حقيقة الأمر أنه رغم النزعة التوسعية لدى العثمانيين ، إلا أن هذه النزعة رافقتها صفة تسامح ديني بشكل ملموس ، وكانت ألبانيا من النماذج الدالة على ذلك ، فلم يكن إجبار الناس على الدخول في الإسلام من سياسة العثمانيين ، حتى الدعوة إلى الإسلام لم يكن لها وجود قوي في أذهانهم في المرحلة الأولي بعد قدومهم، وحتى فيما بعد ، لم تكن هناك خطط أو أعمال منظمة الهدف منها دعوة الألبان إلى الإسلام ، وإنما كان هناك نوع من الحوار البناء بين بعض رجال الدين المسيحي والمسلمين . (٢)

وكان دافع المسيحيين لدخول الإسلام ما وجدوه لدى العثمانيين من تسامح ورحمة لم يجدوها في ظل حكم الأباطرة البيزنطيين .

---

(1) Nouray Bozbora , Op,Cit , pp .65,66 .

* أمثال توماس أرنولد ، و نويل مالكوم ، و هـ . ت . نوريس ، وجوستاف لوبون ، وغيرهم .

* منهم رولان موسينيه ، رغم أنه أشاد كثيراً بأخلاق العثمانيين وحسن سياستهم.

(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

وقد أثني المسيحيون الأوربيون المعاصرون للعثمانيين على سلوكهم وهيئتهم وغيرتهم على دينهم ، وحماسهم في أداء شعائرهم ، ومظهر الحشمة ، والتواضع في ملبسهم ، وذكر ذلك أحد أفراد السفارة التي أرسلها إمبراطور النمسا " ليوبولد الأول " إلى الباب العالي سنة ١٦٦٥/١٦٦٦م ، حيث أشاد بتعبد الأتراك وانتظامهم في الصلاة بل ذهب أبعد من ذلك قائلاً : يجب أن نتكلم عن فوضى المسيحيين ، إن الأتراك يدلون على كثير من العناية والغيرة في أداء شعائرهم، أما المسيحيون لم يظهروا شيئاً من ذلك في دينهم . (١)

كما ذكر كاتب آخر ويدعي " إسكندروس " قائلاً : والحق لو قرأ المسيحيون باهتمام شريعة المسلمين وتاريخهم وتدبروها ، لاستولي عليهم الحياء حين يشاهدون إلى أي حد هؤلاء المسلمون ذوى غيرة على عبادتهم ، وتقواهم وتصدقهم ، وإلى أي حد متفانون في إخلاصهم ، قانتون في مساجدهم ... ، وما أكثر تواد المسلمين وتراحمهم ، وما أعظم ما يرى من عنايتهم بالغرباء في نُزلهم سواء بالفقير أو بالنازل المسافر ، لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم ، وسائر فضائلهم الخلقية ، لخجلنا من جمودنا سواء في عبادتنا أو في تراحمنا ، ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا فلا ريب أن هؤلاء الناس سُيقيمون الحجة علينا ، ولاشك أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فيهم هي الأسباب الرئيسية لنمو الدعوة المحمدية . (٢)

وهناك كثير من الأمثلة التي لا تحصر على تسامح العثمانيين ، وشهادة أعدائهم والمتحاملين عليهم بذلك .

---

(1) Akademin E . Shkancave Te Shqiperi , Op , Cit , p.596 .

(٢) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ١٩٨ .

أما مسألة إتهام العثمانيين بإجبار الألبانيين على اعتناق الإسلام ، فلا صحة لها، ولا يوجد دليل يؤكد ذلك . (١)

كما أن اتهام العثمانيين بالاستيلاء على الكنائس وتحويلها إلى مساجد ، هي مجرد فرية لا دليل عليها ، ولم يكن من عادة العثمانيين ولا طباعهم أن يفعلوا ذلك ، فإن حدث فكان في أضيق الحدود ولظروف خاصة ، فعندما دخل العثمانيون مدينة "نوفوبردو " إحدى مدن إقليم كوسوفا بعد مقاومة عنيفة ، استخدم الجنود كنيسة واحدة لصلاتهم ، ولم تكن هذه الكنيسة ملكاً لأهل المدينة ، بل كانت تابعة لجالية أجنبية سكسونية ، رحلت عن المدينة عند دخول العثمانيين إليها ، وأصبحت الكنيسة مهجورة .

وبعد أن تحولت الغالبية العظمى من السكان للإسلام في القرن السادس عشر تركت السلطات العثمانية الكنائس الألبانية كما هي رغم أنها أصبحت مهجورة ، وقامت ببناء مساجد جديدة للمسلمين . (٢)

بل كانت الدولة العثمانية ترعي الكنائس وتأذن لأصحابها بصيانتها وتوسعتها ووصف الرحالة الأوربيون الحياة في الأديرة الأرثوذكسية خلال القرن السادس عشر قائلين : إن الرهبان يحيون حياة حرة دون أن يمسهم العثمانيون بسوء ودون تدخلهم في شئونهم . (٣)

---

(1) Ali Musa Başha , Op , Cit , pp . 68-72 .

(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق . ص ٦٨،٦٩ .

(٣) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٤٦٩ .

خامساً : اختلال أوضاع الكنيسة وتدهور حالة رجال الدين المسيحي:

في مقابل أخلاق العثمانيين وسلوكياتهم التي جذبت النفوس للإسلام اتصف رجال الكنيسة المسيحية بالجمود والجهل ، وكانت الأمية متفشية في السواد الأعظم من رجال الدين المسيحي ، ومعظمهم لم يكن يعلم حتى كيف يكتب أو يعيد صيغة الغفران عن ظهر قلب ، أو يجيد إلقاء القداس ، وسائر الطقوس باللغة اللاتينية ، ولم يعرفوا عن حقائق دينهم إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر . (١)

وقد حمل " ماركوبتزى " (أحد الكتاب الذين زاروا ألبانيا في تلك الآونة) أسقفية البلاد القاصرة مسئولية هذه المساوئ من حيث قلة عدد رجال الكنيسة ، وجهلهم بوظيفتهم المقدسة ، وقد تنبأ بزوال المسيحية العاجل في هذه البلاد ، إذا لم تعالج هذه المساوئ ، واتهم كثيراً من القساوسة باتخاذ الجواري وشرب الخمر ، وقارن "ماركوبتزى " بين ذلك وبين موقف علماء المسلمين الذين بذلوا أقصى ما يستطيعونه في سبيل تبليغ دعوة الإسلام ، فيقول عن أحد هؤلاء العلماء ويلقب بالملا: لو رزق الإسلام في ألبانيا أئمة كثيرين من أمثال الملا في إخلاصه ولطفه وتواده وكان –يناقشه دائماً في المسائل الدينية - لكان من المحتمل أن يشق الإسلام طريقاً خيراً مما كان .

وكان من جراء الإهمال والجمود اللّذين ظهر بهما رجال الكنيسة ، أن زحفت كثير من المساوئ والشذوذ إلى المجتمع المسيحي ، ومن ذلك إجراء عقود الزواج بدون تصديق الكنيسة أو عمل أي احتفال ديني ، ولكي يعالجوا هذا الخطأ حرّموا الزوج والزوجة من دخول الكنيسة حتى يمتثلا أمر القانون الكنسي . (٢)

---

(1) Stavro Skendi , Op , Cit , p. 8 .

(٢) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ٢١١،٢١٢ .

وخلال القرن السابع عشر كانت الأحوال الاجتماعية ، وسائر العوامل الـتي ذُكرت قد أتت ثمارها ، فبدأ عدد الأهالي من المسيحيين يتناقص سريعاً ، ففي فترة قصيرة تبلغ الثلاثين عاماً بين سنتي ١٦٢٠-١٦٥٠م دخل نحو ثلاثمائة ألـف مـن المسيحيين الألبان في الإسلام ، وفى سنة ١٦٣٤م لم يكن في أبرشية أنتيفاري كلـها إلا ألفان من الكاثوليك ، ولم يكن في المدينة نفسها إلا كنيسة واحدة ، وفى نهاية ذلك القرن لم تعد حتى هذه الكنيسة تستخدم من قبل المسيحيين في عبـادهم ، إذ لم يبق سوى أسرتان من الكاثوليك . (١)

كما نقص عدد المسيحيين في أسقفية دورازو إلى ما يقـرب مـن النصـف في عشرين عاماً ، وفى أسقفية كرويا تحـول كافـة الأهـالي إلى الإسـلام في مـدة ثلاثين عاماً.(٢)

وحاولت البابوية معالجة الأمر بعدما وصل ذروته ، فأرسلت جماعة مـن رجـال الدين "الفرنسيسكان" و"الأبزرفانت" ليمدوا المسيحيين الألبان بحاجتهم الروحية ، ولكنهم لم يصنعوا شيئاً إلا المنازعات ، ومقاضاة بعضهم بعضاً ، وإهمال الرسالة التي جاءوا من أجلها . (٣)

وترك بعض الأساقفة أبرشيته ورحل إلى البندقية أو إيطاليا ليعيش حياة حافلـة بالمتع والرذائل مثل أسقف " سبا " الذي أناب عنه قسيساً جاهلاً كـان معروفـاً بخلاعته وسوء خلقه ، وأقام هو في البندقية مما أدى إلى إلحاق خسارة فادحة بأبرشيته

---

(1) Akademin E . Shkancave Te Shqiperi , Op , Cit , pp. 596 -599 ؛

- توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ٢١٣ ؛ عبد الرؤوف سنو ، مرجع سـابق ، ص ١٣٨ .

(٢) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ٢١٣-٢١٥ .

(3) Stavro Skendi , Op , Cit , p. 8 .

كما كان أسقف اسكدار في نظر رجال كنيسته وقومه رجلاً ظالماً ، وبعض الأساقفة أثقل كاهل الأبرشيات القائمة في أسقفيته بضرائب إجبارية . (١)

وكان القساوسة في جهل مطبق ، إضافة إلى أنه لم يكن يوجد من المدارس المسيحية سوى عدد قليل ، وكانت في حاله سيئة ، وطلابها غير منتظمين . (٢)

سادساً : ضريبة الرأس

يعزي بعض الباحثين والمؤرخين (٣) إلى أن الدولة العثمانية كانت تفرض ضرائب باهظة على المسيحيين بهدف تحويلهم إلى الإسلام ويعللون وجهة نظرهم بأن قاضي "أوبار " في إحدى الوثائق وجه نظر الباب العالي إلى أن أهالي قري " كيلق قيان" * يعترضون على مساعي جباة الجزية لإجبارهم على دفع الضريبة العامة ويقولون : نحن جميعاً تحولنا إلى الإسلام في قريتنا هذه عدا شخص واحد ظل مسيحياً ، ومع ذلك فإن جباة الجزية يؤكدون إننا ملزمون بدفعها ، وتم نفس الأمر مع أهالي قضاءسباة (سوبوت) . (٤)

وقد انبري كثير من المؤرخين لرد هذه الفرية التي أُلصقت بالعثمانيين ودافعوا عن سلوك الدولة في هذا الجانب ومنهم المؤرخ الأوربي " توماس أرنولد " الذي قال: وطالما يعزى الدخول في الإسلام إلى شدة وطأة الضريبة التي تفرض على المسيحيين حتى لقد قيل أن جميع القرى ارتدت عن دينها تجنباً لأداء الضريبة ، ولما لم ترد أخبار مفصلة عن ذلك فإن من المحال أن نحكم بما إذا كان هناك حقاً أساس

---

(١) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ٢١٥ .

(2) Akademin E . Shkancave Te Shqiperi , Op , Cit , p.705.

(3) Reymond Zikel , Op , Cit , p.13 .

* انظر وثيقة رقم (٢١٣٥) ملحق (٦) بالملاحق .

(٤) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

كاف للشكوى أو إذا لم يكن هناك ما يبرر السلوك الذي سلكه المرتدون لاصطناع نوع من العذر لإخوانهم السابقين في الدين أو أن ذلك كان في الحقيقة مبالغة من جانب رجال الكنيسة الذين خُيل إليهم أن الدخول الصادق في الإسلام على أسس منطقية أمر مستحيل.

وكانت جزية الرأس بعد ذلك بقرن (في سنة ١٧٠٣م) ستة ريالات عن كل شخص من الذكور ، وكانت هذه الضريبة هي العبء الوحيد الذي فُرض على المسيحيين وحدهم ، ولابد أن تعلق الناس بدينهم كان من الضعف والوهن بحيث انصرفوا عنه لا لشيء إلا ليتخلصوا من عقوبة تافهة كهذه وإن كان الوضع لا يخلو من وجود موظف جائر حاول استغلال نفوذه في تحقيق مصالح مادية لنفسه ، وليست تعبيراً عن سياسة الدولة بصفة عامة . (١)

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن ضريبة الرأس أو الجزية كانت تجمع من الذكور فقط البالغين القادرين مالياً والقادرين على الخدمة العسكرية ولا يزيد مقدارها على خمسين أقجة في السنة كلها ، وهو مبلغ يساوى ثمن رأس غنم ، وفى مقابلها كان المسلمون يدفعون الزكاة السنوية على المال وعلى المحاصيل الزراعية وهى ضريبة لا يدفعها المسيحيون .

وعندما ارتفعت معدلات الضرائب في القرن السابع عشر لم يكن الباعث عليها سوي حاجة الحكومة العثمانية الماسة إلى المال لتنفيذ بعض الإصلاحات وليس الرغبة في أسلمة المسيحيين خصوصاً وأن عبء هذه الضرائب كان مشتركاً بين المسلمين والمسيحيين على السواء . (٢)

---

(١) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ٢١١،٢١٠ .

(٢) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص٦٧ .

إضافة إلى ذلك أنه إذا كان الألبانيون قد اعتنقوا الإسلام هرباً من دفع الجزية أو الضريبة لعدم استطاعتهم فلماذا اعتنق أغنياؤهم الإسلام ماداموا قادرين على دفع الضريبة ، إنما هي قناعتهم ورغبتهم في الدخول إلى هذا الدين .

كانت هذه هي عوامل انتشار الإسلام بين الألبانيين ، وهي عوامل مختلفة ومتنوعة قامت في أغلبها على حسن سياسة وإدارة العثمانيين لهذا الإقليم وتفهمهم لطبيعة أهله وكيفية التعامل معهم وجذبهم إلى هذا الدين .

المبحث الثالث : سياسة الدولة العثمانية تجاه الكاثوليك والأرثوذكس الألبان

بعداستقرار الحكم العثماني في ألبانيا وانتشار الإسلام بين نحو ٧٠% من أهلها بقيت أقلية مسيحية من الكاثوليك والأرثوذكس وكانت للدولة العثمانية سياستها تجاه كل طائفة منهما .

أولاً : الكاثوليك

كانوا يتشكلون من القبائل الألبانية التي تعيش في المناطق الجبلية في الشريط الشمالي الغربي لألبانيا ، وللطبيعة الجبلية لهذه المنطقة لم تُطبق فيها النظم الإدارية العثمانية كنظام التيمار الذي كان عاملاً أساسياً في أسلمة كثير من الألبان ، (١) ولذلك ظل هؤلاء على دينهم المسيحي لعدم احتكاكهم المباشر بالعثمانيين وبُعدهم عن المؤثرات الثقافية وقد منحتهم الدولة العثمانية وضعاً مستقلاً ، وأشهر هذه القبائل قبيلة " خوتي " Hotti الواقعة شمال نهر درين ، وقبيلة " ميرديت " Mirdita جنوب نهر درين ، وكانت تتألف من خمس عشائر (٢) ، و مقر حكمها يسمي " أورروش " وهي مزرعة تقع في منطقة جبلية شمالي ألبانيا ، وكانت هذه العشائر تعقد اجتماعاً سنوياً في كنيسة أورروش لمناقشة شئونها العامة ، وبذلك كانت في وضع مستقل مع اعترافها بالسيادة العثمانية عليها .

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 77.

(٢) عبد الرؤوف سنّو ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ .

وقد خضعت هذه القبيلة للدولة بشرط ألا تدفع الجزية وألا يسكن أرضهم مسلم ماعدا " بولوك باشي " لحل المشكلات التي تطرأ بين الإدارة العثمانية والقبيلة، وفى مقابل ذلك تقدم هذه القبائل للدولة جيشاً قوياً محدد العدد لمساعدتها أثناء الحروب ، وعليها أيضاً حماية الممرات الجبلية بين ألبانيا ودول البلقان ، وقد أدت هذه القبيلة خدمات جليلة للدولة في حروبها ضد النمسا . (١)

وعندما حاولت الإدارة العثمانية في فترة التنظيمات تجريد هذه القبائل من أسلحتها وإلحاق أفرادها بسلك الجيش سنة ١٨٥٥م ، ثار أهلها وعاثوا فساداً في منطقة "زدريمة" فعدلت الحكومة عن موقفها . (٢)

ولقد كان لبعض القبائل الأخرى موقف مناهض للحكم العثماني وقد ظهر ذلك خلال القرن السابع عشر وكان بإيعاز وتحريض من البابوية، فقد تشكلت جبهة مناوئة للعثمانيين من قبائل بيلوري وقوجيجى وبلوبافلي (٣) سنة ١٦٨٤م وساندوا " الحلف المقدس " وهو الحلف الذي ضم ألمانيا والنمسا والبابوية والبندقية ومالطا ثم روسيا وكان الهدف من تكوينه طرد العثمانيين من أوربا ، ولكن الدولة العثمانية تمكنت من هزيمة هذا التحالف في قوصوة سنة ١٦٨٩م .

وفى سنة ١٦٩٠م تعاون بعض النصارى الكاثوليك مع البندقية وساعدوهم في احتلال مناطق ألبانية هي أولونيا وقانينا ، فأرسلت إليهم الدولة حملة عسكرية بقيادة أمير أمراء الروملي " جعفر باشا " وساعده أمير أشقودرة " سليمان باشا " وتمكنوا من طرد البنادقة وهزيمتهم ، وعقب هذه الحملة مُنح الأرناؤوط الذين تحالفوا مع البنادقة عفواً عاماً لما أظهروه من حقائق حول هذا الموضوع .

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ، جـ٤ ، ص ١٨٥٧ .

(٢) عبد الرؤوف سنّو ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ .

(٣) عصمت يارما قسز أوغلو ، مرجع سابق ، ص ١١٤ .

وقامت قبيلة أخرى كاثوليكية هي قبيلة " كلمندي " بإثارة قلاقل واضطرابات في ألبانيا حيث عمل أفرادها بقطع الطرق والسطو على ممتلكات النـــاس وكـــانوا مصدر رعب شديد للسكان – خاصة في مدن كوسوفو – الذين قدموا شكوى إلى السلطان سنة ١٦٣٨م ، لرفع معاناقم وتخليصهم من شرور هذه القبيلـــة ، وقـــام السلطان العثماني بتلبية رغبتهم وأرسل حملة مكونة من خمسة عشر ألـــف جنـــدي تمكنت من القضاء على هذه القبيلة ، وإقرار الأمن والنظام في تلك المنطقة . (١)

وهكذا كان موقف الكاثوليك من الحكم العثماني يختلف من قبيلـــة لأخـــرى ، فبعضهم قبل بالخضوع للدولة العثمانية مقابل اتفاقات تمت بين الطرفين وحافظ كل منهما عليها ، وهؤلاء عاشوا في سلام ، ومارسوا حياقم بحرية تامة ، وبعض القبائل انجرفت وراء تحريض قوى خارجية كالبندقية والبابوية ، وتعاونت معهم للخـــروج على الدولة فعاقبتهم الدولة تارة وأعفت عنهم تارة أخرى .

وهناك قبائل لم يكن الهدف من مناوئتها للحكم العثماني إلا لأنه حد من سطوهم وبطشهم بالأهالي ، وهؤلاء لم تتـــهاون الدولـــة معهـــم لأنهـــم كـــانوا يعيثـــون في الأرض فساداً.

ثانياً : الأرثوذكس

ثاني الطوائف المسيحية التي ظلت على دينها هم الأرثوذكس ، وكانوا يقطنـــون المناطق الجنوبية المتاخمة لليونان، (٢) ويتبعون الكنيسة الشرقية في إســـتانبول،وكان أتباع هذه الكنيسة يحظون دائماً بامتيازات وحقوق من قبل السلاطين العثمانيين منذ أعلـــــن السلطان محمد الفاتح أنه حامي الكنيسة الإغريقية (٣)

---

(١) محمد يوسف عدس ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

(٢) عبد الرؤوف سنّو ، مرجع سابق ، ص ١٣٨ .

(٣) توماس أرنولد ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ .

وكانت هذه الامتيازات متعلقة بالتعليم والقضاء والأمن الاجتماعي . (١)

ولم تكن الدولة ترى في الأرثوذكس أي خطر عليها ، بحكم أنهم كانوا بعيدين عن أي قوي تحرضهم على الدولة بخلاف الكاثوليك الذين كانوا على اتصال دائم بالدول الكاثوليكية العديدة .

واستمر موقف الأرثوذكس كذلك حتى مطلع القرن الثامن عشر ، وإن اشترك بعض كبار رجال الدين الأرثوذكس في اجتماعات تآمرية ضد الدولة العثمانية مع الكاثوليك منذ نهاية القرن السادس عشر .

لكن بداية ظهور معارضة أرثوذكسية حقيقية للحكم العثماني كان أثناء الحرب العثمانية الألمانية سنة ١٧١٥م حينما طلب كبير الأساقفة الأرثوذكس في مدينة "أوهرى" الألبانية باسمه وباسم الأساقفة المطارنة من الأمير " يوجين دي سافوي " قائد الجيش الإمبراطوري أن يسارع لتحرير ألبانيا من الحكم العثماني ، ولكن الألبان الأرثوذكس اضطروا إلى الإخلاد للسلم ، لأن جمهورية البندقية اعتزمت سنة ١٧١٦م إنزال قواتها في عدة مواقع على السواحل الألبانية ولكنها أخفقت وفشل حصارها لمدينة أنتيفاري سنة ١٧١٧، ١٧١٨م ، كما فشل حصارها لثغر دولسينيو سنة ١٧٢٢، وبمضي الوقت خفت حدة الصراع بين الكاثوليك والأرثوذكس من سكان الجبال من ناحية والدولة العثمانية من ناحية أخري ، وأثناء الحرب الروسية ١٨٧٧-١٨٧٨م حاولت روسيا التي كانت تدعي أنها حامية وراعية الكنيسة الأرثوذكسية تأليب الألبان الأرثوذكس مستغلة الروابط الدينية بينهم ،إلا أن النصارى بصفة عامة كاثوليك أو أرثوذكس وقفوا على الحياد ،

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 78.

في تلك الحرب ، رافضين رفع أسـلحتهم في وجـه السـلطان رغـم تحـريض روسيا لهم . (١)

ولم تمارس الدولة أي سياسة لأسلمة الأرثوذكس ، ولكن في بداية القرن التاسع عشر حاول " على باشا تبلنه " نشر الإسلام بينهم بهدف زيادة عـدد المسـلمين الموالين له في الجنوب لتوسيع ممتلكاته وتكوين دولة مستقلة ولكن محاولاته لم تنجح.

المبحث الرابع : الطريقة البكتاشية ودورها الديني والسياسي في ألبانيا

البكتاشية هي إحدى الطرق الصوفية * الشيعية التي كان لها دور بارز في الحياة الدينية والسياسية في البلقان بصفة عامة وفى ألبانيا بصفة خاصة منذ أواخر القـرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر .

ورغم وجود العديد من الطرق الصوفية في منطقة البلقان ، إلا أن البكتاشية كان لها انتشار وتأثير أكبر خاصة في ألبانيا .

وتنسب هذه الطريقة إلى رجل يسمي " حاجي بكتاش " وهو متصوف مـن بـلاد فارس ، اختُلف في سنة مولده * ، ولكن الثابت أنه ولد بخراسان ، وتربي وتعلم بها،

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، جـ٤ ، ص ١٨٥٧ ؛ عبد الرؤف سنّو، مرجع سابق ، ص ١٣ ؛ السيد حسين جـلال ، مرجـع سـابق ، ص ٢٣٩.

(2) Nouray Bozbora , Op , Cit , p .78.

* انتشر بمنطقة البلقان عدد من الطرق الصوفية السنية والشيعية كـان أهمهـا المولوية والخلوتية والملامتية والقلندرية والبيرامية والنقشبندية والقادرية .

* اختلف في سنة مولد حاجي بكتـاش فقيـل ولـد سـنة ١٢٠٩م وقيـل سنة ١٢٤٧م.

ثم رحل إلى الأناضول ، وفى طريقه مر بالعراق والحجاز وفلسطين ودمشق ووصل إلى "سولوغة قرة أويوك " بين كيرشهر ونوفشهر بالأناضول ، وأنشأ بها تكيته التي عرفت باسمه ، والتف حوله كثير من المتصوفة ، وتربي على يديه كثير من الدعاة الذين خرجوا بعد ذلك إلى شتى البقاع لينشروا مذهبه وأفكاره *.(١) ثم توفي "حاجي بكتاش" ، بعد تأسيس طريقته البكتاشية ، وإنشاء تكية باسمه في ذلك المكان ، وترك كتابين هما "مقالات الحاج بكتاش " و " فوائد الفقراء " ، وحمل أتباعه من بعده دعوته ، وخلفه في طريقته الشيخ " بالم سلطان " الذي بذل جهوداً كبيرة لتنظيم الطريقة ، ووضع نظاماً جديداً لها ، وحدّد مستوياتها ، وشروط الالتحاق بها، ومراتبها التي حددها كالتالي :

- العاشق وهو المحب للطريقة .
- الطالب وهو الذي يعلن رغبته في الدخول إلى الطريقة .
- المحب وهو الذي دخل في الطريقة بعد حفل الإقرار .
- الدرويش وهو العالم بأركانها وتعاليمها .
- البابا وهي درجه يحصل عليها الدرويش بعد التبحر في العلوم الشرعية والتصوف ويقوم بتعليم وقيادة الدراويش .
- الدده بابا هو شيخ مشايخ التكية البكتاشية العامة ، ويتخذ من تكية حاجي بكتاش مقراً له .

---

* نُسجت حول حياة هذا الرجل كثير من الأساطير ، انظر : تشودى مادة "بكتاش" دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين ،ترجمة إبراهيم خورشيد جـ٧ ، ص٢٦٧.

(١) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ١١٤ ؛ يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٥٠١ ؛ أنتوني سوريال عبد السيد ، الرابطة القومية الألبانية ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٨٦ ، ص ٩ ، ١٠ .

ولأتباع هذه الطريقة ملابس خاصة بهم تتكون من عمامة ويسمونها التاج ، وحزام يربطون به وسطهم ، وهو مكون من اثني عشرة قطعة من الحجر الصغير ويسمي حجر التسليم ، وعباءة .

أما معتقدات هذه الطريقة فهي تقوم في الأساس على الغلو في التشيع لآل البيت ولعلي بن أبي طالب رضى الله عنه خاصة ، وتعادى من يخالفه ، وتفسر كثيراً من مبادئ الإسلام حسب أهوائها . (١) *

فمن هذه المعتقدات الإيمان بالله وتقديس الله والنبي وابنته فاطمة وزوج ابنته على وذريتهما الحسن والحسين ، ولعلى علاقة وثيقة خاصة بالنبي ، فهناك دمج بين شخصيتهما حيث يتجسدان في كيان روحي أسمي ويروون عن النبي أنه قال : " أنا وعلي من نور واحد " وكانوا يرون أن الشخصية المزدوجة لمحمد وعلى تتمثل على الأرض في شخص كل بابا ، ويحق له بذلك أن يحظى بالتقديس .

وكانت عقيدتهم أيضاً تشمل تقديس الأئمة الإثنا عشر وموسى ومريم وعيسى، ومالا حصر له من الأولياء .

والعبادة أمر سري يخص المبتدئين ، وتقام صلاة الجماعة بالمسجد الملحق بالتكية ويكتفي بصلاتي الصبح والمغرب دون الصلوات الخمس ، ويجلس البابا بركنه الخاص يصلي أو يرتل بعض آيات القرآن ، بينما يجلس أتباعه في نصف دائرة من حوله مطأطئ الرأس

---

(١) مجموعة من الباحثين ، دائرة سفير للمعارف . مج ٣٧،٣٨ . ص٥٨ .

* يذكر المؤرخ محمد فؤاد كوبريللي أن البكتاشية ما هي إلا امتداد للبابية ، وأن الحاج بكتاش هو أخطر خلفاء بابا رسول (بابا إسحاق) شيخ البابية الشهير .

انظر : محمد فؤاد كوبريللي ، مرجع سابق ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

بوصفه ممثلاً للإمام علي ، ويتم إشعال اثني عشر شمعة رمزاً للأئمة الإثنى عشر على هيكل مدرج ، ولا داعي عندهم للركوع في الصلاة ، والحضور إلى التكية ليس إجبارياً إلا مرتين في السنة .

وبدلاً من صوم رمضان يحتفي بذكرى استشهاد الحسن والحسين ابني على بكر بلاء .

والتناسخ عقيدة راسخة بينهم ، وحب البشر والوطن مبدأ أخلاقي عام ، وقبول المعاناة دون تذمر ، أمر مطلوب ، والعنف والظلم ينبغي تجنبهما ، ويجب إبداء الخير والكرم للكل ، والكفالة ومراعاة تقديم النذور من الأمور المطلوبة ، وكانت زيارة الأولياء والقديسين شعيرة مشتركة بين المسلمين والمسيحيين ، وكان يتم في كل أوقات السنة . (١)

ورغم كل هذه المعتقدات الباطلة إلا أن بكتاشي ألبانيا خاصة ، اختلفوا عن البكتاشيين في بقية المناطق حيث كانوا أقل تطرفاً وغلواً من غيرهم في تشيعهم فهم مثلاً ، يعترفون بأبي بكر وعمر وعثمان كخلفاء شرعيين بينما غيرهم يصل بعلي إلى درجة الألوهية ، وبكتاشي ألبانيا لا يقسمون بالقرآن ، ويعتبرون الجنة والنار من بدع رجال الدين،ولا يصومون إلا ثلاثة أيام من رمضان والأيام التسعة الأولى من شهر المحرم . (٢)

و للبكتاشية دور قوي وفعال في تاريخ ألبانيا ، وسياستها وقد انتشرت بها بصورة لم تحدث في أي مكان في البلقان أو في العالم .

---

(١) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ١١٩،١١٨ .

(٢) السيد حسين جلال ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨،٢٥٧ .

ولا توجد معلومات قاطعة بشأن كيفية دخول البكتاشية ألبانيا وزمانها ؟ والراجح لدى المؤرخين أنها دخلت في القرن الخامس عشر * ، مع فرقة الإنكشارية أثناء فتوحاتهم في ألبانيا ، حيث كانت هذه الفرقة ملتصقة التصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشية ، منذ نشأتها ، لذلك كان يطلق على جنود الإنكشارية أحياناً اسم عسكري بكتاشية أي الجنود البكتاشية وأحياناً اسم " بكتاشية أوجاقي " أي أوجاق البكتاشية وأحياناً ثالثة " حاجي بكتاش أوغللري " أي أبناء الحاج بكتاش . (١) *

---

* يورد بعض المؤرخين رواية تقول أن السلطان أورخان حصل على موافقة حاجي بكتاش في عملية جمع الغلمان المسيحيين فيما يعرف باسم نظام الدوشرمة ثم تحويلهم إلى جنود وقادة ، وأنه أي حاجي بكتاش قد بارك الطلائع الأولي من الإنكشارية حيث وضع كُم ردائه فوق رؤوسهم ولذلك يضع الإنكشارية على رؤوسهم غطاءً عبارة عن قلنسوة من الصوف الأبيض تتدلى من خلفها قطعة طويلة من القماش هي رمز للبركة التي منحها الحاجي بكتاش لهم .

ولكن كثيراً من المؤرخين يشككون في تلك الرواية ، بل وينفونها نفياً تاماً ومنهم المؤرخ محمد فؤاد كوبريللي الذي يقول إن حاجي بكتاش مات قبل إنشاء فرقة الإنكشارية ، وأنه لم يقابل أي من السلاطين العثمانيين . انظر : عراقي يوسف محمد، الوجود العثماني في مصر ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

(١) تشودي ، دائرة المعارف الإسلامية ، "الأرناؤوط "، جـ ٧ ، ص٢٦٧ وما بعدها.

* وتقول المصادر التاريخية أن بداية تأثير البكتاشية في ألبانيا كان في النصف الثاني من القرن السابع عشر . انظر :

- Historya E Popullit Shqiptar , Op,Cit ,pp.594,595 .

ولذلك فإن تحديد زمن بدء تأثير البكتاشية على الألبان يشوبه قدر من التعقيد بسبب الطبيعة التدريجية للفتح العثماني لبلادهم . (١)

على أية حال ، يرتبط دخول البكتاشية إلى ألبانيا بشخصية رجل يسمي " سرسم على ديديا " وهو ألباني عاش في نهاية القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السادس عشر ، ويقال إنه كان وزيراً للسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) إلا أنه اعتزل الحياة السياسية ، وعاش كدرويش في تكية الحاج بكتاش ، وفي عام ١٥٥٠م أصبح الشيخ الأكبر في هذه التكية قبل أن يتوفى في عام ١٥٦٩ ، وقد أوصى بكل ثروته لبناء تكية في مسقط رأسه " تيتوفا " بألبانيا . (٢)

وكان للبكتاشية دعاة آخرون في كثير من المناطق الألبانية ، مثل " بيرإبدالي " بكوسوفا ، و " شاه قلندرى " و " ديلجيار حسيني " و " بابا أرشيو " في إلبسان وكان ذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهى فترة لم يكن للطريقة تكايا أو خلاوي خاصة بها في ألبانيا .

ثم كان نشاط " دور بالي سلطان " الذي شهدت الطريقة في عهده إنشاء مجموعة من التكايا ، خاصة بمنطقة التوسك بألبانيا ، حيث أقام قاعدة في تيسالي ومنها بدأ إنشاء قواعد أخرى في جنوب مقدونيا وكريت .

وشهدت نهاية القرن السابع عشر إنشاء تكايا في مناطق متعددة من ألبانيا مثل "كرويا" و " جيروكاستر "و" إلبسان "و" كورتشة " و " ملتشانيت " و " سكرابار " وغيرها .

---

(١) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

(٢) محمد موفاكو ، " البكتاشية " ، مجلة العربي الكويتية ، عدد ٢٢٠ مارس ١٩٧٧م ، ص ٦٥ .

وكانت هذه التكايا تتعرض للتدخل العثماني ، إذا ما ثبت على القائمين عليها أي مخالفات أو القيام بأنشطة هدامة . (١)

وقد كانت البكتاشية مجرد اتجاه روحي ديني ، لم يقترب من السياسة ومشاكلها وظلت على ولائها للسلطة المركزية العثمانية خلال تاريخها ، (٢) حتى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، حيث شهدت تحولاً حاسماً في اتجاهين : سقوطاً في تركيا (حيث ألغاها السلطان محمود الثاني وأغلق تكاياها وزواياها) ، وانبعاثاً في ألبانيا .

ويرتبط انبعاثها في ألبانيا في تلك المرحلة بشخصية بارزة هي شخصية " كمال الدين شميمي " الذي كان قد عاش في تكية الحاج بكتاش ، ثم عاد مع رفيق له إلى مدينة كرويا الألبانية ، حيث أقام هناك تكية لنشر البكتاشية ، سنة ١٨٠٧م، وبدأ التحرك في جميع أرجاء ألبانيا يدعو لهذه الطريقة .

ثم شهدت البكتاشية تطوراً أكثر حينما نجح " كمال الدين شميمي " في إقناع على باشا التبلاني (حاكم ولاية يانيا وجنوب ألبانيا من قبل العثمانيين كما مر بنا) بالانضمام إلى البكتاشية واعتناق أفكارها . (٣)

كان على باشا في ذلك الوقت في صراع مع الدولة العثمانية من أجل الانفصال بما تحت يديه من مناطق ، فوجد في انضمامه لتلك الطريقة فرصة ليضفي على حركته الانفصالية الصبغة الدينية القومية ، وتوطدت العلاقة بينه وبين زعماء البكتاشية فسمح لهم بإقامة تكايا كثيرة في جنوب ألبانيا ، وأمدهم بمساعدات مالية ، وأتاح لهم الانتشار بين أفراد المجتمع . (٤)

---

(١) هـ . ت . نوريس ، المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(٢) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، جـ٢، ص ١٨٩ .

(٣) محمد موفاكو ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٤) هـ . ت . نوريس ، نفس المرجع ، ص ٢٤٦ .

إلا أن على باشا هُزم أمام الجيوش التركية سنة ١٨٢٢م ، وأعقب ذلك عقاب شديد أنزله السلطان محمود الثاني بالبكتاشية في أنحاء الدولة العثمانية ، فأصدر فرماناً في ذي الحجة ١٢٤١هـ / يوليو ١٨٢٦م ألغي الطريقة البكتاشية ، وأغلق تكاياها وزواياها، وأعدم بعض مشايخها . (١) *

وبذلك أنزل بها ضربة قاصمة ، خاصة في الأناضول وبعض مناطق البلقان ، بيد أن البكتاشيين في ألبانيا أنقذوا أنفسهم بالتجائهم إلى الجبال ، بعدما تم تدمير العديد من تكاياهم في بيرات و مناستير و ملتشانيت .

وهكذا صار عداء محكم بين هذه الطريقة والدولة العثمانية ، حتى أنهم كانوا يّكفّرون السلطة العثمانية .

ثم عادت البكتاشية للظهور وممارسة نشاطها في ألبانيا بعد ضعف السلطة العثمانية ، ونمو التيار القومي عند الألبانيين ، خاصة مع ظهور خطر تقسيم وابتلاع الأراضي الألبانية من قبل القوى الخارجية المتمثلة في الصرب واليونان وغيرهما . (٢)

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , pp.72,73 ؛
محمد فريد ، مرجع سابق ، ص ٤٤٦ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، جـ١، ص ٥٥٢،٥٥٥ ؛ عبد الرؤوف سنّو . مرجع سابق . ص ١٤٨ .

* الجدير بالذكر أن الطريقة البكتاشية دخلت مصر مع فرقة الإنكشارية ، ولكن نظراً لوجود فرق صوفية عديدة وقديمة ، لم تجد البكتاشية قبولاً إلا عند البلقانيين والأتراك الذين وفدوا إلى مصر من أقاليم الدولة العثمانية الأخرى واستقروا بها، ولمزيد عن البكتاشية في مصر انظر : محمد حرب ، مرجع سابق ، ص١٦١ ، وما بعدها .

لقد أنتج هذا الشعور بالخطر جيلاً جديداً من البكتاشيين ، ارتبطت مصالحهم أكثر بالألبانيين كي تتمكن من قيادة حركة الاستقلال القومي ، ومن هذا الجيل تجدر الإشارة إلى الأخوة فراشري (نعيم – سامي – عبدول) .(١)

وينتمي هؤلاء إلى قرية فراشير بجنوب ألبانيا ، وكان السلطان محمد الثاني قد منحها كإقطاعية لأجدادهم ، وقد لعب هؤلاء الأخوة دوراً مهماً في حركة الاستقلال الثقافي والسياسي لألبانيا ، وفي إحياء اللغة الألبانية . (٢)

وكان أولهم هو " نعيم فراشيري" (١٨٤٦ – ١٩٠٠م)

عمل نعيم فراشيري كثيراً على إقناع الآباء البكتاشيين بأن الألبانيين بحاجة إلى شيخ ألباني ، يتلقى منه الآباء تعاليمهم ، وكذلك ساهم نعيم في إعطاء البكتاشية أيدلوجية اجتماعية جديدة ، حيث جعلها تتطرق للمشاكل الاجتماعية والتفاعل معها ، بحيث تصبح البكتاشية معاصرة لوقتها .

والأخ الثاني هو " عبدول فراشيري " (١٨٣٩ – ١٨٩٤م) ، وقد أعطى البكتاشية أيدلوجية أخرى حيث طلب من زعمائها الانضمام إلى " رابطة بريزرن "* القومية ، وتسخير إمكانيات الطريقة للدفاع المسلح عن الوطن الألباني لمواجهة خطر تقسيم ألبانيا سنة ١٨٧٨م ،ونجح عبدول في جذب بعض آباء البكتاشية.(٣)

أما الأخ الثالث في أسرة فراشيري فهو " سامي فراشيري ".

---

(١) محمد موفاكو ، مرجع سابق ، ص ٦٦ ، ٦٧.

(٢) هـ . ت . نوريس ، مرجع سابق ، ص ١٨٢ ؛

_ Nouray Bozbora , Op , Cit , p.189 .

* سأتناول الحديث عن هذه الرابطة في نهاية هذا المبحث .

(٣) محمد موفاكو ، البكتاشية ، مرجع سابق ، ص ٦٧.

ساهم سامي فراشيري (١٨٥٠ - ١٩٠٣م) بدوره في تحويـل البكتاشـية إلى أيدلوجية أخرى جديدة ، تمثل في روحها تطلعات البرجوازية الألبانيـة الناهضـة ، وهكذا وجد البكتاشيون أنفسهم ، يُغيرون أيدلوجيتهم ، ويلعبون دوراً حيويـاً في الحياة السياسية ، ولم يقتصر الدور على النـواحي السياسـية فحسـب ، بـل إن البكتاشية دخلت معركة اللغة والأبجدية -التي تحدثت عنها سابقاً- ، فقد اتخـذت البكتاشية منذ البداية موقفاً صارماً فيما يتعلق بالتمسك باللغـة الألبانيـة وعـدم استبدالها بالتركية (١) ، ورغم أن الآباء البكتاشيين كانوا حتى العقد السـابع مـن القرن التاسع عشر من أنصار الأبجدية العربية ، يدل على ذلك التـراث الشـعري الكبير الذي خلفه الشعراء البكتاشيون حتى ذلـك الوقـت ، ثم تراجـع الآبـاء البكتاشيون ، وطالبوا بأبجدية ألبانية تكتب بحروف لاتينية نتيجة للاتجـاه القـومي الألباني آنذاك ، حتى تحقق ذلك سنة ١٨٧٩م . (٢)

وفي سنة ١٩١٢م تغيرت خارطة المنطقة نتيجة للحرب البلقانية التي دارت بـين الدول البلقانية المتحالفة (صربيا ، الجبل الأسود ، بلغاريا ، اليونان) مـن جهـة والدولة العثمانية من جهة أخرى ، وانتهت الحرب بهزيمة العثمانيين وتخلت الدولـة العثمانية عن المناطق التابعة لها في البلقان ، فاستغلت بعض الدول المجاورة للألبـان الفرصة وقاموا باحتلال بعـض المنـاطق الألبانيـة (٣)،ثم قامـت مجموعـة مـن الألبـان بإعلان الاستقلال عن الدولة العثمانية أسوة بغيرهم من شعوب

---

(١) محمد موفاكو ، البكتاشية ، مرجع سابق ، ص ٦٧.

(٢) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية ، مرجع سابق ، ص ٦٠ ؛
Tajar Zavalani , Op , Cit , pp.171-178 . ؛
Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 223 .

(٣) سليم العقاد ، تاريخ الحرب البلقانية ، مطبعة الهلال ، مصر ١٩١٣ ؛
يوسف البستاني ، تاريخ حرب البلقان الأولى بين الدولة العثمانيةذ والاتحاد البلقاني ، مصر ، د ، ت .

المنطقة في ٢٨ نوفمبر ١٩١٢م في رقعة صغيرة حول مدينة فلورا ، وجاء هذا الإعلان تحت إشراف النمسا التي كانت سياستها قائمة على عدم السماح لدولة معادية (الصرب آنذاك) باحتلال المناطق الألبانية والوصول إلى البحر الأدرياتيكي ، وتحت ضغط النمسا وتهديداتها ، وافقت الدول الكبرى على استقلال ألبانيا في ٢٩ يوليو ١٩١٣م بإعلانها إمارة محايدة تحت رقابة الدول الكبرى وتعيين النبيل الألماني " فولهلم فون فيد " أميراً عليها . (١)

ومع أن الدستور الذي وضع وقتذاك لم يتناول وضع البكتاشية في ألبانيا ، إلا أن الوضع الدستوري الذي نتج عن مؤتمر" لوشني "سنة ١٩٢٠م اعترف بالبكتاشية كطائفة مستقلة ، واتخذ المؤتمر قراراً بتشكيل مجلس أعلي يقوم بمهام رئيس الدولة يتكون من أربعة أفراد يمثلون الطوائف الأربعة المعترف بها في ألبانيا وقتئذ ، وهي الطائفة الإسلامية السنية ، البكتاشية ، الكاثوليكية ، الأرثوذكسية . (٢)

وخلاصة ما سبق عرضه في هذا المبحث أن العثمانيين انتهجوا سياسة التسامح الديني مع رعاياهم في أوربا بصفة عامة وفى ألبانيا بشكل خاص ، ولم يجبروا أحداً على ترك دينه واعتناق الدين الإسلامي ، وإنما اتخذوا من الإجراءات الإدارية في سياستهم لألبانيا ما دفع بغالبية الألبانيين إلى اعتناق الإسلام طواعية،و من هذه الإجراءات نظام التيمار ، وضريبة الدم (الدوشرمة) وضريبة الرأس ، إضافة إلى أهم دافع وهو أخلاق العثمانيين وسلوكياتهم .

ثم كان الحديث عن الطريقة البكتاشية ، والتعريف بنشأتها وانتشارها ، ومعتقدات أصحابها ، ودورها في ألبانيا منذ دخولها إليها وحتى سنة ١٩٢٠م .

---

(1) Ismail Qemal Vlora , Kujtime , Tirane , 1997, pp. 350-354.

(٢) محمد موفاكو ، البكتاشية ، مرجع سابق ، ص ٦٨ .

المبحث الخامس : الرابطة القومية الألبانية

"رابطة بريزرن"

رابطة بريزرن أو عصبة بريزرن الألبانيـــة The Albanian League ، وتسمي بالتركية Brizren Birligi . (١) هـــي رابطـــة تكونـــت في ربيـــع سنة ١٨٧٨م ، وكانت تنادى باستقلال ألبانيا كغيرها من شعوب البلقان الخاضعة للدولة العثمانية ، وكانت بعض شعوب البلقان قد نجحت منذ الثلاثينيات في القرن التاسع عشر في الانفصال والاستقلال عن الدولة العثمانية ، حيث استقلت اليونان استقلالاً تاماً بينما استقلت الصرب ورومانيا وبلغاريا استقلالاً ذاتياً .

أما عن الظروف التي أنشئت فيها تلك الرابطة ، فترجع إلى الفترة بـــين ســـنتي ١٨٧٧-١٨٧٨م حيث قامت الحرب الروســـية العثمانيـــة (٢) ، ووقفـــت دول الصرب والجبل الأسود ورومانيا وبلغاريا بجانب روسيا ضد الدولـــة العثمانيـــة ، وانتهت الحرب بهزيمة الأخيرة ، واستولت دولة الجبل الأسود على مناطق ألبانيـــة هي سبيزا ، ودلسينو وأنتيفارى ، ووصلوا حتى ضواحي أشقودرة . (٣)

بينما استولى الصرب على المناطق الشمالية في سنجق بريشتينا الألباني وهكـــذا كانت نتيجة تلك الحروب رسم خريطة جديدة لمنطقة البلقان .

وبعد الحرب ، عقدت معاهدة " سان ستيفانو " بين روسيا والدولـــة العثمانيـــة وأملت روسيا شروطها على العثمانيين ، فكان ما يخص ألبانيا فيها :

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , p. 189 .

(٢) بييرنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، تعريب جلال يحـــي ، دار المعـــارف ، مصر، ص ٥٥٠ .

(٣) أنتوني سوريال عبد السيد ، الرابطة القومية الألبانية ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

أعطيت دولة الجبل الأسود مناطق دلسينو ، وهوت ، وبلانا ، وجيوشينا وأعطيت الصرب أعالي سنجق بريشتينا ، ومُنحت بلغاريا كورسا Korca وديبرا، وبوجرادك وتيتوفا ، وجوستيفار . (١)

وبذلك اقتطعت أجزاء كبيرة من ألبانيا ، أعطت للدول المجاورة ، لتتسع رقعتها على حساب الشعب الألباني ، وأرضه ، في ظل فترة الضعف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية .

وأمام ما حدث ، لم يقف الألبان مكتوفي الأيدي ، فاجتمع بعض قادامّم وعلى رأسهم " عبدول فراشيري " وأرسلوا العديد من الاحتجاجات إلى الدول الكبرى (بريطانيا ، النمسا ، وإيطاليا) يعلنوا رفضهم اقتطاع أجزاء من أراضيهم فعلي سبيل المثال ، جاء في احتجاج أهالي مدينة ديبرا ، بأنه ليس هناك روابط بينهم وبين سكان بلغاريا ، وأهم جميعاً ألبان مسلمون ومسيحيون وأهم يرغبون في أن تظل بلادهم تحت السيادة العثمانية .

وواصل قادة الألبان اجتماعاقم ، وكونوا لجنة سرية سميت اللجنة المركزية للدفاع عن الحقوق القومية الألبانية ، كان يرأسها عبدول فراشيري (٢) ، وكان أعضاؤها على اتصال دائم مع زعماء الألبان في بقية ألبانيا ،

---

(١) أنتوني سوريال عبد السيد ، مرجع سابق ، ص ٢٨ ؛

Stavro Skendi , Op , Cit ,p p. 33,34 .

(2) Gazmend Shpuza , Historia E Popullit Shqiptar ,Op , Cit ,pp. 85,86 ؛

– أنتوني سوريال عبد السيد ، نفس المرجع ، ص ٢٩–٣٣ ؛ عبد الرؤوف سنو مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

ونتج عن هذا الاتصال الدعوة إلى اجتماع عام في مدينة بريزرن حضره ممثلون عن كل المناطق الألبانية وعُقد الاجتماع في يونيو سنة ١٨٧٨م ، وترتب علية إعـلان إنشاء " الرابطة القومية الألبانية " أو " رابطة بريزرن الألبانية " وقـررت اللجنـة رفض قرارات مؤتمر سان ستيفانو ، والدفاع عن الأراضي الألبانية ، وإنشاء جيش ألباني قوى يتولى هذه المهمة . (١)

وبعد معاهدة سان ستيفانو التي رفضها الألبان ، أرسلوا مذكرة إلى الباب العـالي حدّدوا فيها تصور الرابطة للعلاقة بين ألبانيا والدولة العثمانية في المستقبل وجـاء هذا التصور كالتالي :

- توحيد ولايات ألبانيا في ولاية واحدة .
- أن تكون الإدارة العثمانية في ألبانيا من موظفين ألبانيين .
- استخدام اللغة الألبانية في التعليم والقضاء .
- أن يؤدى الجنود الألبانيون الخدمة العسكرية داخل البلاد .
- استعمال عائدات ألبانيا المالية داخل البلاد .

وقد عكست تلك المذكرة اتجاهات العصبة أو الرابطة في إبـراز الشخصـية القومية الألبانية من جهة ، وعدم الانفصال عن الدولة العثمانية من جهة أخرى.(٢)

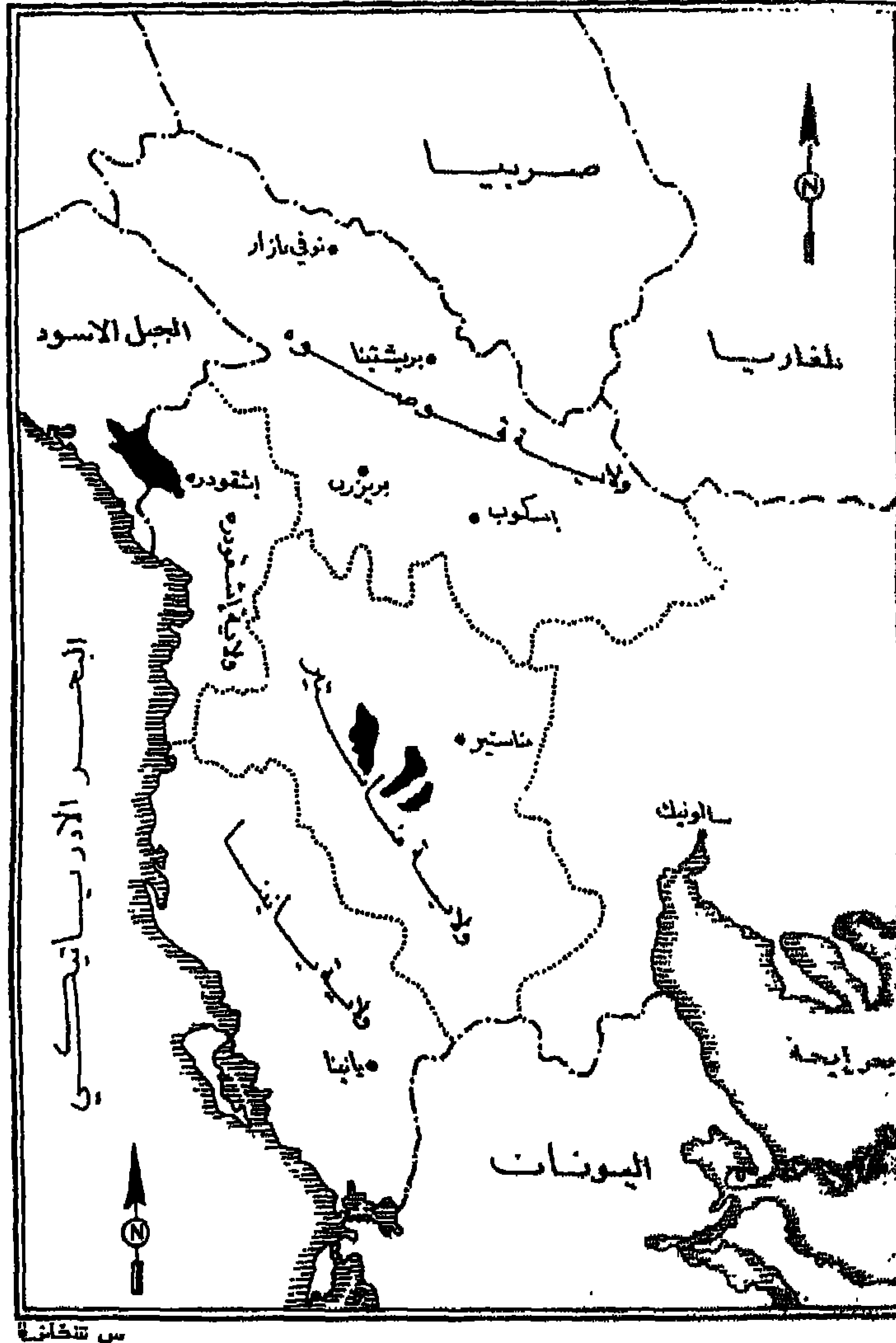
وأثناء انعقاد الحملة الأولي لمؤتمر برلين في ١٣ يونيو ١٨٧٨م ، قدمت العصبة مذكرة احتجاج إلى المؤتمر حول عدم تمثيلها فيه ، وأكدت فيهـا علـى تقاليـد الألبانيين ولغتـهم الخاصة ، وشخصيتهم القومية ، وحقهم في المحافظة على

---

(1) Tajar Zavalani , Op , Cit , pp.172-174 .

(٢)عبد الرؤوف سنو . مرجع سابق . ص ١٥٢ ؛

- Tajar Zavalani , Op , Cit , p.176 .



شكل (٢)

الولايات الألبانية الأربعة التي كانت الحركة القومية الألبانية تطالب بالحكم الذاتى فيها وهى حدود ألبانيا في ظل الحكم العثماني نقلاً عن كتاب :

(محمد الأرناؤوط ، كوسوفو – كوسوفا ، القاهرة ، ص ١٥١)

حدودهم التاريخية وعدم تمزيقها ، والمطالبة باستقلال بلادهم أسوة بغيرهم من شعوب البلقان . (١)

ولكن الدول الكبرى المجتمعة في برلين رفضت مطالب الألبانيين ، بل وقررت اقتطاع أجزاء من ألبانيا في سبيل إعادة تشكيل الكيانات البلقانية المسيحية المجاورة.(٢)

واعتبر المؤتمر أن الألبانيين عثمانيون ، وأن ألبانيا مجرد اصطلاح جغرافي (٣) ، حتى أن المستشار الألماني " بسمارك " صرح آنذاك قائلاً : لا توجد أمة ألبانية ،وقد نظرت الدول الأوربية إلى غلبة الطابع الإسلامي على الولايات الألبانية الأربع حيث كان المسلمون يمثلون نحو ٧٠% ، ولم يكن في مصلحتها ولا مصلحة الدول البلقانية المسيحية المجاورة خلق كيان إسلامي جديد في جنوب شرق أوربا يكون عامل اضطراب أو إعاقة لنفوذها في المنطقة .

وهكذا جاءت قرارات المؤتمر صدمة قوية للألبانيين ، الذين رفضوا هذه القرارات ورغم مساندة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني لهم في البداية ورفضه أيضاً لقرارات المؤتمر فيما يتعلق باقتطاع أجزاء من ألبانيا ، وقال :

إنه على استعداد أن يخسر عرشه على أن يفقد إنشاً واحداً من ألبانيا . (٤)

وقام بإمداد أعضاء هذه الرابطة بالسلاح للدفاع عن أراضيهم ورفض تسليمها للصرب والجبل الأسود واليونان كما قرر مؤتمر برلين .

---

(١) أنتوني سوريال عبد السيد ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

(٢) عبد الرؤوف سنّو ، مرجع سابق ، ص ١٥٤ .

(٣) أنتوني سوريال عبد السيد ، نفس المرجع ، ص ٤٢ .

(٤) عبد الرؤوف سنّو ، نفس المرجع ، ص ١٥٤–١٥٦ .

ولكن الدول الأوربية الكبرى ضغطت على السلطان العثماني لتنفيذ بنود مؤتمر برلين بشأن ألبانيا فوافق ، بيد أن العصبة الألبانية لم تكترث لأوامر السلطان وتقبل النظام الإقليمي الجديد في ظل ضعف شديد للدولة العثمانية ، ودخلت العصبة في معارك مع جيرانها البلقانيين من الصرب والجبل الأسود واليونان لمنعهم اقتطاع أجزاء من أراضيهم ، وحينما أرسلت الدولة العثمانية حملة عسكرية لإرغام الألبان على تسليم هذه المناطق ، صد الألبان هذه الحملة وأرغموها على الرجوع سنة ١٨٧٩م .

وزادت تطورات الأحداث فقام أعضاء العصبة بطرد الموظفين العثمانيين وقتل بعضهم فما كان من الدولة العثمانية إلا أن أرسلت حملة عسكرية سنة ١٨٨٠م قامت باعتقال معظم قيادات العصبة ، ونفي الآخرين ، وحل هذه العصبة التي كانت أول حركة قومية في تاريخ ألبانيا الحديث . (١)

---

(1) Nouray Bozbora , Op , Cit , pp.189-230 ؛
Tajar Zavalani , Op , Cit . pp.176,177 ؛
عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، جـ٤ ، ص ١٨٧٦،١٨٨٢ ؛ أنتوني سوريال عبد السيد ، مرجع سابق ، ص ٤٣ ؛ عبد الرؤوف سنّو . مرجع سابق . ص١٥٤-١٥٦؛ محمد يوسف عدس . مرجع سابق ، ص ٩٤ -١٠٢ .

وخلاصة ما جاء في هذا الفصل الذي شمل الحياة الثقافية والدينية في ألبانيا ، أن الألبانيين بصفة عامة يتحدثون اللغة الألبانية ، وإن وجد بينهم لهجتـــان مختلفتـــان التوسك في الجنوب والجج في الشمال ،وأن هذه اللغة ترجع إلى أصول إيلليريـــة ، وأنها إحدى اللغات الهند وأوربية ، وتناولت التغيرات والتطورات التي حدثت لهذه اللغة ، وعملية التعريب التي مرت بها ، والخلاف الذي ظهر في نهاية القرن التاسع عشر حول الأبجدية الألبانية بين أنصار العربية وأنصار اللاتينية .

ثم ناقشت اهتمام العثمانيين بالناحية العلمية وإقامة المدارس والمنشآت التعليميـــة العديدة في مختلف مناطق ألبانيا ، وظهور نهضة ألبانية أدبية مـــن خـــلال كتابـــات وأعمال كثير من الألبانيين .

وفى المبحث الثاني تناولت الحياة الدينية ، فذكرت سياسة العثمانيين الدينية تجاه رعاياهم في أوربا ، ثم سياستهم الدينية تجاه الألبانيين من خلال نظم الحكـــم الـــتي طبقوها وأدت إلي إقبال غالبية الألبانيين على الإسلام ، ثم تناولت الحـــديث عـــن الطريقة البكتاشية ودورها الديني والسياسي في ألبانيا في المبحث الثالث .

أما المبحث الرابع فخصصته للرابطة القومية الألبانية التي قامت سنة ١٨٧٨م ، وكانت تطالب بالحفاظ على الوطن القومي الألباني ، واستقلاله وعدم التفـــريط في أي جزء منه وإحياء اللغة الألبانية والعمل بها في جميع الدوائر، وكيف انتهي أمـــر هذه الرابطة في ضوء الأحداث الدولية وقتذاك .

الفصل الرابع

دور الألبانيين في خدمة الدولة العثمانية

أولاً : الصدور العظام .

ثانياً : الـــولاة .

ثالثاً : قادة (الجيوش-الأساطيل) .

رابعاً : الجـنود .

دور الألبانيين في خدمة الدولة العثمانية

رغم المواجهة العنيفة التي واجهها العثمانيون في ألبانيا ، أثناء فتحها – في بعض المناطق منها –* ، و تكبدهم الخسائر المادية و البشرية الكبيرة ، و تأخر استقرار الحكم العثماني بها ، إلا أنه ما إن استقر العثمانيون بالبلاد ووضعوا نظامهم السياسي والاقتصادي ، ووجد الألبان في ظل حكمهم تسامحاً و حسن خلق ، وحرية لم يعهدوا مثلها في ظل أي قوة خضعوا لها من قبل ، فأقبلوا إلى الإسلام يعتنقوه بصورة شبه جماعية ، و أصبح الرابط بينهم و بين الدولة العثمانية هو رباط العقيدة ، و هو أقوى رابط يجمع المسلمين ببعضهم على اختلاف جنسياتهم وأماكنهم و لغاتهم .

و توطد حب الدولة العثمانية و مكانتها في قلوب الألبان ، بدرجة جعلتهم حريصين دائماً على الحفاظ على قوتها و وحدتها ، و دعمها بالنفس و المال والسلاح في حروبها الخارجية ، وفي فتوحاتها و توسعاتها ، وانضموا قادة و جنوداً للجيوش العثمانية .

ومن جانبهم حرص سلاطين العثمانيين على كسب ودهم ، و ضمهم إلى صفوف قواتهم ، فكانوا يعاملوهم كمواطنين عثمانيين و ليسوا رعايا كبقية شعوب البلقان وأوربا .(١) نظراً لما كان يتمتع به الألبانيون من شهرة كبيرة كمحاربين أشداء مخلصين في أداء واجباتهم ،وهذا ما كان يبحث عنه العثمانيون لتحقيق أهدافهم وطموحاتهم الكبيرة في توسيع دولتهم ،ونشر الإسلام في شتي البقاع . (٢)

---

* خاصة المناطق الشمالية الجبلية أثناء حروبهم مع اسكندر بك .

(1) Ali Musa Başha , Op, Cit,p. 50.

(2) Sami Frashëri, Shqipëria Ç'ka qenë Ç'e Shtë Eçdo Të Bëhetë, Prishtinë 1978, p.34.

ومن هنا كان سر اهتمام العثمانيين بهذا الإقليم وشعبه ،ونشر الإسلام بين صفوفه لكي تتحول طاقاته الكفاحية الكبيرة في اتجاه توسيع دائرة الإسلام في أوربا وقد أدى إدخال ألبانيا لحوزة الدولة العثمانية إلي تزويد الجيش العثماني بدم حيوي جديد ،مما ساعده علي التوجه شمالاً في اتجاه النمسا وجنوباً في اتجاه البلاد العربية .

وخلال تلك الفترة تحول الألبانيون إلى عنصر معروف ببأسه في بلدان حوض البحر المتوسط والمشرق والمغرب العربي . (١)

كما تفتحت للألبانيين مجالات واسعة في المناصب المرموقة في القصور السلطانية والوظائف القيادية الإدارية والسياسية،وقيادة الجيوش والأساطيل العثمانية.(٢)

ولقد عبر السلطان عبد الحميد الثاني عن العلاقة بين الدولة العثمانية والألبان ونظرة السلاطين العثمانيين إليهم في مذكراته قائلاً :

" إن السواد الأعظم من الأرناؤوط (باستثناء قلة قليلة من العائلات النصرانية) إخوان لنا مسلمون ،نسند ظهورنا إليهم، فهم جنودنا المخلصون برز منهم رجال دولة وقادة أفذاذ، أليس الذين من حولي الآن هم من الأرناؤوط *، فالحقيقة التي لاغبار عليها أنهم قوم عزيزو النفس يكرهون أن تحد حرياتهم ،وإذا أخذنا بعين الاعتبار جيرانهم الذين يسعون للوقيعة فعلينا أن نلتمس الأعذار لكثير من تصرفاتهم " ، (٣) ويقول أحد المؤرخين الأوربيين واصفاً دور الألبان ومسارعتهم في خدمة الدولة العثمانية "انطلق الألبان من تلالهم وجبالهم كأسراب النحل لخدمة الدولة العثمانية والدفاع عنها ، لقد كانت مهارات الالبانيين ،

---

(1) Milan Shufflay , Serbët Dhe Shqiptarët , Prishtinë 1968, p.57 .

(٢) عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، مرجع سابق ج٤ ص١٨٦١ .

* كان الحرس الخاص للسلطان عبد الحميد في قصر يلدز باستانبول من الأرناؤوط.

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني ،مذكراتي السياسية ١٨٩١-١٩٠٨، مرجع سابق ، ص ٧٦ .

واتجاهاتهم العسكرية التي جلبوها معهم بعد إسلامهم كافية لتجعل لهم مكاناً حفيـاً ،عندما التحقوا بالآلاف في الجيش والإدارة، لقدكانت طبيعتـهم القبليـة الـتي اكتسبوا منها عدم الأنانية، عاملاً جعلهم يعملون كخدم مخلصين للسلطان العثماني ،بطريقة لم يكن العثمانيون ليجدوها إلا نادراً في تلك الفترة ". (١)

ولم يتوقف دور الألبانيين في خدمة الدولة العثمانية علي مجـال واحـد، إنمـا تعددت إسهاماتهم الفعالة والمؤثرة في جميـع المجـالات ، العسـكرية والاداريـة والسياسية ،بل والثقافية ،فالآلاف منهم سارعوا إلي الالتحـاق بسـلك الجـيش كجنود أكفاء مخلصين متحمسين لنشر الإسلام ،والدفاع عن دولتـه المتمثلـة في الدولة العثمانية ،والبعض منهم أظهر قدرة فائقة في القيادة وإدارة الولايات وحسن سياستها فمنحهم السلاطين أرفع المناصب والوظائف ،فبعضهم صار واليـاً علـي إحدي الولايات ، ومنهم من تولي الصدارة العظمي ،وهو أرفـع منصـب بعـد السلطان ،وآخرين منهم تولوا قيادة الجيوش والأساطيل العثمانية .

ولقد عُرف الألبان بتفانيهم في أداء واجباتهم في كل مجال أُسند إليهم فحققـوا نجاحات مبهرة ،وقلّما عرفوا الفشل أو الهزيمة ،ويُحمد للدولة العثمانية حُسن نظرتها وتقديرها لهم ،وكيفية الاستفادة من طاقاتهم وقدراتهم .

وسأتناول الحديث في هذا الفصل عن تلك المجالات التي أسهموا بها في خدمـة الدولة العثمانية ،وهـي حسـب أهميتـها : الصـدر الأعظـم أولاً ،ثم الـولاة ثم القادة ، فالجنود .

---

(١) بول كولز ، مرجع سابق ، ص١٨٦.

أولاً: الصدور العظام

الصدر الأعظم * أو رئيس الوزارء ، أهم منصب في إدارة الدولة العثمانية بعد منصب السلطان ،نظراً لما كان يناط بصاحبه القيام به ،وقد تولي هذا المنصب أكثر من ثلاثين رجلاً من أصل ألباني (١) ، منذ القرن الخامس عشر وحتي القرن العشرين بعضهم تولي لفترات قصيرة ولم تكن له آثار واضحة ،ولم تتناول كتب التاريخ سيرته أو أعماله، وبعضهم تولي لفترات كبيرة وقام بأعمال جليلة ،وحفظ للدولة مكانتها وهيبتها في الداخل والخارج ، ففي فترة ازدهار الدولة العثمانية فيما بين سنتي ١٦٢٣،١٤٥٣م ، تولى هذا المنصب سبعة

---

* الصدر الأعظم : أي الوزير الأعظم .

كانت الإدارة العثمانية في البداية تضم وزيراً واحداً، فلما زاد العدد إلي وزيرين في عهد السلطان مراد الأول أصبح الوزير الأول هو الوزير الأعظم ، وسُمي بذلك لأنه كان الوكيل المطلق للسلطان ،ويملك صلاحيات واسعة ،ولا يسأله عن أعماله إلا السلطان وحده ،فهو وكيل عن السلطان في أمور الدين والدولة ،وتأمين نظام السلطنة وتنفيذ الأحكام ،وسماع الدعاوي ،ورفع الظلم وإدارة البلاد وإصدار قرارات التعيين في كافة المناصب، ومنح التيمارات ،وأحياناً الخروج علي رأس الجيش للحرب ليكون القائد العام له ،وكان يساعده في أداء مهامه دواوين مختلفة تضم كبار موظفي الدولة . وللمزيد عن هذا ا لمنصب انظر :

Aydin Taneri Osmanli Devletinin Kuruluş Döneminde Veziriazamlik , Ankara , 1974.

(١) عصمت يارما قسز أوغلو ،دائرة المعارف ،مرجع سابق ص ١٥١؛

Machiel Kiel, Op, Cit , p.22 .

و أربعين صدراً، كان منهم أحد عشر ألبانياً (١) ، منهم "جديك بك" أحد وزراء "محمد الفاتح "العظام في الفترة ما بين (١٤٧٤-١٤٧٧) م وقاد حملة كبيرة سنة ١٤٨٠ م لمهاجمة سواحل إيطاليا ، واستولى على ميناء "اوترانتو" . (٢)

وقد شهد بعد موت الفاتح الصراع الداخلى بين ابنيه "بايزيد الثاني " و"جم سلطان"وكان له دور كبير في حسم ذلك الصراع على الحكم لمصلحة بايزيد،وسانده في حكمه حتى أحدث تطوراً سياسياً و اقتصادياً وثقافياً كبيراً . (٣)

ومن هؤلاء الصدور الأحد عشر أيضاً "قوجه داود "، و "دوكاجين زاده أحمد" و"قرة مراد "و "طارخونجى أحمد" وغيرهم . (٤)

ولم أتمكن من العثور على معلومات خاصة بهؤلاء ، و الواضح أنهم كانوا في فترة قوة بالنسبة للدولة العثمانية ، فكان دورهم ضئيلاً بجوار السلاطين ، أو ربما كانت فترة توليهم ذلك المنصب قصيرة فلم يتمكنوا من عمل أشياء تخلد ذكرهم

بيد أن أهم و أشهر من تولى هذا المنصب في الدولة العثمانية من الألبانيين،كانت أسرة كوبريللى الشهيرة ،صاحبة الإنجازات الكبيرة في الدولة في منتصف القرن السابع عشر ، حيث تولى أربعة من أفرادها هذا المنصب ، يليهم في الأهمية سنان باشا ، وسيكون الحديث عنهم وفقاً ، للترتيب الزمنى ،فنبدأ أولاً بسنان باشا .

---

(١) روبير مانتران ، مرجع سابق ، ص٢٥٨ .

(٢) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص ١٧٥،١٧٦ .

(٣) خليل إينالجق ،"العثمانيون النشأة و الازدهار " في كتاب : سيد محمد سيد (ترجمة و إعداد) دراسات في التاريخ العثماني ، مرجع سابق ، ص ٧١،٧٢ .

(4) Machiel Kiel, Op, Cit , p.22 .

سنان باشا

أحد مشاهير القواد و الصدور العظام في الدولة العثمانية إبان القـــرن العاشـــر الهجرى السادس عشر الميلادى ، وقد عاصر حكم أربعة من السلاطين العثمـــانيين هم ، "سليمان الأول" و "سليمان الثاني" و "مراد الثالث "و "محمد الثالث" ، وتولى منصب الصدارة خمس مرات ، و يرتبط اسمه بالكثير من المنشآت العمرانية في مصر و سوريا والجزيرة العربية .

ولد سنان باشا سنة ١٥١٥ م في أسرة ألبانية متواضعة ، ولم تتـــوفر معلومـــات حول فترة طفولته وشبابه ، و الثابت أنه دخل في خدمة الدولة العثمانية ، و تدرج في المناصب الهامة ، وكان أول ما أُسند إليه هو حكم ولاية مصر في عصر السلطان سليم الثاني سنة ١٥٦٧م ، فقام بحفظ الأمن و النظام بها ، وعنى بالتعمير فأنشـــأ شارعاً وعدة وكالات فى بولاق ، كما أنشأ مسجداً باسمه . (١)

ثم انتدبه السلطان ليرسله إلى اليمن للقضاء على تمرد و عصيان أحد حكامها من قبل العثمانيين و هو "مطهر بن شرف الدين يحيى الزيدى " ، (٢) الذي خرج على الدولة واستقل بحكم كثير من مناطق اليمن و منها مدينتى "تعـــز" و "صـــنعاء "، وانحصر التواجد العثماني في شريط ساحلى ضيق شمل "زبيد "و "عدن ". (٣)

جهز "سنان باشا" جيشاً ضم نحو اثنين و عشرين ألف محارب ، و بعض الصناجق و كبار الأمراء الجراكسة ، و غادر مصر في يناير ١٥٦٩م متجهاً إلى اليمن عـــن طريق البر ، و دخلها من الناحية الجنوبية ، واشتبك مع أتباع مطهر الزيدى الذي انتهى الأمر بهزيمته ثم إبرام صلح معه يحكم بمقتضاه باسم السلطان العثماني .

---

(١) أحمد عطية الله ، القاموس الاسلامى ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ ج٣ ص٥٠٨ ؛محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص١٩ .

(٢) المحبى (محمد فضل الله) ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، القاهرة المطبعة الوهابية ج٢ ص ٢١٦ .

(٣) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص٢٦٢-٢٦٤ .

الجدير بالذكر أن سيطرة العثمانيين على اليمن كانت جزءًا مهماً من استراتجيتهم في البحر الأحمر ، وهى إغلاقه أمام الخطر البرتغالى . (١)

ثم طلب السلطان من "سنان باشا "العودة ومغادرة اليمن ، بعدما أقر النظام العثماني بها على أن يترك فيها ثلاثة آلاف من الجنود ، فغادر "سنان باشا "بعد فترة عامين قضاها في اليمن ، وكافأه السلطان لذلك ، فأنعم عليه بحكم ولاية مصر مرة ثانية ، وفى طريق عودته لمصر زار مكة المكرمة وحج بيت الله الحرام ، وأقام بها بعض الوقت وأنشأ بعض الآثار الحسنة ، وحفر عدداً من الآبار بالقرب من المدينة المنورة لقوافل الزوار . (٢)

وما إن عاد سنان باشا إلى مصر و استقر بها حتى استدعاه السلطان العثماني مرة أخرى، لتكليفه بمهمة جديدة .

وفي هذه المرة عينه السلطان قائداً عاماً (سردار) لجيش كبير أرسله إلى تونس لطرد الأسبان منها ،وكانوا يتحصنون بقلعة حلق الوادى * ، سار الأسطول العثماني من إستانبول في مايو ١٥٧٤م يضم مائتين و ثمان و تسعين سفينة تحمل أربعين ألف جندى و كان "قليج على باشا " على قيادة الأسطول ، و "سنان باشا" على قيادة القوات البرية بالإضافة لكونه القائد العام للحملة .

قاوم الجنود الأسبان هذه الحملة بشدة ، ولكن "سنان باشا" نجح في نهاية الأمر من الاستيلاء على القلعة بعد حصارها ، و قتل من الأسبان نحوخمسة آلاف جندي* وأسر نحوثلاثة آلاف آخرين . (٣)

---

(١) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثماني في مصر، مرجع سابق، ص١٦٠-١٦٢.

(٢) المحبى ، مرجع سابق ، ص ٢١٦ .

* حلق الوادى هو ميناء تونس العاصمة .

* اختلف في عدد القتلى فقيل خمسة آلاف و قيل عشرة آلاف :انظر المحبى .

(٣) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص٣٨٠ .

واستغرق الأمر ثلاثة و أربعين يوماً ، و كانت تلك الغزوة من أعظم غـزوات بني عثمان " (١) و عادت بذلك تونس لحوزة الدولة العثمانية .

و هكذا سطع نجم "سنان باشا "فقام السلطان بتعيينه صدراً أعظم سنة ١٥٨٠م لأول مرة ، و في نفس العام قاد حملة إلى إيران ، و لكن الحملة فشلت فتم عزلـه من المنصب في السنة التالية بسبب نتائج تلك الحملة ، وأسندت إليه ولاية حلـب فاستعاد مكانته ، و في سنة ١٥٨٩م تولى الصدارة مرة أخرى ثم عُزل بعد ثـورة قام بها الإنكشارية ، ثم عاد إليها للمرة الثالثة في حكم مراد الثالث ، و بالرغم من الانتصارات التي حققها في حروبه مع دولة المجر ، إلا أن السلطان الجديد "محمـد الثالث" عزله ، و نفاه إلى الأناضول ، و كان ذلك بسبب دسائس خصومه لـه ، وفي أغسطس سنة ١٥٩٥م عاد إلى منصب الصدارة للمرة الرابعة ، و تولى قيادة حملة عسكرية على "والاشيا" ، و لكن سقوط مدينة "جران" كان سبباً في عزله مرة أخرى و خلفه "لالا محمد" الذي لم يلبث أن توفى، فعاد سنان لمنصـب الصـدارة للمرة الخامسة و لكن لم تطل وزارته فمات في إبريل سنة ١٥٩٦م.(٢)

و لقد ترك سنان باشا آثاراً عمرانية عديدة ، و أعمالاً خيرية مذهلة ، و من جملة آثاره العظيمة بدمشق جامع كبير سُمي جامع السنانية ، أنشأه أثناء ولايتـه علـى الشام ١٥٨٦- ١٥٨٨م (٣) ، و له بها أيضاً حمام و سوق عُرفا بحسن وضـعهما و دقة صنعتهما ، و له مثل ذلك في كثير من مدن الشام كما أن له بمصر جامعـان أحدهما بمنطقة بولاق بالقاهرة ، و الآخر بالأسكندرية ، كماله في كثير من بلـدان الخلافة جوامع و مساجد و مدارس و خانات و حمامات تنوف على المائة ، و بصفة عامة كان سنان باشا وزيراً عالي القدر ، رفيع الهمة ، و من أكثـر وزراء الدولـة العثمانية آثاراً ، وأعظمهم نفعا للناس . (٤)

---

(١) المحبي ، مرجع سابق ، ص ٢١٦ .

(٢) أحمد عطية الله ، مرجع سابق ، ص ٥٠٨ .

(٣) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، ص٣٢٢،٣١٧ .

(٤) المحبي ، نفس المرجع ، ص ٢١٥ .

و لأعمال هذا الوزير الجليلة ، و آثاره العظيمة قام المؤرخ " قطب الدين محمد بن أحمد النهراوالى المكى " بوضع كتاب حول سيرته ، و أعماله ، و آثاره و سماه "البرق اليمانى في الفتح العثماني " و أهداه إليه . *

ننتقل بعد ذلك إلى شخصية ألبانية أخرى نبغت في مجالى الفكر و السياسة وهو الوزير "لطفى باشا " أحد المفكرين السياسيين الذي سطع نجمهم في عصر السلطان العثماني سليم الأول ، فولاه حكم بعض السناجق ، ثم قام بتعيينه سنة ١٥٣٩م ، في منصب "الوزير الأعظم " ، فشغل هذا المنصب بنجاح لمدة عامين ثم عُزل منه بسبب دسائس الأوساط التي تضررت من نجاحه و أدائه الجيد ، وقد عُرف لطفى باشا بإخلاصه الشديد في أداء عمله ، و لم تتوقف محاولاته الدائمة أثناء توليه ذلك المنصب للقضاء على مظاهر الضعف و الخلل التي لمسها في أجهزة الدولة .

و إلى جانب كونه رجل دولة ناجح ، كان لطفى باشا يتمتع برصيد زاخر في الجانب العلمى و الثقافى ، و له مؤلفات هامة في الفكر السياسى أهمها الرسالة التي وضعها في مسألة الخلافة ، يتحدث فيها عن الخلافة و أهميتها و تاريخها بإيجاز ، ورأيه و أفكاره في تلك المسألة و سميت هذه الرسالة باسم "خلاص الأمة في معرفة الأئمة " وله كتاب آخر في التاريخ سُمى باسمه ،و كتاب "آصفنامة " يتناول فيه الحديث عن مؤسسات الدولة و رؤيته الإصلاحية في بعض أجهزتها التي تسرب الخلل إليها . (١)

ومن أبرز الصدور العظام الألبانيين في القرن السادس عشر أيضا :"أحمد باشا قرة" أصله من ألبانيا ، و تلقى تعليمه في قصر السلطان ، مما يبين أنه كان ضمن طائفة

---

* قام بنشر هذا الكتاب الأستاذ / حمد الجاسر تحت عنوان غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة ، و طبعته دار اليمامة ، الرياض سنة ١٩٦٧م .

(١) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٢٢٩ ، ٢٣٧ .

الدوشرمة ، و كانت له معارك عسكرية و فتوحات جليلة ، ففي سنة ١٥٤٨م عُين قائداً للجيش الذي توجه لمحاربة الصفويين فهزمهم و أجبرهم على الفرار ، واستولى على عدة قلاع شرقي الأناضول و بلاد الكرج (القوقاز) .

و عندما فقد العثمانيون مدينة (ليبا) بالمجر ، قاد أحمد باشا جيشاً واستولى على مدينة "تمسوار" (برومانيا)و فتحها بعد حصار دام أكثر من شهر ثم حاصر مدينة "أورلو" من بلاد المجر وكانت تابعة للنمسا من قبل ، و لكنه رفع الحصار عنها لقوة تحصيناتها ، و لدخول فصل الشتاء وشدته في ذلك المكان و قد عُين بعد ذلك "أحمد باشا " في منصب الصدر الأعظم ، و استمر فيه حتى موته سنة ١٥٥٥م .

و بانتهاء عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) بدأت الدولة تمر بمرحلة من الضعف تميزت بالصراع على العرش ، و تدخل نساء القصر في السياسة، وانتشار الفوضى و الرشوة و تسلط الإنكشارية على الوضع في العاصمة وأصبح الصدر الأعظم ضحية لهذه التحولات .

في تلك الآونة تولى ذلك المنصب بعض الألبان ، كان منهم أحمد باشا الألباني (١٦٥٢-١٦٥٣)م الذي حاول تصحيح الأوضاع ، و حارب الفوضى والرشوة وقام بتنظيم ميزانية الدولة لضبط النفقات ، و لكنه جوبه بمقاومة عنيفة إنتهت بمقتله بعد تسعة أشهر من توليه منصبه .

و خلفه ألباني آخر هو" قرة مراد باشا " و لكن بقاءه لم يدم كثيرًا حيث سقط كسلفه على أيدى الإنكشارية سنة ١٦٥٥م، و خلفه في العام التالى ألباني آخر هو "مصطفى باشا" إلا أنه عُزل أيضاً بعد عدة شهور ، و ظلت هذه الحالة من التردى والضعف في الدولة حتى آلت مقاليد الحكم إلى أسرة " كوبريللى" الألبانية و ذلك بتولى أحد أفرادها منصب الصدر الأعظم و هو " محمد باشا كوبريللى " . (١)

---

(١) مجموعة من الباحثين ، دائرة سفير للمعارف الإسلامية ، جـ٦ ، ص٢٦ ؛ روبير مانتران ، مرجع سابق ص٢٧٩ ؛ محمد موفاكو ، تاريخ بلجراد ، مرجع سابق ، ص٥٧.

أسرة كوبريللى *

لعبت هذه الأسرة من خلال أربعة من أفرادها دوراً حيوياً في فترة مهمة و خطيرة من تاريخ الدولة العثمانية ، كانت فترة بين مرحلتين مختلفتين ، مرحلة القوة و التوسع و الاستقرار ، ومرحلة الضعف و تكالب أعداء الدولة عليها ،وسيطرة الجند والحريم السلطاني علي مقاليد الأمور ،وتنامي قوة الإنكشارية ، وبلوغ سطوتها إلي حدعزل سلطان وتولية آخر ،وعزل صدر أعظم أو قتله وتولية آخر ،حتي أن الفترة ما بين سنتي ١٦٥١ و١٦٥٦ م تولي هذا المنصب أكثر من أحد عشر شخصاً ،لم تدم مدة أكثرهم سوي سنة وبضعة أشهر وبعضهم تولي لبضعة أشهر ، وقيل أيام . (١)

أما علي الصعيد الخارجي فقد استولت بعض الدول مثل النمسا علي بعض المناطق الخاضعة للعثمانيين ،واستولت البندقية علي مدخل البسفور مما كان يهدد سفن وتجارة الدولة ،فنجحت هذه الاسرة في تغيير هذه الأوضاع وتميزت فترة ولايتهم بالاستقرار الحكومي ،والتصحيح السياسي ،واستعادة الهيبة العثمانية . (٢)

محمد كوبريللي باشا

أول أفراد هذه الاسرة هو محمد باشا كوبريللي* ، الذي بدأحياته داخل القصر العثماني ،كأحد أفراد الدوشرمة . (٣)

---

* نسبة إلي مدينة كوبري التي كانت تقع علي أحد روافد نهر" القزل ارماق" قرب أماسية بآسيا الوسطي ،وقد هاجر إليها من ألبانيا جد هذه الاسرة فنسبت إليها .

(١) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، جـ١، ص ٤٩٩.

(٢) روبير مانتران ، مرجع سابق ، جـ١ ، ص٣٦٥.

* ولد في قرية Rosnik وكانت تابعة لقضاء أولونيا بألبانيا .

(٣) كارل بروكلمان ،تاريخ الشعوب الإسلامية ،ترجمة نبيه فارس ،الطبعة الثانية عشر ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٩٣ ، ص٥١٦.

ويبدو أنه عمل في بداية حياته ضمن طائفة الخدم في القصر ،فيقال إنـــه عمـــل كمساعد طباخ في المطاعم السلطانية . (١)

ولكنه لم يلبث أن انتقل من الخدمة في القصر السلطاني إلي مجال الإدارة فعمـــل خازناً للصدر الأعظم وقتذاك ، ثم أصبح والياً علي دمشـــق وطـــرابلس الشـــام والقدس ،ثم عاد إلي العاصمة (إستانبول) وتقلد منصب "وزير قبـــة " * ،ولكـــن خصومه تآمروا عليه فعزل وعاد إلي وطنه ألبانيا . (٢)

ورغم أن "محمد كوبريللي" لم يحظ بقدر من التعلـــيم ، إلا أن الله وهبـــه مـــن الصفات ما جعلته سياسياً وإدارياً ناجحـــاً ،فكـــان شـــديد الـــذكاء والنشـــاط والحزم،قوي الشكيمة ذا بأس شديد . (٣)

وقد عرف الجميع فيه هذه الصفات ،وعندما آلت حالة الدولة إلي ما آلت إليه وكان السلطان العثماني آنذاك "محمد الرابع " (١٦٤٨-١٦٦٨) م لم يبلغ سن الرشد و كانت أمه وصية عليه و قائمة بأعمال السلطان فاستشارت من حولهـــا فيمن يتولى منصب الصدر الأعظم و يُصلح ما فسد من شئون الدولة ، فأشـــاروا عليها بتعيين "محمد كوبريللى " ، و لم تبد الوالدة السلطانة إرتياحاً لهذا الأمر حيث كان رجلاً أمياً وكبيراً في السن * ، و لكنها وافقـــت في نهايـــة الأمـــر بتـــأثير من مستشاريها .

---

(١) بول كولز ، مرجع سابق ، ص١٨٧.

* وزير قبة : كان أحد وزيرين أوثلاثة يعاونون الصدر الأعظم ، وقد أطلق عليهم ذلك الاسم إشارة إلي القبة التي تعلو قاعة المجلس الذي كانوا يجتمعون فيه

(٢) كارل بروكلمان ، مرجع سابق ، ص ٥١٦.

(٣) محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ، مطبعة الترقـــي ١٩٢٥، جــــ٣ ص٢٧٢؛ عبدالعزيزالشـــناوي ، أوربـــا في مطلـــع العصـــور الحديثـــة ، مرجع سابق ، ص٧٨٩.

* كان محمد كوبريللى عند توليه ذلك المنصب يبلغ من العمر ســـبعين عامـــاً وقيل ثمانين .

فأرسلوا في استدعائه ، و عندما جاء و عُرض عليه الأمر اشترط لقبوله عدة شروط ودُهشت السلطانة لذلك، حيث لم يسبق في النظام العثماني أن يضع وزير شـروطاً لقبول الصدارة ، و لكنه أقنعها بأنه لن يتمكن من أداء مهمته المنتظرة إلا إذا أُعطى الصلاحيات المطلقة التي طلبها . (١)

فتمت تلبية شروطه و أعطيت له القيادة العليا (سردار أكرم) و أطلقت يده في اختيار موظفى الدولة ، كما مُنح سلطات واسعة للأخذ على أيدى أعداء الدولة في الداخل و الخارج .

تولى "محمد كوبريللى "ذلك المنصب سنة ١٦٥٦م ، و يطلق عليه المؤرخـون كوبريللى الأول ، وما لبث أن شعر الجميع بقسوته و بطشه وحزمه ، فقد حكـم البلاد بيد من حديد ، ووقف موقفاً حازماً من الإنكشارية و السباهية و الطوبجيـة ـوهم جنود سلاح المدفعية – و غيرهم من أفراد أسلحة الجيش و قضى على نزعة الاستخفاف بالأوامر العسكرية و النزوع إلى التمرد التي تفشت بينهم .

فألقى القبض على ستين من زعمائهم و أمر بذبحهم ثم ألقى بجثـثهم في ميـاه البسفور كما أمر بإعدام بطريرك الكنيسة اليونانية في إستانبول لأنه كـان علـى إتصال دائم بحاكم "والاشيا" الذي أعلن عصيانه للدولة العثمانية .

و رغم هذه القسوة ضد الخارجين و المتمردين إلا أنها أعادت النظام إلى صـفوف الجيش و الأمن للبلاد و النزاهة إلى أجهزة الدولة بعدما تفشت الرشوة و المحسوبية في تولى الوظائف . (٢)

---

(١) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص٥٠١،٥٠٠ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، مرجع سابق ، ص٧٩٠ ؛ أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، جـ١ ص ٥٤ .

كمانجح في إنعاش الحالة المالية ، فأمر بتخفيض المرتبات ، و أخذ كثيراً من خزانة السلطان الخاصة،وحل الأوقاف ،وقلل الموارد الخاصة بعلماء و مشايخ الدين .(١)

وفى السياسة الخارجية نجح "محمد كوبريللى" في استعادة هيبة الدولة و سيطرتها على المناطق التي خرجت عليها فقاد عدة حملات تأديبية في شمالى البلقان لتأديب حكام والاشيا و مولدافيا و ترانسلفانيا فعزلهم و عين مكانهم حكاماً آخرين وفرض عليهم جزية سنوية .

ثم اتجه "محمد كوبريللى" لاسترداد جزر تندوس و ساموتراس و ليمونس في بحر إيجه و التي تشرف على مدخل الدردنيل ، و كان البنادقة قد استولوا عليها وحكموا في خطوط الملاحة البحرية التي كانت تصل إستانبول بموانىء الحوض الشرقى للبحر المتوسط و امتنع وصول الغلال إليها عن طريق البحر المتوسط .

مما ترتب عليه ارتفاع الأسعار في العاصمة و ازداد الموقف سوءًا حين انتصر الأسطول البندقى على الأسطول العثماني في معركتين متعاقبتين في ٢مايو ، ١٧يوليو سنة ١٦٥٩م ، فتدخل محمد كوبريللى باشا ليوقف هذا التدهور في وضع الأسطول وليعيد سيطرة الدولة على تلك المناطق الهامة و في البداية عاقب العناصر المتهاونة في السلاح البحرى العثماني ، وأعاد الثقة لرجاله في أنفسهم وأثار فيهم روح الاستبسال و سرعان ما أثمرت جهوده و تمكن الأسطول العثماني في ٣١ أغسطس سنة ١٦٥٩ م من استرداد جزيرة تندوس ، ثم تساقطت سائر الجزر الأخرى تباعاً .

وفى علاقته مع النمسا و فرنسا استخدم "محمد كوبريللى" سياسة الشدة والتهديد، وكانت العلاقات العثمانية النمساوية تمر بمرحلة دقيقة بسبب تنافس كل منهما للسيطرة على إقليم ترانسلفانيا ، و صرح كوبريللى باشا لسفير النمسا في إستانبول بأنه لايسمح بأى نشاط للنمسا في ذلك الإقليم . (٢)

---

(١) كارل بروكلمان ، مرجع سابق ، ص ٥١٧ .

(٢) روبير مانتران ، مرجع سابق ، ص ٣٦٦، ٣٦٧ ؛ عبد العزيز الشناوي ، أوربا ، ص٧٩١-٧٩٣ .

أما عن علاقته بفرنسا فقد شابها توتر شديد لأن الأخيرة كانت تساعد قوات البنادقة في جزيرة كريت ضد العثمانيين .

إلي جانب ذلك فقد وقع في يد كوبريللي باشا خطاب سري من أحد أمراء السلاح البحري البندقي إلي "دي لاهاي" سفير فرنسا في إستانبول ،ولما سأل محمد باشا السفير عن مضمون الخطاب لم يجبه ،واستدعاه فاعتذر وأرسل ابنه ، فاعتقله محمد باشا مقابل فك شفرة الخطاب ومعرفة مضمونه ،واستغرق ذلك فترة من الوقت مما أغضب سفير فرنسا ولكن كوبريللي باشا لم يأبه لذلك .

وتعدي الأمر أكثر من ذلك حين أمر باعتقاله لرفضه دفع المبالغ المستحقة للدولة علي التجار الفرنسيين عن أجور شحن السفن ،ولم يطلق سراحه إلا بعد سداد تلك المبالغ وحينما أرسلت فرنسا مبعوثاً للسلطان محمد الرابع يطلب منه الاعتذار عن اعتقال السفير وإقالة كوبريللي باشا ،لم تسمح دوائر القصر لهذا المبعوث بمقابلة السلطان ، بل قابله الصدر الأعظم بكل تعاظم وكبرياء .

أما أهم أعماله الداخلية فقد أمر ببناء عدد من المنشآت الدينية ، أهمها مسجد "يني والدة"، وهو أول مسجد يُبني في إستانبول بعد مسجد السلطان أحمد ، ومن أعماله أيضاً إصلاح دفاعات الدردنيل . (١)

وفي أكتوبر ١٦٦١م ألم بكوبريللي باشا مرض شديد ،وأحس بدنو أجله فاستشاره السلطان محمد الرابع فيمن يخلفه في منصبه فأشار إلي ابنه "أحمد" لثقته بقدراته في تحمل أعباءومسئوليات الحكم ،وتوفي ،بعد ما أصلح كثيراً من الشئون الداخلية والخارجية للدولة ،وأعاد لها هيبتها وقوتها ، وأنقذها من شفا هاوية . (٢)

---

(١) عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق ، ص٧٩٢،٧٩٣ ؛ روبير مانتران ، مرجع سابق ص٣٦٦ .

(٢) محمد فريد ، مرجع سابق ، ص٢٩٤؛ يلماز أوزتونا، مرجع سابق ، ص٥٠٢.

وقد أخذ البعض عليه قسوته وصرامته، وكثرة من أعدمهم من المدنيين أوالعسكريين، ولكن في مثل تلك الفترات الصعبة للدولة كان لابد من سياسة حازمة تخيف المتهاونيين والمتمردين ، إضافة إلي أن الذين أمر بإعدامهم قد ارتكبوا أعمالاً تستحق ذلك الجزاء كالخيانة مثلاً، حتي يكونوا عبرة لغيرهم .

أحمد باشا كوبريللي

ولد أحمد باشا كوبريللي سنة ١٦٣٥م،ونشأوتعلم في إستانبول ،حيث نال قسطاً وافراً من التعليم والثقافة في مختلف مدارسها ، فدرس الفقه والفلسفة والتاريخ والأدب ، وتخرج من المدرسة العليا ،ثم التحق بالإدارة وأصبح والياً علي أرضروم ثم علي دمشق ، فأصلح أمورها وقضي علي الفتن والخلل ببلاد الشام ، وأضعف نفوذ الدروز وعائلتي "معن "و "شهاب" .

واتصف أحمد كوبريللي بالشجاعة والإقدام وحسن الرأي وأصالة التدبير ، وكان محباً للشعر والأداب ،فبسط رعايته علي الشعراء والفنانين ، وأطلق عليه المؤرخون "كوبريللي الثاني" ،وكان عمره عندما تولي ذلك المنصب ستة وعشرين عاماً ، وفاق أباه بالكفاءة والتوفيق . (١)

واصل سياسة والده في إصلاح شئون الدولة الداخلية فاستعمل الحزم مع مسئولي الإدارات المختلفة ،واهتم بالجيش وضرب علي أيدي المتهاونين ، وأمده بأحدث الأسلحة ،وكانت وزارته من أطول الوزارات عمراً في التاريخ العثماني،وتمتع بسمعة طيبة ،وأشاد المؤرخون بخصاله كرجل دولة وراع للشعراء والكتاب والفنانين ،ويرجع إليه الفضل في إنشاء المكتبة التي تحمل اسم كوبريللي،والتي أصبحت أهم المكتبات التاريخية في استانبول .

---

(١) روبير مانتران ،مرجع سابق ، ص ٣٦٨؛ عبد العزيز الشناوي ، أوربا ، مرجع سابق ، ص٧٩٣؛ محمد كرد علي، مرجع سابق ،ج٣ ص٢٧٢؛ يلماز أوزتونا، مرجع سابق،جـ١،ص٥٠٥؛محمد جميل بيهم ،مرجع سابق، ص٢٨٨.

وخلال حكمه برزت قضية "ساباتاي زيفي"اليهودي الذي أعلن سنة ١٦٦٦م أنه المسيح الجديد ،ونجح في اجتذاب عدد كبير من المشايعين له في الدولة وخارجها،فحبسه أحمد باشا في استانبول ،ثم نفاه إلي أدرنة ثم ألبانيا حيث مات في بيرات سنة ١٦٧٥. (١)

أما في سياسته الخارجية ،فقد قاد كثيراً من الحملات العسكرية لإعادة سيطرة الدولة علي كل جزء من أراضيها ،ورد أعدائها علي أعقابهم منهزمين ،وقد بدأ بالنمسا وكانت العلاقات العثمانية النمساوية تمر بمرحلة من التوتر بسبب إقليم ترنسلفانيا حيث كانت الدولتان تسعيان للسيطرة الكاملة عليه . (٢)

وكانت النمسا تدعم بشكل دائم حاكم ترانسلفانيا " ميشيل أبافي " الذي بدأ يعلن رفضه لسيادة العثمانيين ، فأرسل أحمد باشا سنة ١٦٦١م جيشاً إلى ترانسلفانيا والمجر ولكن هذا الجيش مُنى بهزيمة أليمة ، واضطر أحمد باشا أن يقود بنفسه جيشاً آخر سنة ١٦٦٣م ، تكون من نحو (١٢٢,٠٠٠) واجتاز نهر الدانوب ، وأحرز عدة انتصارات كان لها دوى هائل في أوربا ، أعاد إلى الأذهان سياسة السلطان سليمان القانوني ، وتقدم داخل الأراضي النمساوية حتى وصل إلى قلعة " نيوهزل " في شرق النمسا ، وهي قلعة منيعة استعصت على كبار العسكريين من قبل ، قام بحصارها حصاراً شديداً محكماً ، استمر ستة أسابيع ، مما اضطر قائد حامية القلعة إلى طلب الاستسلام في ٢٨ سبتمبر سنة ١٦٦٣م ، ووافق الصدر الأعظم على ذلك بشرط جلاء الحامية النمساوية عن القلعة بغير سلاح ، ولا ذخائر ، مقابل عدم التعرض لأحد منهم بأي ضرر أو أذى . (٣)

---

(١) روبير مانتران ، المرجع السابق ، ص٣٦٩ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، أوربا ، مرجع سابق ، ص٧٩٣ .

(٣) مجموعة من الباحثين ، دائرة سفير للمعارف ، جـ٥ ، ص ٣٩٠ ؛ عبد العزيز الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٧٩٣،٧٩٤ ؛ محمد فريد ، مرجع سابق ، ص٢٩٥.

ثم تقدم الجيش العثماني متوغلاً في إقليمي مورافيا * وسيليزيا * في وسـط أوربـا وأحرز انتصارات رائعة وأسر الآلاف .

كانت لهذه الانتصارات نتائج خطيرة ، حيث زاد هلع أوربا عامـة ، والنمسـا خاصة، وباتت عاصمتها " فيينا " مهددة بالسقوط في أيدي العثمانيين ، مما دعـا ملك النمسا "ليوبولد الأول " (١٦٤٠ – ١٧٠٥م) إلى طلب وسـاطة البابـا " إسكندر السابع " للحصول على دعم ملك فرنسا " لـويس الرابـع عشـر " (١٦٣٨-١٧١٥م) ، وبالفعل دعا البابا إلى تكوين تحالف صليبي ، وأخذ يؤلب أوربا على الأتراك العثمانيين ويعمل على إشعال الروح الصليبية بين شعوب أوربا ، وتكون هذا الحلف وكان "لويس الرابع عشر" أول من استجاب لنداء البابا .

لم يثن هذا التحالف عزيمة "أحمد باشا كوبريللي" ، فتقـدم بجيشـه الكـبير ، واستولي على موقعين هامين على نهر الدانوب هما "سارفار" و"كومورن الصـغرى" في الجنوب الشرقي من فيينا ، وفرت قوات التحالف الصليبي وعبروا نهـر " راب " فعبر أحمد باشا وراءهم وقاتلهم قتالاً شديداً في أول أغسطس سنة ١٦٦٤م عنـد مدينة " سان جوتار " الواقعة في الجانب الغربي من النهر ، وأحرز الجيش العثماني في البداية انتصاراً رائعاً ثم صمدت القوات الفرنسية والنمسـاوية ، ولم يستسـلموا للهزيمة ، ولم يُكتب نصر حاسم لأي من الفريقين . (١)

---

* منطقة في تشيكوسلوفاكيا (سابقاً) سميت على اسم مجموعة الأنهار المعروفة باسم مورافا .

* سيليزيا : منطقة بوسط أوربا يخترقها نهر أودير وكانت جزءًا من بولونيا .

(١) دائرة سفير للمعارف ، مرجع سابق ، ص٣١٠ ؛ عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق ، ص ٧٩٩،٧٩٤ ؛ محمد فريد ، مرجع سابق ، ص٢٩٧ .

وكان من نتيجة تلك المعركة توقيع معاهدة صلح بين الطرفين في ١٠ أغسطس سنة ١٦٦٤م ، أهم بنودها :

جلاء القوات العثمانية والقوات النمساوية وحلفائها عن إقليم " ترانسلفانيا " واعتراف الطرفين بالأمير " أبافي "حاكماً عليها تحت السيادة العثمانية ، وأن يقوم بدفع جزية سنوية إلى الباب العالي .

وتقسيم بلاد المجر بين الدولتين العثمانية والنمساوية ، بحيث يكون للنمسا ثلاث ولايات ، وللدولة العثمانية أربع ولايات ، مع بقاء حصن " نوفيجراد " (شمالي بودابست في المجر) و " نيوهزل " تابعين للدولة العثمانية . (١)

وهكذا خرجت الدولة العثمانية من هذه المعركة بمكاسب عدة بفضل سياسة أحمد باشا كوبريللي .

ثم وجه " أحمد باشا" اهتمامه لمشكلة أخرى أكثر أهمية وهي مشكلة جزيرة كريت الواقعة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وقد بسطت جمهورية البندقية سيطرتها عليها منذ القرن الثالث عشر ، وكانت تمثل لها أهمية عظمي ، فقد كانت مركزاً للتبادل التجاري بين البندقية وسائر جزر البحر المتوسط وبلاد الشام ومصر ، (٢) وقد اتخذتها البندقية مركزاً لبسط نفوذها السياسي والاقتصادي في بلاد الشام وكانت أرضها تمتاز بوفرة إنتاجها الزراعي ، بيد أن سكانها كانوا من اليونانيين الأرثوذكس ويكرهون المذهب الكاثوليكي الذي تدين به البندقية ، إلى جانب أن البنادقة استغلوها وفرضوا على أهلها ضرائب باهظة ، وكثيراً ما قام أهل الجزيرة بثورات ضدهم . (٣)

---

(١) دائرة سفير للمعارف ، مرجع سابق ، ص٣٩٠ .

(٢) شارل ديل ، البندقية ، مرجع سابق ، ص٢١١ .

(٣) زينب عصمت راشد ، كريت تحت الحكم المصري ، القاهرة ، الجمعية المصرية التاريخية ، ١٩٦٤م ، ص ٢٧-٣٥ .

وكان العثمانيون قد بسطوا نفوذهم على جزيرة قبرص وأخذوا يتطلعون لضم كريت أيضاً خاصة وأن فرسان "الاسبتارية "أو القديس يوحنا الموجودين بجزيرة مالطة كانوا يهاجمون السفن العثمانية ويأسرون من فيها ثم يختبئون في ثغور جزيرة كريت ، ففي سنة ١٦٤٤م ، وقعت في أيديهم سفينة عثمانية تحمل حجاجاً مسلمين فقتلوا بعضهم وأسروا الباقي و منهم عدد من الشخصيات البارزة في الدولة العثمانية وكانت تلك الحادثة سبباً كافياً لغزو الجزيرة .

وتحركت حملة عسكرية كبيرة من إستانبول في إبريل سنة ١٩٤٥م ، متوجهة إلى كريت واقتحمت خليج "جوجوا" في يونيو ١٩٤٥م ، وحاصروا مدينة "خالية "وهى إحدى المدينتين الحصينتين في الجزيرة ، وقاومت الحصار خمسين يوماً ثم استسلمت في ١٧ أغسطس ١٩٤٥م . (١)

وأرادت جمهورية البندقية أن تنتقم من الدولة العثمانية ، فقامت بإثارة الألبانيين وسكان الجبل الأسود ضدها ، كما هاجمت ثغور المورة حتى تشتت العثمانيين ، ثم احتلوا جزيرة تندوس الواقعة في مدخل الدردنيل ، وكان هدفهم من كل ذلك إثناء العثمانيين عن أخذ كريت .

ولكن العثمانيين أصروا على موقفهم في الاستيلاء عليها ، ووصلوا إلى عاصمتها "قندية "سنة ١٦٤٨م ، التي استبسلت في مقاومتها ، وجاءها الإمدادات العسكرية من فرنسا وغيرها من دول أوربا ، فاستمر هذا الحصار ما يقرب من عشرين عاماً على فترات متباعدة حتى كانت فترة وزارة أحمد باشا كوبريللي .

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، مرجع سابق ، ص٨٠٢-٨٠٤ ؛ شارل ديل ، مرجع سابق ، ص ٢١١ .

ذهب أحمد باشا إلى جزيرة كريت في مايو سنة ١٦٦٧م للإشراف على حصارها وكان العثمانيون يشتاقون لفتحها ، وأعلن أحمد باشا " إننا نبغي قندية (عاصمة كريت) حتى لو دامت الحرب مائة عام " ، في تلك الأثناء حدث شقاق بين الفرنسيين والبنادقة في الدفاع عن الجزيرة وأصاب حاميتها التعب واليأس من طول الحصار ، حتى استسلمت في ٥ سبتمبر سنة ١٦٦٩م ، وتم عقد معاهدة في ٢٧ سبتمبر من نفس العام جاء في نصوصها التالي :

أن يتسلم العثمانيون جزيرة كريت ، وتتنازل البندقية عن سيادتها عليها على أن تحتفظ بثلاث قلاع شرط ألا تستخدمها في غير المعاملات التجارية وأن تحتفظ حامية كريت بمدافعها وأسلحتها عند خروجها ولا تُسلّم منه شيئاً للعثمانيين وتعهد أحمد باشا بالحفاظ على حقوق وحرية أهالي المدينة ، وكان حازماً مع جنوده ، فلم يسمح بأن ترتكب أي أعمال تسيء إلى أهالي المدينة . (١)

وقضى أحمد باشا شتاء ١٦٦٩-١٦٧٠م في كريت وأشرف على إصلاح ما فسد بها – من جراء الحروب – من قلاع وأسوار وأبنية ، وأعاد إنشائها من جديد. وعندما عاد إلى إستانبول استقبله السلطان محمد الرابع بتلطف لم يسبق له مثيل ، وقد خرج إليه وهو على ظهر جواده خارج أدرنه ،(٢) احتفالاً بعودته ، وبنصره ، وفتحه لهذه الجزيرة المنيعة ، التي حوصرت من قبل ثلاث مرات ولم تفتح إلا على يد أحمد باشا كوبريللي .

ثم حقق أحمد باشا نصراً جديداً ، في منطقة القوقاز (جنوبي روسيا) ، وكانت هذه المنطقة قد دخلت في حماية الدولة العثمانية ، ولكن بولندا والنمسا وفرنسا

---

(١) شارل ديل ، المرجع السابق ، ص ٢١٣ ، ٢١٤.

(٢) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص ٩١-٩٥ .

كانوا يحاولون السيطرة عليها ، وكانت أوكرانيا (القرم) مجال نزاع بين روسيا وبولندا ، فاستنجد أهلها بالعثمانيين ، فأرسل أحمد باشا عدة حملات من ١٦٧٣-١٦٧٦م ، وفتح العديد من هذه البلاد ، ولقن بولندا وحلفاءها درساً ، مما اضطر ملك بولندا لطلب الصلح مع العثمانيين وعقدت معاهدة بينهما سنة ١٦٧٦ (١) ، سميت معاهدة "زورافنو" تم بمقتضاها تخلي البولنديين عن ادعاءاتهم في أوكرانيا ، ودخلت مقاطعة بودوليا الأوكرانية في حوزة العثمانيين ، وأصبح سكان القوقاز رعايا للدولة العثمانية(٢) .

كانت تلك هي أهم أعمال أحمد باشا العسكرية ، أما سياسته الخارجية فلم تكن أقل نجاحاً من سياسته العسكرية ، ففي علاقته بفرنسا ، أصر أحمد باشا على عدم منح الفرنسيين الامتيازات التجارية ، وحرمانهم من المرور ببضائعهم من السويس بمصر إلى الهند (٣) ، وذلك عقاباً لفرنسا على مساعدتها العسكرية لجمهورية البندقية .

وقد حاول الفرنسيون مراراً تجديد هذه الامتيازات ، وأرسلوا مبعوثاً برفقة أسطول فرنسي في محاولة لإرهاب الصدر الأعظم وتهديده بالحرب ، ولكن احمد باشا أصر على موقفه وقال لذلك المبعوث : إن تلك الامتيازات لم تكن إلا منحاً وهبات من السلطان وليست حقوقاً إلزامية يجب تنفيذها ، وأوضح له أنه إن لم يقنع بهذه الإجابة فما عليه إلا الرحيل ، فاشتاط ملك فرنسا غضباً ، وقرر الحرب على الدولة العثمانية ، ولكن وزيره " كولبير " أقنعه بأنه ليس من مصلحة فرنسا خوض غمار حرب لا يمكن معرفة نتائجها ، وظل كولبير يعالج الموقف بين الدولتين بحكمة حتى تم التوصل سنة ١٦٧٣م إلى تجديد الامتيازات مع تخفيض الرسوم الجمركية

---

(١) محمد جميل بيهم ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

(٢) بول كولز ، مرجع سابق ، ص ١٨٩ .

(٣) محمد فريد ، مرجع سابق ، ص ٢٩٨ .

للتجار الفرنسيين ومنحت فرنسا حق حماية المراكز الدينية الكاثوليكية في القدس.(١)

وفى أواخر حياته كان "أحمد باشا " يؤثر الجلوس مع أصدقائه في أدرنه وكان يحضر مجالس العلماء والشعراء ، حيث كانت له مكتبة ضخمة أشرت إليها من قبل، وتوفي أحمد باشا في نوفمبر سنة ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م ، بعد ما قضى في منصبه خمس عشرة سنة حافظ فيها على قوة الدولة داخلياً وخارجياً ، وكان لأعماله أثر في تحول الألبانيين تحولاً جماعياً للإسلام خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر . (٢)

مصطفى كوبريللي باشا

بعد موت أحمد فاضل باشا ، خلفه في منصبه الصدر الأعظم ،" قره مصطفى ميرز يفونلو " في نوفمبر سنة ١٦٧٦م ، وهو ليس من عائلة كوبريللي ، ولكنه كان قريب الصلة بهم ، واستمر في منصبه حتى سنة ١٦٨٣م ، وشهدت الدولة في فترة توليه مشاكل مالية داخلية بسبب الضرائب الاستثنائية التي فرضها .

أما على الصعيد الخارجي ، فلم يحافظ على هيبة الدولة ومكانتها ، بعد فشل حصار "فيينا " في سبتمبر سنة ١٦٨٣م ، وانتهي الأمر بمقتله في ديسمبر من نفس العام ، وخلفه " قرة إبراهيم باشا " ولم يكن أسعد حظاً منه ، بل ازداد الحال سوءاً حيث كثرت فتن وتمردات الإنكشارية الذين نجحوا في عزل السلطان محمد الرابع ، وأحلوا محله أخاه "سليمان الثاني " في نوفمبر سنة ١٦٨٧م وقتلوا " قرة إبراهيم باشا " ونشروا الفوضى في العاصمة ، واستغلت النمسا ذلك الوضع فاستولت على مدن بلغراد ونيش وسمندرية ، واستولت البندقية على المورة .

---

(١) مجموعة من الباحثين ، دائرة سفير للمعارف ، جـ٥ ، ص ٣٩١ .

(٢) محمد فريد ، مرجع سابق ، ص ٢٩٥ ؛ بول كولز ، مرجع سابق ، ص ١٨٩.

وأمام ذلك التدهور الداخلي والخارجي ، قام السلطان بتعيين " مصطفى كوبريللي " باشا شقيق أحمد باشا كوبريللي في أكتوبر سنة ١٦٨٩م . (١)

لم يكن مصطفى كوبريللي باشا ، أضعف همة من والده وأخيه ، بل كان مثلهم في علو الهمة ، ومضاء العزيمة ، وحسن الإدارة والاستقامة ، كما كان شجاعاً ، حارب الفساد في الدولة ، وضرب على أيدي المزورين والمرتشين وقضاة السوء ، وصادر أموال اللصوص ، ورفع الضرائب الزائدة على رعايا الدولة ، وأمر ألا يؤخذ منهم إلا القدر المفروض عليهم من الجزية أو الخراج .

وفى إطار خطواته لإصلاح الجهاز الإداري للدولة ، قام بتعيين رجال إدارة أكثر كفاءة ونزاهة ، وفرض الرقابة على موظفي الولايات عن طريق تكوين مجالس للأعيان .

وأولي مصطفى باشا الجيش عناية خاصة ، فدفع رواتب الجند المتأخرة من مال الأوقاف ، ودرّبهم وسلّحهم بأحدث الأسلحة ، وبث فيهم روح النظام والتفاني في خدمة دينهم ووطنهم ، فتحسنت أحوال الجيش وعاد لحالته الجيدة .

وقاد مصطفى باشا حرب النمسا سنة ١٦٩٠م واسترد مدن نيش وسمندرية وبلجراد، كما عُرف مصطفى باشا بتسامحه الشديد مع رعاياه المسيحيين ، فسمح لهم ببناء ما تهدم من كنائس ، وعاقب كل من تعرض لهم في إقامة شعائرهم ، وبذلك استمال قلوبهم ، (٢) وكان من نتيجة ذلك أن ثار أهالي المورة الأرثوذكس ضد البنادقة الكاثوليك لمنعهم من أداء شعائرهم المذهبية الأرثوذكسية ، وإجبارهم على اعتناق المذهب الكاثوليكي .

---

(١) روبير مانتران ، مرجع سابق ، ص ٣٧٥،٣٧٦ ؛ علي سلطان ، مرجع سابق ، ص ٢٢٤ .

(٢) محمد كرد على ، مرجع سابق ، ص ٢٧٢ ؛ روبير مانتران ، مرجع سابق ص ٣٧٦،٣٧٧ ؛ محمد فريد بك ، مرجع سابق ، ص ٣٠٥ ؛ السيد محمد يونس ، مرجع سابق ، ص٨٢ .

فثار هؤلاء ضدهم ، ودخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية طائعين مختـــارين لعـــدم تعرضها لديانتهم .

واستشهد" مصطفى باشا كوبريللي " في يوليو ، وقيل أغسطس ســـنة ١٦٩١م ، أثناء إحدى معاركه مع النمسا ، (١) لاستعادة مدينـــة "بـــودين " وهـــي معركـــة " سالانكامين " ، وخلفه الصدر " محمد باشا الماس " الـــذي لا ينتســـب لعائلـــة كوبريللي، وفي عهده تم إحراز نصر على البنادقة ، ولكن الروس اســـتولوا علـــى مدينة أزوف (في أوكرانيا) سنة ١٦٩٦م ، ثم تعرض الجيش العثماني لهزيمة قاسية في " زينتا " على حدود صربيا والمجر في مواجهة مع الجيش النمساوي في ســـبتمبر سنة ١٦٩٧م ، ومات الصدر محمد باشا في ساحة المعركة ، وعلـــى إثرهـــا أمـــر السلطان مصطفى الثاني(١٦٩٥-١٧٠٣م)بتعيين"حسين باشـــا عموجـــه زاده" وهو أحد أفراد عائلة كوبريللي (ابن أخت محمد باشا كوبريللي) .(٢)

وكان على نهج أخواله في حسن السياسة وقوة الإرادة ، والشجاعة (٣) ، ونجـــح حسين باشا في إيقاف زحف القائد النمساوي " أوجين " صاحب الانتصار الســـابق في زينتا والذي مد زحفه حتى استولي على البوسنة ، ولكن حسين باشا تصدي له ، وأجبره على التقهقر حتى أخلي البوسنة مرة أخرى .

ووجه حسين باشا اهتمامه لإصلاح الشئون الداخلية خاصة الماليـــة والأحـــوال العسكرية ، وترك للمسيحيين كثيراً من الأموال المتأخرة عليهم ، كسباً لهم وحفاظاً عليهم حـــتى لا يميلـــون إلى قـــوى خارجيـــة أو يتـــآمرون ســـراً مـــع أعـــداء الدولة العثمانية.(٤)

---

(١) محمد فريد ، مرجع سابق ، ص ٣٠٥-٣٠٧ .

(٢) روبير مانتران ، مرجع سابق ، ص ٣٧٧ .

(٣) محمد كرد على ، مرجع سابق ، جـــ٣ ، ص٢٧٢ .

(٤) محمد فريد ،نفس المرجع ، ص ٣٠٩-٣١٠ .

ثم أنهى معاركه مع النمساويين بعقد صلح كان الطرفـان يسـعون إليـه ، وتم في ٢٦ يناير توقيع صلح " كارلوفيتز " مع النمساويين والبنادقة والبولـونيين ، ثم وقع عليه الروس في ١٥ يوليو سنة ١٧٠٠م ، (١) واستمر حسين باشا في منصبه حتى سبتمبر سنة ١٧٠٢ م . (٢)

وكان هذا الرجل هو أخر صدر أعظم من عائلة كوبريللي الألبانيـة الأصـل ، صاحبة الإنجازات الكبيرة في الدولة العثمانية في أوقات الشدائد التي كانت تلحـق بها من حين لآخـر ،ولـولاهم لانهـارت الدولـة قبـل قـرن ونصـف مـن معاهدة كارلوفيتز.(٣)

وقد أجمع المؤرخون على أهمية الدور الذي لعبته هذه الأسرة في تـاريخ الدولـة العثمانية ، بما تمتعوا به من صفات وخصال أهلتهم للقيام بهذا الدور ، وتميـز كـل واحد منهم في أدائه ، وقد وصفهم جميعاً أحـد المـؤرخين الأوربـيين قـائلاً : إن الوزير الأول منهم لقب بـالكبير ، والثـاني بالسياسـي ، والثالـث بالصـالح ، والرابع بالحكيم.(٤)

ولعل الذي ساعد أفراد هذه الأسرة في الظهور بهذا الشكل ، أنهم تولوا مقاليد الأمور في الدولة في فترات شديدة الضعف ، حتى ظن أعداؤها أنها علـى وشـك السقوط فأتى هؤلاء ليرفعوا الدولة إلى مرتبة أستبدلت فيها بسرابيل الضعف لباس الهيبة والجلال . (٥)

وقد نجح هؤلاء في تحسين أحوال الدولة بنفس الإمكانيات المادية والبشريةالتي عجز

---

(١) روبير مانتران ، مرجع سابق ، ص ٣٧٨ .

(٢) محمد فريد ، مرجـع سـابق ، ص ٣١٠ ؛ أكمـل الـدين إحسـان ، مرجع سابق ، ص٦٦٠،٦٥٩ .

(٣) محمد جميل بيهم ، مرجع سابق ، ص٢٩١ .

(٤) محمد كرد علي ، مرجع سابق ، جـ٣ ، ص٢٧٢ .

(٥) محمد جميل بيهم ، نفس المرجع ، ص٢٨٧ .

غيرهم عن استغلالها ، وإنما هو في الدرجة الأولي توفيق الله لهم بما منحهم من قدرات عقلية وبدنية ، وصفات حميدة أهمها الإخلاص ، والجدية ، وقوة الإرادة والعزيمة .

وظل تواجد الألبان في منصب الصدر الأعظم أو رئاسة الوزراء حتى نهاية الدولة العثمانية ، ففي سنة ١٩٠٣م تولي هذا المنصب أحدهم وهو " فريد باشا " (١) ، الأفلوني في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني" و لعب دوراً كبيراً في مجريات الأحداث آنذاك خاصة المتعلقة بمنطقة البلقان ، واستمر في منصبه حتى سنة ١٩٠٩م حيث عُزل منه ، ثم قام حزب " الحرية والائتلاف " – الذي كان يشكل قوة سياسية جديدة في تركيا بنهاية الحرب العالمية الأولي – بتعيين فريد باشا لمنصب الصدر الأعظم في مارس سنة ١٩١٩م ، وأهم ما قام به هو حضوره مؤتمر الصلح بباريس في يوليو من نفس العام (٢) ، لكن سرعان ما استقال في أكتوبر من نفس العام أيضاً. (٣)

أما أخر الشخصيات الألبانية التي تولت منصب رئاسة الوزراء في الدولة العثمانية فكان " أحمد عزت باشا " الذي شغل عدة مناصب قبل توليه هذا المنصب منها وزارة الحربية ، ثم قائداً للجيش العثماني ثم والياً على اليمن . (٤)

وقد شارك بدوره في الأحداث السياسية والعسكرية التي مرت بها الدولة العثمانية في نهايتها ومنها الحرب العالمية الأولي،ولم يكن من المؤيدين للدخول في تلك الحرب. وفى ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٨م قام بتشكيل أول حكومة تركية بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب .

---

(1) Machiel Kiel , Op , Cit , p. 22 .

(٢) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، ص ١٢٤،١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) محمد فريد ، مرجع سابق ، ص٧٤٩ .

(٤) رجب يشار بويا ، الألبانيون – الأرناؤوط – والإسلام (القاهرة : دار السلام ٢٠٠٤م) ، ص٦٠ .

وهى الوزارة التي قامت بالمفاوضات مع الإنجليز على شروط الهدنة (١) ، ثم استقال أحمد عزت باشا في نوفمبر سنة ١٩١٨م . (٢)

ثانياً : الولاة

انتقل لمجال آخر من المجالات التي ساهم فيها الألبان في إطار خدمتـهم للدولـة العثمانية وهو منصب الوالي إذ قامت الدولة بتعيين بعضهم في ذلك المنصب خاصة في الولايات العربية .

ولعل الذي جعل الدولة تأتى برجل ألباني ليتولى حكم إقليم عربي يرجـع لثقـة الدولة الكبيرة بهؤلاء وقدرتهم على حسن السياسة وإقرار الأمن في المناطق التي يناط بهم حكمها .

ومن هؤلاء " أحمد باشا الألباني " في القرن السابع عشر ، الذي عهـدت إليـه الدولة العثمانية بولاية الشام ، وكان واليها " فخر الدين المعنى " يسـعى في ذلـك وقت للانفصال عن الدولة ، فنظرت إليه نظرة الخارج عن طاعتها ، وحاولت رده عن ذلك أكثر من مرة فلم تستطع ، فأرسلت أحمد باشا الأرنـاؤوطي علـى رأس جيش إليه فهزمه في معركة بوادي اليم ، وتولي حكم ولاية الشـام فـأقر الأمـن والنظام بها . (٣)

كما كان لأحمد باشا دور كبير في محاربة الصفويين وصدهم عن العراق حتى قتـل في إحدي معاركه معهم . (٤)

أما أبرز من شغل منصب الوالي من أصل ألباني فكان "محمد علـى باشـا "، والي مصر ومؤسس نهضتها الحديثة .

---

(١) محمد فريد ، المرجع السابق ، ص ٧٢٢ .

(٢) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، ص ١٤٠،١٣٩ .

(٣) محمد كرد على ، مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٢٦٢ .

(٤) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

وتاريخ محمد على وأعماله أوسع وأكبر من أن نذكره في صفحات قليلة كهذه ، وقد وضعت المؤلفات العظيمة عن حياته وتاريخه ، وأكتفي بذكر نبذة بسيطة عن أبرز أعماله .

ولد محمد على سنة ١١٨٢هـ / ١٧٦٩م في مدينة قوله (الألبانية) لأبوين فقيرين ، وتوفى والده وكان اسمه إبراهيم ، فقام عمه طوسون بتربيته حتى بلغ أشده، فزوجه ابنته ، وعندما توفى عمل "محمدعلي" بتجارة الدخان ، وكان يتمتع بصفات عديدة أهمها الشجاعة وعلو الهمة وحسن التدبير ودقة النظر في الحكم على الأمور ، والدهاء .

جاء محمد على إلى مصر سنة ١٨٠١م مع القوة العسكرية التي أرسلتها الدولة العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر بالاشتراك مع قوات إنجليزية ، وشهد محمد على معركة أبي قير البحرية ، وقد أبدي من الشجاعة والإقدام في المعركة ما جعله ينال إعجاب والي مصر.

وقد شهدت مصر بعد خروج الحملة الفرنسية فترة من الاضطرابات ، والصراع بين السلطة العثمانية من جهة ، وبين بكوات المماليك من جهة ثانية ، وبين المماليك بعضهم البعض من جهة ثالثة ، إلى جانب أعمال الشغب والقلاقل التي كانت تثيرها الفرق العسكرية الموجودة وعلى رأسها فرقة الإنكشارية . (١)

نجح محمد على في تلك الفترة في التقرب إلى القوات الألبانية الموجودة ، كما تقرب إلى علماء ومشايخ الأزهر وعلى رأسهم السيد" عمر مكرم "حيث كان لهم دور كبير في الحياة السياسية في مصر في تلك الفترة ، كما كانوا أصحاب كلمة مسموعة لدى الشعب ، وقد التمسوا في "محمدعلي" الرجل المناسب لحكم مصر آنذاك فوقفوا بجواره حتى قام السلطان بتعيينه والياً على مصر سنة ١٨٠٥م .

---

(١) محمد فريد ، مرجع سابق ، ص٣٩٠ ؛ محمد رفعت ، تاريخ مصر السياسي، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٦ ، ص ٩٣-٩٧ ؛ هيلين آن ريفلين ، مرجع سابق ، ص ٣٣ .

استجابة للزعامة الوطنية بقيادة مشايخ الأزهر . (١)

وبعد اعتلاء محمد على الحكم قام بالعديد من الأعمال التي تحقق له النجاح في حكمه لمصر فتخلص من المماليك ، ثم من الزعامة الشعبية حتى لا يجد مناوئاً ورقيباً يحاسبه على تصرفاته ، وعندما خلصت له مصر ، بدأ يخطط لوضع نظام حديث للحكم اقتبس معظمه من النظم الأوربية .

وضع محمد على نفسه على رأس الجهاز الإداري والعسكري الذي شكله وتولي الإشراف بنفسه على كل ناحية من نواحي الحكم ، وعاونه عدد من الذين اصطفاهم ، ممن يتفانون في خدمته ، ويُعرفون لديه بالخبرة والذكاء والإخلاص خاصة من الترك والألبان واليونانيين والشوام والأرمن ونفر من المصريين ، كما استعان بعدد من الخبراء الأوربيين خاصة الفرنسيين ، وجعل لكل شأن من الشئون العامة ديوناً يعرض عليه ما هو مختص به في المسائل الداخلية ، ولكل ديوان ناظر يرأسه .

كانت أولي خطوات محمد على الإصلاحية في مجال التعليم لتنشئة جيل جديد من أبناء البلاد يفهمون رغبته في الإصلاح ويساعدوه على تنفيذها ، فأنشأ المدارس ، وأرسل البعثات العلمية إلى الدول الأوربية ، كما أنشأ مدارس تخصصية للطب والهندسة والزراعة والحربية والألسن وغيرها .

وفى الناحية الاقتصادية قام بعملية إصلاح زراعي فألغي نظام الالتزام ، وأمر بحفر الترع وتشييد القناطر ، وفى مجال الصناعة أنشأ المصانع واستدعى مهندسين وخبراء من الخارج فنهضت صناعات عديدة منها المنسوجات والحديد والسكر ، وغيرها . (٢)

---

(١) مصطفى محمد رمضان ، دور الأزهر في الحياة المصرية ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٢٨٦ ، وما بعدها .

(٢) عبد الحميد البطريق ، عصر محمد علي ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩م ، ص٢٥-٣٢ .

وأولى محمد على الجيش والأسطول عناية خاصة فبنى ترسانة بحرية ، وأقام مصانع للصناعات الحربية ، ولجأ إلى تجنيد المصريين فدربهم على فنون القتال الحديثة وأمدهم بأحدث الأسلحة ، فتكون لديه جيش نظامي ضم نحو مائة وخمسين ألف جندي .

أما سياسته الخارجية ، فقد أصبحت مصر في عهده دولة شبه مستقلة لها حكومة وجيش ونظام اقتصادي خاص بها ، في ظل تبعيتها للدولة العثمانية .

ثم سعى محمد على لتكوين دولة كبيرة يحكمها فضم بلاد الحجاز ثم السودان ثم بلاد الشام ، ولكن الدول الكبرى خاصة بريطانيا أوقفت مشروعه وأنزلت به هزيمة سنة ١٨٤٠م ؛ وصدر فرمان عثماني بتقليص دولته وتعيينه حاكماً على مصر فقط، فظل يحكمها حتى وفاته في ١٣ أغسطس سنة ١٨٤٩م . (١)

ومن الشخصيات الألبانية التي تولت منصب الوالي في المشرق العربي " واصو باشا " أو " واصا باشا "وكان كاثوليكي المذهب ينتمي إلى قبيلة" ميرديتا "، ولد في أشقودرة سنة ١٨٢٤م ، وعندما كبر عمل في خدمة الدولة العثمانية ، حتى قامت بتعيينه والياً على إقليم جبل لبنان خلال سنوات ١٨٨٣-١٨٩٢م ، فقام بإصلاحات كثيرة في الإقليم فأنشأ الطرق والجسور ، وأحسن تنظيم مساكن الجند (مخافر) .

ورغم أن لبنان شهدت في عصره بعض مظاهر الفساد كانتشار الرشوة ، وبيع الوظائف إلا أن المؤرخين يؤكدون أن واصو باشا لم يعرف الرشوة ولم يقبل بها طول مدة حكمه ، وإنما كان السبب في ذلك صهره " كوبليان " الذي جاء معه من الأستانة .

---

(١) عبد الحميد البطريق ، مرجع سابق ، ص٣٨ وما بعدها ، وللمزيد انظر : محمد شفيق غربال ، محمد على الكبير ، أعلام الإسلام عدد (٨) ، القاهرة ١٩٤٤ م ؛ عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على)، دار المعارف ؛ عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ الجبرتي ؛ محمد فؤاد شكري ، مصر في مطلع القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٨م ، وغيرها من الكتب .

وإن كان ذلك ليس مبرراً يعفي واصو باشا من مسئوليته عما حدث ، وتقصيره في معاقبة القائمين على مثل هذه الأفعال .

وقد كان واصو باشا لطيفاً ، دمث الأخلاق ، محباً للشعر ، ويجيد نظمه ، كما عرف بعلو همته ، وشدة حزمه .

وتوفي بمرض القلب في بيروت سنة ١٨٩٢م ، ودفن بها . (١)

وفى عصر السلطان عبد الحميد برزت شخصيات ألبانية عديدة كان منهم إسماعيل كمال بك ، واسمه إسماعيل بن محمود بن إسماعيل ، واشتهر بإسماعيل كمال، ولد بمدينة فلورا الألبانية في ٢٤ يناير سنة ١٨٤٤م ، وينتمي لأسرة عريقة ، كان أفرادها من أصحاب التيمارات ، وفى فترة طفولته شارك أبوه وعمه في تمرد ضد الإدارة العثمانية في ألبانيا ، فتم طردهم إلى سلانيك وبها التحق إسماعيل بمدرسة ابتدائية ، ثم هيأت لهم الظروف العودة إلى ألبانيا ، فأتم تعليمه في يانينا حيث تعلم اللغة العربية واليونانية واللاتينية والفرنسية وعلوم الكيمياء والفيزياء وغيرها .

وبعد ما أنهى تعليمه الثانوي ذهب إلى إستانبول فدرس الحقوق وعمل كمترجم في وزارة الخارجية ، ثم عاد إلى ألبانيا سنة ١٨٦٦م ، وعمل مساعداً لوالي يانينا في شئون الولاية ، ثم رجع إلى إستانبول وعمل كمستشار لمدحت باشا ومن بعده السلطان عبد الحميد .

كان إسماعيل كمال من المقربين إلى السلطان ومن مستشاريه الخصوصيين فقام بتعيينه في عدة مناصب أهمها ولاية غاليبولي ثم والياً على كريت ثم على طرابلس ، وفى نهاية حكم السلطان عبد الحميد،سيطرت جمعية الاتحاد والترقي على البرلمان

---

(١) لحد خاطر ، مختصر تاريخ لبنان ، بيروت ، دار صادر ١٩١٤م ، ص ١٥١-١٥٤.

وكان عضواً فيه آنذاك فقام إسماعيل بتشكيل حزب معارض هو " حـزب الاتحـاد الحر " أو " حزب التحرير " كان هو رئيسه ، وكان هذا الحزب ينادي باللامركزية وهى دعوة مضادة للاتحاد والترقي .

وبعد ذلك عاد" إسماعيل كمال " إلى ألبانيا ، وعاصر الأحداث الجاريـة بهـا ، وأهمها الحرب البلقانية الأولي سنة ١٩١٢م ، التي دارت بـين الـدول البلقانيـة المتحالفة (صربيا ، الجبل الأسود ، بلغاريا ، اليونان) من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى ، وانتهت بهزيمة الدولة العثمانية ، وتخليها عن المناطق الشاسـعة الـتي كانت تابعة لها في البلقان ، وفى إطار هذا تمكنت القوات البلقانيـة مـن احـتلال الأراضي الألبانية بسهولة ، وارتكبت المجازر ضد الشعب الألباني .

في تلك اللحظة قامت مجموعة من الألبانيين بزعامة إسماعيـل كمـال بـإعلان استقلال ألبانيا في رقعة صغيرة حول مدينة فلورا باعتبارها الوحيدة التي لم تسقط في أيدي دول البلقان المتحالفة ، وكان ذلـك في ٢٨ نـوفمبر ١٩١٢م ، واختـار الألبانيون إسماعيل كمال رئيساً لهذه الدويلة التي قامت بمساعدة النمسا إذ كانـت تخشى زيادة نفوذ الصرب ووصولها للبحر الأدرياتيكي .(١)

ونزولاً على رغبة النمسا وافقت الـدول الكـبرى علـى اسـتقلال ألبانيـا في ١٩ يوليو ١٩١٣م وإعلانها إمارة محايدة تحت رقابة الـدول الكـبرى وتعـيين الألماني " ولهلم فون فيد " أميراً عليها . (٢)

---

(1) Ismail Qemal Vlora, Kujtime, Tirana ,1997,pp.350-504 ؛

محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، القـاهرة ، مكتبـة الأنجلـو ،١٩٨٥، ص٢٥٧ ؛ Ali Musa ,op,cit ,pp.108-110.

(٢) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص٦٧ ، ٦٨ ؛ محمـد موفـاكو ، الثقافـة الألبانيـة ، مرجـع سـابق ، ص ٣٢، ٧٣ ؛ السـيد حسـين جـلال ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

ثالثاً : القادة

نظراً لطبيعة الألبانيين الحربية ، فقد برز منهم العديد في مجـال قيـادة الجيـوش العسكرية العثمانية ،وكان أولهم في القرن الخامس عشر " شاهين باشا " الذي اعتنق الإسلام ، وكان حاكماً لإقليم يانينا في جنوب ألبانيا ، في عهد السلطان مراد الثاني فدخل في طاعته وأعلن خضوعه للحكم العثماني وشارك بعد ذلـك في الفتوحـات العثمانية في أوربا ، وأرسله السلطان مراد الثاني قائـداً لجـيش عثمـاني لمحاربـة " هونيادي " القائد العسكري المجرى . (١)

ومن أشهر القادة العسكريين القائد " زاجان " أو " زغنوس " * الـذي ترجـع شهرته لدوره الفعال في فتح مدينة القسطنطينية ، وقد عهد إليه السـلطان محمـد الفاتح بقيادة مجموعة من الجيش وحراسة الجزء المطل على منطقة " جلطـة " لمنـع وصول الإمدادات للقسطنطينية . (٢)

وأثناء عملية الحصار ، طلب " خليل باشا " من السلطان – وكان أهم وزرائه – أن ينهي ذلك الحصار ، ويرجع عن عملية الفتح حفاظاً على أرواح الجنود .

ولكن " زغنوس باشا " تدخل في الأمر ، وقام بتشجيع السلطان وتحفيزه على المضي قدماً في فتح المدينة وعدم فك حصارها قائلاً له :

" لقد أثبت بنفسك أنك الأقوى ، فقد أسقطت الجزء الأكـبر مـن أسـوار المدينـة ، وسوف تقوم بتقويض الجزء الباقي ، امنحنا فرصة القيام بهجوم كبيـر

---

(١) رجب يشار بويا ، المرجع السابق ، ص٤٩، ٥٩ ؛ السيد حسين جلال ، مرجع سابق ، ص ٢٣٥ .

* المصادر العربية تطلق عليه اسم " زغنوس " بينما تسميه المصادر الأوربيـة "زاجان " .

(٢) سالم الرشيدي ، محمد الفاتح ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

ومباغت ، وإذا فشلنا فسنفعل ما تأمرنا بتنفيذه بعد ذلك " (١) ، ثم أضاف قائلاً :
" سيدي دعنا نبادر بالهجوم ، وبمشيئة الله فإنك سوف تنتصر وتحرز مجداً عظيماً " ثم أوضح له موقف الدول المسيحية الأوربية قائلاً " إن هذه الدول منهمكة بمصالحها الخاصة ، منقسمة على نفسها ، وبينها صراعات "، خاصة الجمهوريات الإيطالية ، حيث كان الصراع على أشده بين جمهورية البندقية ودوق ميلان ، ثم قال له "وإذا استطاعت هذه الدول أن تتفق فيما بينها ، وترسل جيوشاً ، فسوف نقاتل وندافع عن ديننا وكرامتنا ، ولا يجب التفكير أبداً في الانسحاب قبل أن يتم فتح المدينة، فأنا لا أوافق على ما قاله خليل باشا ، فما أتينا إلا لنموت لا لنرجع " (٢)

ثم استطرد " زغنوس " يذكر السلطان بأعمال إسكندر الأكبر ، الذي أخضع العالم لحكمه فقال له " هل قواتك أقل مقدرة من قوات الإسكندر الأكبر ، ألم يكن يمتلك قواتاً أقل من قواتك "

كان لكلام زغنوس وقع طيب لدي السلطان وجميع الحاضرين ، خاصة العلماء أمثال الشيخ " آق شمس الدين " والشيخ " أحمد الكوراني " معلمي السلطان (٣) ، وترك السلطان كلام خليل باشا جانباً ، (٤) وأخذ برأي " زغنوس " ، و امتلأت قلوب القادة والجند حماساً ، ثم انفرد السلطان بزغنوس وقال له يجب ألا نضيع شيئاً من الوقت ، فقد دُكت الأسوار ، وُأعدت العدة للهجوم ، وتخيرنا مواقعنا ، فأذهب إلى الجنود وأخبرهم أن ساعة الهجوم قد أزفت وانظر هذا القول منهم،وارجع إلي به

---

(١) ج . ر . جونز ، مرجع سابق ، ص ١١٣ .

(٢) عبد السلام فهمي ، مرجع سابق ، ص٧٦ ؛ سالم الرشيدي ، مرجع سابق ، ص٧٦ .

(٣) ج . ر . جونز ، مرجع سابق ، ص ١٦١،١٦٠ .

(٤) عراقي يوسف محمد ، الوجود العثماني في مصر ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .

ذهب زغنوس إلى المعسكر ، وجمع الجند ، وقال لهم إن السلطان المعظم يرى أن الحصار والغارات التي دامت سبعة أسابيع كافية ، وآن الأوان للهجوم العـام ، ولا أدرى متى يصدر أمره ؟ ، لقد حانت الساعة لكي تظهروا شجاعتكم وبسالتكم في هذا الهجوم ، ولا ريب في أنه يحتاج إلى أعظم الجهد ، وأكبر التضحيات ، فهل أنتم مستعدون ؟ ولم يكد يلقى سؤاله حتى عَّبر الجنود عن استعدادهم الكامل للتضـحية بنفوسهم وهتفوا جميعاً بصوت واحد . الله أكبر .

عاد زغنوس إلى السلطان وأخبره بما رآه من الجند ، ونقل له حماسهم ، ورغبتهم في تحقيق النصر . (١)

ابتهج السلطان لما قاله زغنوس ، وقال له يجب أن يستعد الجيش الآن ، وبإذن الله سنقتحم القلعة ، فانحنى زغنوس أمام السلطان وقال له " لـتكن غزوتـك غـزوة مباركة يا سيدي ، وليسدد الله خُطانا جميعاً ويوفقنا ". (٢)

وقام زغنوس بعد ذلك بمساعدة رجاله وعدد كبير من الجنود بنقل السـفن مـن مضيق البسفور إلى القرن الذهبي بعد تعبيد الطريق لها .

ومن أعماله العظيمة في تلك المعركة أنه قام بتشييد قلعة خشبية ضـخمة تتميـز بمناعتها وارتفاعها ، الذي فاق أسوار القلعة وأبراجها العلوية ، يحتمي فيها الجنـود أثناء عملية الهجوم ، كما قام بتشييد جسر خشبي بواسـطة اسـتخدام البراميـل الخشبية التي يمكن للعثمانيين الاختباء خلفها اتقاء الإصابة والجروح ، كمـا أمـر بتصنيع سلالم خشبية بغرض تسلق أسوار المدينة من خلالها . (٣)

وكتب الله النصر لجيوش العثمانيين في هذه المعركة ، وفُتحت هذه المدينة العظيمـة المنيعة بفضل جهود وإخلاص وتفاني أمثال القائد زغنوس ، الذي بدا لنا كيف كان دوره في المعركة محورياً ومؤثراً ، وأجمعـت المصـادر التاريخيـة المعاصـرة علـى شجاعته وإخلاصـه .

---

(١) سالم الرشيدي ، محمد الفاتح ، ص٧٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص٧٨ .

(٣) ج . ر . جونز ، مرجع سابق ، ص١١٢ .

حتى المستشرقين أشادوا به فقال عنه " ج . ر . جونز " ، " ذلك الشخص الأكثـر خطورة والأعلى سلطة وشأناً في حاشية السلطان " ، (١) مع أنه لم يخف حقده عليه في كثير من المواضع في كتابـه "حصـار القسـطنطينية "، فكـان ينعتـه دائمـاً بالخائن،ولكن لم يمنعه ذلك من الاعتراف بدوره الكبير في فتح القسطنطينية .

وبعد دخول العثمانيين المدينة أرسل السلطان محمد قائده المخلـص زغنـوس إلى أهالي منطقة جلطة ، وكان الخوف قد ملأ قلوبهم من السلطان ولكن زغنوس ذهب إليهم بفرمان من السلطان أمّنهم على أرواحهم وهدّأ من روعهم ، وضمن لهم حرية العبادة وبقاء كنائسهم ، وأن تكون لهم حرية إدارتها الداخلية ، وحريـة التجـارة والتحرك في جميع أنحاء الدولة العثمانية . (٢)

ويبدو أن زغنوس قد اكتسب مكانة مرموقة لدى السلطان ، وصلت إلى الحد الذي جعل السلطان محمد يتزوج من ابنته . (٣)

بالابانـــبك

نموذج ثان من النماذج الألبانية في قيادة الجيوش العثمانية وهو من أصل ألباني، اعتنق الإسلام في وقت مبكر ، ثم انخرط في الخدمة في الجيش العثمـاني ، وعـرف بشجاعته ومهارته الحربية ، وقد أظهر أيضاً شجاعة نادرة في حصار القسطنطينية ، وكان أول من رفع العلم العثماني على أسوارها ، وبعد الفتح كافأه السلطان بمنحه لقب بك ، وجعله من قواده المقربين الذين يُوكل إليهم أصعب المهام ، لذلك عندما استعصى القضاء على قوات إسكندر بك أثناء فتوحات العثمانيين لألبانيا ، أرسـل السلطان جيشاً قوامه خمسة عشر ألفاً من الفرسان وثلاثة آلاف من المشاة ، وأسند قيادتـه إلى القائـد الجسـور بالابان بك ، لأنه أقدر القواد على معرفة طبيعة

---

(١) ج . ر . جونز ، المرجع السابق ، ص١٠٨ .

(٢) سالم الرشيدي ، مرجع سابق ، ص١٠١ .

(٣) ج . ر . جونز ، نفس المرجع ، ص٢٠٢ .

المناطق التي يحتمي بها إسكندر بك ، كما أنه يتصف بنفس صفات إسكندر كونه ألبانياً مثله من حيث الذكاء والمقدرة القتالية الفائقة .

أراد بالابان استمالة إسكندر بك دون قتال فأرسل له الهدايا الثمينة وأغراه بالوعود الخلابة ، ولكن هذه الوسيلة لم تفلح مع إسكندر ، واستعد الطرفان للحرب ، والتقوا في حرب حامية الوطيس ، هزم فيها جيش بالابان ولكنه أسر مجموعة من فرسان إسكندر أثناء انسحابه . (١)

ورغم تلك الهزيمة إلا أن ثقة السلطان محمد الفاتح بقائده بالابان لم تهتز أو تتزعزع ، فأرسل جيشاً آخر للقضاء علي إسكندر بك ، وجعله على قيادته ، ونجح بالابان في هذه المرة في هزيمة جيش إسكندر الذي وقع في أرض المعركة ، وجرح في ذراعه ، ومات فرسه ، ولكنه نجا من الموت .

واستمر السلطان يرسل جيشاً تلو جيش ويسند قيادته لبالابان بك ، فجولة ينتصر وأخرى يهزم ، فقاد السلطان بنفسه الجيش ، وحاصر كرويا عاصمة إسكندر ، ولما طال الحصار ولم تستسلم ، عاد إلى عاصمته القسطنطينية وترك بالابان مع جيش آخر على حصار كرويا ، وظل الحصار حتى أرسلت الدول الأوربية والبابوية دعماً لإسكندر فقاتل جيش بالابان وهزمه ، وسقط بالابان شهيداً في أرض المعركة .

والجدير بالذكر أن بالابان كان له أخ يسمى " يونس " ، جعله السلطان على قيادة أحد الجيوش التي أرسلها لمساندة بالابان في الحرب ، ولكن إسكندر قام بحيلة نجح من خلالها في هزيمة جيش القائد يونس وأسره هو وولده خضر ثم أعدمهما ، وكان لذلك أسوأ الأثر على نفس بالابان أثناء المعركة . (٢)

---

(١) سالم الرشيدي ، مرجع سابق ، ص١٥٤ .

(٢) السيد يونس ، مرجع سابق ، ص٤٢-٤٩ .

والملاحظ من خلال حروب السلطان محمد الفاتح مع إسكندر أن معظم القـواد الذين أرسلهم على رأس الجيش كانوا ألبانيين أسلموا وعملوا في خدمـة الدولـة العثمانية ، ومنهم حمزة بن أخت إسكندر بك ، و" شرمت بك "، و" فريد بـك "، وموسى صديق إسكندر، و" يعقوب بك الأرناؤوط" الذي قاد جيشاً وزحف به من جنوب ألبانيا بينما كان بالاابان بك يزحف عليها من جهة مقدونيا ، ونجح يعقـوب في دخول مدينة بيرات ودارت بينه وبين جيش إسكندر معركة قُتل خلالها يعقـوب بك وهزم جيشه . (١)

وكما نجح الألبان في قيادة الجيوش البرية ، نجحوا كـذلك في قيـادة الأسـاطيل البحرية ، وهناك بعض النماذج تأخذ منها على سـبيل المثـال " سـليمان باشـا الأرناؤوطي " المعروف باسم " سليمان الخادم "، بـرز دوره في عصـر السـلطان سليمان القانوني ، حيث أرسله على رأس حملة عسكرية كبيرة قوامها عشرون ألف جندي ، لضم اليمن إلى حوزة الدولة العثمانية ، والقضاء على نشاط البرتغاليين في شواطئ وموانئ البحر الأحمر .

أبحر سليمان باشا بحملته من ميناء السويس بمصـر في يونيـو سـنة ١٥٣٨م ، ووصل عدن في أغسطس من نفس العام .

واستنجد به حاكمها " عامر بن داود الطاهري " ، ضد الإمامية الزيدية ، وأظهر سليمان باشا له موافقته على مساعدته ، ولكنه سرعان ما غدر به وقتله واسـتولى على عدن ، وقيل أن جنوده عاثوا فيها فساداً ، مما ترك آثاراً سلبية للوجود العثماني في تلك المنطقة لسنوات عديدة . (٢)

ثم أناب عنه في عدن أحد ضباطه ويدعى بهرام ، واتجه سليمان باشـا بأسـطوله لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين ، ولكن مهمته لم تكتمل ، وعـاد إلى عـدن مـرة أخرى، وقضى بها بعض الوقت ، ثم عاد إلى مصر مروراً بسواحل اليمن فنزل بميناء

---

(١) سالم الرشيدي ، مرجع سابق ، ص١٥٥ .

(٢) عراقي يوسف محمد ، الوجود العثماني في مصر ، مرجع سابق ، ص١٦١ .

" مخا " و " الصليف" ليؤكد خضوعها للحكم العثماني ، كما أخذ اعترافاً من حاكم اليمن آنذاك " الناخوزة أحمد " بخضوعه وولائه للعثمانيين أواخر سـنة ١٥٣٨م ، وعاد سليمان باشا بعد ما أسـند إدارة اليمن للوالي " مصطفى غـزة " فكانـت أعماله بداية للحـكم العثمـاني لليمن . (١)

أما أهم من كانت لهم إسهامات وبطولات في المجال البحري العثماني فهم الأخوة "بربروسة " منذ بداية القرن السادس عشر .

وتجدر الإشارة إلى أنني لم أجد من المصادر أو المراجع من يرجع أصولهم مباشـرة إلى الألبان سوى المؤرخ الأديب الألباني " محمد موفاكو " صاحب الكتابات المتنوعة في التاريخ والأدب الألباني حيث قال في خلال حديثه عن دور الألبـان في الدولـة العثمانية "برز الحضور الألباني دفعة واحدة في القرن السادس عشـر ، في المشـرق والمغرب العربي في وقت واحد ، وقد برز الألبانيون أولاً كأمراء للبحر في مطلع هذا القرن مقابل شواطئ المغرب العربي ، الذي كان وقتئذ تحت الاحـتلال الأسـباني، وكان من أبرز هؤلاء الأمراء البحريين عروج وأخوته خير الـدين وإسـحاق وإلياس الذين تمكنوا من تكوين أسطول صغير لهم مع نهوض حركة القرصنة لـدى الألبانيين في ذلك الوقت". (٢)

أما بقية المصادر فذكرت أن والد هؤلاء الأخوة ، ويدعى يعقوب من الروملل

---

(١) فاروق عثمان أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦م ، ص٢٢-٢٤ ؛ السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن، القاهرة ، مركز الدراسات العربية ١٩٦٩م ، ص١٤١-١٥٣ .

* بربروسة :هو اللقب الذي أطلقه المؤرخون الغربيون على هـؤلاء الأخـوة ، ويعني بالإيطالية ذو اللحية الصهباء أو الحمراء أو الشقراء .

(٢) محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية ، مرجع سابق ، ص ١٧ ؛ أنتوني سوريال عبد السيد ، مرجع سابق ، ص١١ .

وكـــان من السباهية أصحاب التيمارات (١) ، ثم انتقلـــوا إلى جزيـــرة مـــديللي بعد فتحها .

ولكون لفظ الروملي يطلق على المناطق التي خضعت للعثمانيين في البلقان ومنها ألبانيا، فالاحتمال الكبير أن يكون يعقوب والد الأخوة بربروسة من إحدى المناطق الألبانية ، ويؤكد ذلك التشابه الكبير بينهم وبين الألبان في الصفات الخِلقيَّة ، مثـــل لون البشرة والقوة الجسمانية ، وغيرها ، وأيضاً الصفات الخُلُقيَّة ، مثل الشـــجاعة وقوة الإرادة ، والإخلاص في أداء الواجبات .

وحقيقة أن الذي يدعونا للبحث الدقيق حول أصل هؤلاء الأخوة هو ذلك الدور الكبير الذي قاموا به وخاصة (خير الدين بربروسة) في خدمة الإسلام ، والدولـــة العثمانية في مجال البحرية ، وقيادة الأساطيل ، وإحراز انتصـــارات عديـــدة علـــى الأساطيل الأسبانية والبرتغالية في البحر المتوسط في القرن السادس عشر ، وتحريـــر كثير من الأراضي العربية في شمال إفريقيا من قبضة الاستعمار الأسباني ، وتفصـــيل ذلك على النحو التالي :

كان يعقوب والد هؤلاء الأخوة ضمن الحامية العسكرية العثمانية الـــتي أبقاهـــا السلطان محمد الفاتح في جزيرة مديللي (في بحر إيجة) بعد فتحها ســـنة ١٤٦٢م ، فتزوج يعقوب وأنجب أربعة أولاد هم " إسحاق " ١٤٦٢م ، " عروج " (أوروج) سنة ١٤٦٤م ، " خضر" سنة ١٤٦٦م (الذي عرف في التاريخ باسم خير الله) ، و"إلياس " . (٢)

ولما كبرهؤلاءالأخوة عملوا جميعاً بالتجارة بين الموانئ البحرية،وكان لديهم عـــدة

(١) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ ، ويوافقه في الرأي ، عزيز سامح التر في كتابه : الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشـــمالية ، بـــيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٩ .

(٢) يلماز أوزتونا ، نفس المرجع ، ص ٢٣٩ ؛ عزيز سامح التر ، نفس المرجع، ص٢٨ .

سفن تساعدهم في ذلك ، وذلك عكس ما قيل إنهم عملوا بالقرصنة في بداية حياتهم، لأن إمكانياتهم لم تكن لتسمح لهم بذلك .

وتوسع هؤلاء الأخوة في تحركاتهم فأخذوا يتنقلون بين موانئ مصر وتركيا وجزر بحر إيجة ، وطرابلس الشام ، وأثناء إحدى أسفارهم اعترضتهم سفينة لفرسان رودس المسيحيين ، فقتلوا الأخ الأصغر إلياس ، وأسروا " عروج " ، واستمر في الأسر حتى سنة ١٥٠٦م (١) ، حيث تمكن من الهروب ، وعزم على الانتقام من مسيحي أسبانيا والبرتغال الذين كانوا يهاجمون مسلمي شمالي إفريقيا ، خاصة الأسبان ، الذين استولوا على المرسى الكبير في غرب الجزائر سنة ١٥٠٥م ، واستولوا على مدن مليلة والجزائر وبجاية وطرابلس ووهران وغيرها من المدن الساحلية .

وفي البداية حقق الأخوان عروج وخير الدين (خضر) بعض الانتصارات على قراصنة السفن المسيحية ، الأمر الذي أعجب القوى الإسلامية الضعيفة في شمال إفريقيا فاستدعاهم السلطان " محمد الحفصي " حاكم تونس ، ومنحهم حق الاستقرار في جزيرة " جربة "(٢) التونسية ،وجعلها مركزاً للقيام بعملياتهم الحربية في البحر المتوسط .

ولما ذاعت شهرة الأخوين ورجالهما في مهاجمة سفن الأسبان ، وهابتهم الدول الأوربية البحرية ، طلب أهالي الجزائر من عروج أن يعينهم على استعادة ميناء " بجاية " من الأسبان ، فأعد حملة قوية تمكن بواسطتها من انتزاع المدينة من أيديهم سنة ١٥١٥م ، ثم نقل عروج قاعدة عملياته الحربية من "جربة " إلى ميناء "جيجل" شرقي الجزائر ليتمكن من الوقوف في وجه الأسبان .

ثم طلب أهالي مدينة الجزائر من عروج مساعدتهم في التصدي للأسبان الذين أقاموا قلعة منيعة تسمى " بنون " على الجزيرة المواجهة للساحل والمدينة فسار إليهم

---

(١) يلماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

(٢) مجموعة من الباحثين ، دائرة سفير للمعارف ، مرجع سابق ، مجلد٣٣ ، ص٣٦،٣٧ ؛ ومحمد فريد ، مرجع سابق ، ص٢٣٠ .

بطريق البر على رأس ثمانمائة جندي نظامي ، وخمسة آلاف متطوع جزائري وساندهم عدد من السفن المحملة بالرجال والمدفعية ، ووصل إلى مدينة الجزائر وأقام بها حكومة قوية تحت قيادته ، وانضم إليه عدد كبير من القبائل وسكان المدن، كما ضم عدداً من أقاليم المغرب الأوسط مثل مليانة ومدية وتناس ، وعهد إلى أخيه خير الدين بإدارة شرقي البلاد ، واتخذ " دلسًا " مقراً لإقامته .

ولما فتح السلطان العثماني سليم الأول مصر سنة ١٥١٧م ، أرسل إليه الأخوان عروج وخير الدين يعلنان ولاءهما وطاعتهما له ، وأخبراه بما حققاه من انتصارات في شمالي إفريقيا ، وأرسلا له بعض الهدايا .

ثم توجه عروج إلى فتح تلمسان غربي الجزائر ، وكانت لبني زيان بعد أن ساءت أحوالها واستنجد به أهلها ، فلبي رغبتهم وتمكن من دخولها وإقصاء بني زيان عنها وتولي حكمها باسم الخليفة العثماني ، بيد أن أسبانيا أعدت حملة كبيرة بلغت خمسة عشر ألف مقاتل ، تمكنت من التوغل في الجزائر ، وحاصرت مدينة تلمسان ، ووقع عروج في الأسر ، واستشهد في أغسطس ١٥١٨م ، عن عمر يناهز أربعة وأربعين عاماً وخلفه أخوه خير الدين برباروسة .

بدأ خير الدين حكمه بإرسال رسالة إلى السلطان العثماني سليم الأول يجدد له الطاعة والولاء ويطلب منه العون ليقف في وجه الأسبان ، فرحّب السلطان بذلك وبعث إليه قوة من سلاح المدفعية العثمانية ، وألفين من جنود الإنكشارية ، كما أذن السلطان لمن يشاء من رعاياه المسلمين بالتطوع والجهاد في الجزائر . (١)

ومنح السلطان سليم الأول " خير الدين " لقب " بكلر بك " (٢) ، وهى رتبة تُخوّل لصاحبها اختصاصات إدارية واسعة ، وتجعله قائداً أعلى للقوات المسلحة في إقليمه نيابة عن السلطان .

---

(١) دائرة سفير للمعارف ، مرجع سابق ، ص٣٨ ؛ محمد فريد ، مرجع سابق، ص٢٣١.

(٢) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، ص٤١٨ .

وقد نجح خير الدين في طرد الأسبان من الجيوب التي أقاموهـا علـى سـاحل الجزائر وضم إلى حكمه مناطق أخرى في شرقي الجزائر مثل " عنّابة " و " قالـه " ، وأكمل انتصاراته بعمل رائع حين استولى علـى قلعـة " بنـون " مـن الأسـبان سنة ١٥٢٩م ، وقضى على القبائل المناوئة له في المنطقة ، وأخضعها لحكمه ، ومد نفوذه إلى مناطق داخلية مثل " قسنطينة " .

وفى عصر السلطان العثماني سليمان القانوني ، أمد خـير الـدين بمسـاعدات عسكرية كبيرة ، استطاع بها توجيه ضربات قوية للسواحل الأسبانية ، وتُذكر لـه جهوده في إنقاذ سبعين ألف مسلم أندلسي من قبضة الأسـبان ، حيـث قـام في سنة ١٥٢٩م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خـلال سـبع رحـلات إلى السـواحل الأسبانية لنقلهم إلى شمال إفريقيا

وفى سنة ١٥٣٣م استدعى السلطان سليمان القانوني خير الدين إلى إسـتانبول ، وعهد إليه بإعادة تنظيم الأسطول والإشراف على بناء سفنه ، كمـا طلـب منـه الاستعداد لضم تونس إلى حظيرة الدولة العثمانية ، قبل وقوعها في قبضة الأسبان ، ونجح خير الدين (١) في ذلك سنة ١٥٣٤م ،و أنهى حكم الحفصيين بهـا ، وكـان لذلك العمل أصداء قوية في أوربا لأهمية موقع تونس في السيطرة على الملاحـة في حوض البحر المتوسط ، فقرر "شارل الخامس " ملك أسبانيا غزو تـونس بحملـة جرارة بلغت (ثلاثين ألف جندي) خرجت من برشلونة واستولت على تونس لأن خير الدين لم يكن معه سوى سبعة آلاف جندي . (٢)

ورد خير الدين على شارل الخامس بالهجوم على جزر البليار في البحر المتوسـط التابعة لأسبانيا ، وأسر منها ستة آلاف أسير .

ونظراً لجهود خير الدين برباروسة في خدمة الإسلام والدولة العثمانيـة ، كافـأه السلطان سليمان بتعيينه قائداً عاماً للأسطول العثماني وتعيين ابنه " حسن باشا خير الدين " مكانه في حكم الجزائر ، وبذلك انتقل نشاط خير الدين إلى موقع آخر

---

(١) على محمد الصلابى ، مرجع سابق ، ص٢٠٦-٢٢٢.

(٢) يلماز أوزتونا ، مرجع سابق ، ص٢٩٣ .

وهو الحوض الشرقي للبحر المتوسط، و بعد توليه هذا المنصب أعد أسطولاً قوياً تمكن به من استرداد مدينتي " كوروف " و " ليبانتو " من بلاد اليونان ، كما أغار على سواحل إيطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية ، وهاجم ميناء طولون ، بعد ما ساءت العلاقة بين الدولة العثمانية وفرنسا آنذاك . (١)

وقاد "خير الدين " الأسطول العثماني في أشهر معركة بحرية في القرن السادس عشر وهى معركة " بروزة " ، حيث دعا البابا " بول الثالث " الجيوش الأوربية لتكوين تحالف صليبي ضد العثمانيين ، وتكون هذا التحالف وضم ثلاثمائة قطعة بحرية يقودها أشهر قائد بحري في أوربا حينذاك وهو " أندريا دوريا " ، بينما كان الأسطول العثماني يتكون من مائة وعشرين قطعة بحرية يقودها خير الدين برباروسة، والتقى الجيشان في سبتمبر سنة ١٥٣٨م ، وبدأ خير الدين الذي جعل أسطوله على شكل هلال بإطلاق نيران مدفعيته على سفن العدو ، الذي لم يكن يتوقع الهجوم ، فاختل نظامه بفعل المباغتة ، وما لبث أن تفرقت سفنه ، وهرب القائد" أندريا دوريا "، وقد أثار هذا النصر الفزع والهلع في أوربا ، وأكد للبحرية العثمانية هيبتها في حوض البحر المتوسط وجعل لها السيطرة عليه دون منافسة تذكر على مدى أربعين عاماً . (٢)

وغضب "شارلكان " ملك أسبانيا وصقلية وإيطاليا ، لتلك الهزيمة ، فقاد بنفسه أسطولاً أوربياً كبيراً ، وهجم به على مدينة الجزائر العاصمة سنة ١٥٤١م ، ولكن القائد" حسن أغا "وهو من تلامذة خير الدين والمسئول عن الأمن في المدينة دافع عنها بشجاعة ورد شارلكان منسحباً .

---

(١) يلماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص٣٠١ ؛ محمد أنيس ، مرجع سابق ، ص٨٣ .

(٢) خليل إينالجق ، العثمانيون ، مرجع سابق ، ص٨٢ ؛ مجموعة من الباحثين ، دائرة سفير للمعارف ، ص٣٣ ، ٣٨ .

وتوفي خير الدين سنة ١٥٤٦م (١) ، ودفن بإستانبول بعد حياة مليئة بالبطولات والانتصارات التي حفظت كثيراً من البقاع الإسلامية من السقوط في أيدي الأعداء وجعل للأسطول الإسلامي العثماني مكانته اللائقة به وهيبته في نفوس خصوم الدولة العثمانية ، وبلغ ذروة قوته ، وتحول البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة عثمانية . (٢)

---

(١) دائرة سفير للمعارف ، المرجع السابق ، ص٣٩ .

(٢) أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، جـ١ ، ص٤١٦ .

رابعاً : الجنود الألبانيون

ما إن اعتنق الألبانيون الإسلام ، وفهموا طبيعته ، ومتطلباته ، التي تقضى بأن يعيش الإنسان له ، وأن يسعى جاهداً لخدمته ، لذلك انطلقوا من تلالهم وجبالهم كأسراب النحل لخدمة الدولة العثمانية والدفاع عنها بوصفها رمزاً للإسلام ، فالتحقوا بالآلاف في الجيش ، يعملون كجنود أوفياء مخلصين ، ضربوا المثل في الشجاعة والطاعة فأينما يوجهون يعملون ، وكانت الفرق العسكرية الألبانية من أهم فرق الجيش العثماني ، وتواجدوا في شتى ولايات الدولة العثمانية . (١)

وقد مر بنا عند الحديث عن دور القادة دور الفرقة العسكرية الألبانية مع زغنوس باشا في حصار القسطنطينية ، كما شارك الآلاف منهم في استكمال حروب وتوسعات الدولة العثمانية في أوربا . (٢)

أما في الولايات العربية فقد كان لهم أيضاً دور مميز ، ففي مصر على سبيل المثال وقفوا لصد العدوان الفرنسي عليها سنة ١٧٩٨م ويذكر " الجبرتي " في تاريخه أن عدداً من الجنود الأرناؤوط شاركوا في معركة الأهرام (إنبابة) مع المصريين لمنع تقدم الجيش الفرنسي ودخول القاهرة في يوليو سنة ١٧٩٨م .

فيقول الجبرتي " لما قرب طابور الفرنسيين من متاريس " مراد بك " ترامى الفريقان بالمدافع ، وكذلك العساكر المحاربون ، وحضر عدة وافرة من عساكر الأرناؤوط من دمياط وطلعوا إلى إنبابة ، وانضموا إلى المشاة وتقاتلوا معهم في المتاريس " . (٣)

وحين توجه نابليون إلى بلاد الشام ، حاصر العريش في طريقه حتى اضطرت حاميتها للاستسلام ، وحين علم أن جنود تلك الحامية من الألبانيين ،

---

(١) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص٦١ .

(٢) سالم الرشيدي ، مرجع سابق ، ص٥٨ .

(٣) الجبرتي (عبد الرحمن) ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت ، دار الجيل ، جـ٢ ، ص١٨٨ .

أطلق سراحهم بشرط أن يعودوا لبلادهم ، إلا أن هؤلاء الجنود ذهبوا إلى غــزة ، وبعد حصارها ، وسقوطها في يد نابليون، وقع هؤلاء الألبان في قبضته مــرة ثانيــة فأطلق سراحهم على أن يعودوا إلى بلادهم ، إلا أهم ذهبوا إلى يافا للدفاع عنــها وكان عددهم آنذاك نحو أربعة آلاف جندي ، فظلوا يقاومون نابليون حتى اضطروا للاستسلام مقابل تأمين حياقم ، ولكن نابليون أمر بقتلهم باستثناء بعــض قــادقم الكبار ، ورغم ذلك حين ذهب إلى عكا وحاصرها كان ضمن حاميتها عدد غــير كبير من الألبانيين . (١)

كما لعبت الفرقة الألبانية العسكرية دوراً رئيساً في الحياة السياسية في مصر بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر وساندوا محمد على حتى خلصت له ولاية مصــر. ويذكر أن الفرق الألبانية كانت تضم المسلمين والمسيحيين جنباً إلى جنب . (٢)

وظل الجنود الألبان حتى نماية الدولة العثمانية ، من أكثر الجنود طاعة وشــجاعة للذود عن هذه الدولة ، وكانوا في عهد السلطان عبد الحميد ردءاًفي مقاومة أعدائه وكانوا بطانته المفضلة لثقته بهم وحبه لهم واتخذ منهم حرساً خاصاً له ،وقــد ذكــر ذلك في مذكراته قائلاً " إن السَّواد الأعظم من الأرناؤوط إخوان لنا مســلمون ، نسند ظهورنا إليهم فهم جنودنا المخلصون ... أليس الذين من حــولي الآن هــم من الأرناؤوط". (٣)

وخلاصه ما سبق في هذا الفصل أن الدولة العثمانية ، مــن خــلال سياســتها في إدارة ولاية ألبانيا ،بعد أن تفهمت طبيعة هذا الشعب ،وكيفية التعامل معه ،سواء مسلمين أو مسيحيين ،نجحت في الاستفادة من قدرات وطاقــات أبنائهــا ، وهــى قدرات كانت في أشد الاحتياج إليها لاستكمال توسعاقما في أوربا .

---

(١) محمد كرد علي ، مرجع سابق ، جـ٣ ، ص١٣ وما بعدها .

(٢) رجب يشار بويا ، مرجع سابق ، ص٦١ .

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية ، مرجع سابق ، ص٧٦ .

ومن ناحيتهم أدرك الألبانيون أن في خضوعهم للعثمانيين واعتناقهم الإسلام حفاظاً على قوميتهم وحقهم في ممارسة حياتهم بحرية لم يعهدوها في ظل أي قوة أخرى حكمتهم منذ خضوعهم للرومان ثم البيزنطيين فالصرب والبلغار والبنادقة .

لذلك أخلص الألبانيون للدولة العثمانية التي شعروا أنهم مواطنوها وليسوا رعاياها فانبرى هؤلاء يوجهون طاقاتهم في شتى المجالات الإدارية والسياسية والعسكرية ، فبرز منهم الكثير، فمنهم من وصل إلى منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) وهؤلاء بلغوا أكثر من ثلاثين كان أشهرهم أربعة من أسرة كوبريللي ، كما برز منهم قادة عظام في مجال قيادة الجيوش العسكرية و الأساطيل البحرية ، وأيضاً عهدت الدولة إلى بعضهم بحكم كثير من ولاياتها في المشرق والمغرب حتى نهاية الدولة العثمانية ، وقد أجاد كل منهم فيما أُسند إليه ، وحقق فيه نجاحات مبهرة بإخلاصه وتفانيه ، وصدق عزمه ، وقوة إرادته .

ولم يكن ما ذكرته حصراً لهؤلاء ولا لأعمالهم وسيرهم ، ولكن في حدود ما أتيح لي من معلومات عنهم في المصادر العربية أو الأجنبية كالتركية والألبانية والإنجليزية.

الخاتمة

من دراستنا السابقة ، اتضحت أمامنا أمور مختلفة نعرضها على الوجه التالي :

الألبانيون يعودون في أصولهم إلى الإيلليريين القدماء ، وهم من أقدم العناصر البشرية في أوربا ، وقد قطنوا منطقة غرب البلقان منذ مئات السنين قبل الميلاد ، وأقاموا دولة باسمهم بمقوماتها السياسية والاقتصادية وصار لهم بمرور الوقت قوة ونفوذ كبيرين خاصة في المجال البحري ، كما كانت لهم آثار حضارية بارزة لا تقل في أهميتها عن الحضارات القديمة القائمة آنذاك .

ويترتب على ما سبق طرحه نتيجة جديدة مفادها إبطال مزاعم وادّعاءات الدول البلقانية في أحقيتها بالمناطق الألبانية التي استولت عليها بموجب الاتفاقات والمؤامرات الدولية منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م ، وانتهاءً بالحرب البلقانية الأولى والثانية سنة ١٩١٢، ١٩١٣م التي أعقبها هزيمة الدولة العثمانية على يد دول البلقان ، ومن ثم احتلال معظم الأراضي الألبانية لصالحها .

فالألبان هم الأصحاب الحقيقيون لهذه المناطق التي أقاموا بها منذ القدم ، قبل وصول شعوب وأجناس أخرى إلى البلقان ، كالجنس السلافي مثلاً ، والذي يمثله سكان الصرب ومقدونيا والجبل الأسود ، فالصرب يدّعون أحقيتهم في منطقة كوسوفا الألبانية ، وهذا ما جعلهم يرتكبون المجازر والفظائع ضد هذا الشعب المسلم في التسعينيات من القرن العشرين لأنه سعى للاستقلال وطلب الحكم الذاتي لنفسه .

لقد تعرض الألبانيون منذ القرن الأول قبل الميلاد للاحتلال الروماني لبلادهم ثم تعاقبت على احتلالهم دول وقوى متعددة قبل الفتح العثماني ، منها الإمبراطورية البيزنطية ، و دولة الصرب ، والبلغار ، والبنادقة ، ومملكة نابولي .

وكان موقع ألبانيا الإستراتيجي على البحر الأدرياتيكي الذي يربط دول البلقان بدول حوض البحر المتوسط ، سبباً كبيراً لاهتمام هذه الدول بها ، كما أن طبيعة أراضيها التي تحوى كثيراً من الثروات الطبيعية (المعدنية ، الحيوانية ، النباتية)

كانت سبباً آخر على جانب كبير من الأهمية .

لقد عاش الألبانيون في ظل تلك الدول المحتلة لأرضهم معيشة بدائية قاسية فلم يلقوا سوى العنت والتعب والقهر ، و ساءت أحوالهم الاقتصادية و الاجتماعية ، وكثُرت المنازعات والحروب بين قبائلهم في الشمال والجنوب ، وذهبت خيرات بلادهم لتلك القوى الاستعمارية التي كانت دائماً تدعم تلك المنازعات لتجد منها وسيلة للتدخل في شئونهم ، ونجحت القوى الاستعمارية في تحقيق أغراضها فصار الشعب الألباني منقسماً على نفسه سياسياً ودينياً و اجتماعياً ، وكاد أن يذوب في الدول المجاورة ، وينتهي دوره في منطقة البلقان ، بيد أن خضوعه للحكم العثماني في مطلع القرن الخامس عشر قد أبقى على كيانه متماسكاً لدرجة كبيرة .

سعى العثمانيون لفتح ألبانيا في إطار توسعاتهم في أوربا ، ورغبتهم في الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، ومن ثم التطلع إلى روما فيما بعد وكان موقع ألبانيا يسهل للجيوش والأساطيل العثمانية تلك المهمة .

بدأ الفتح العثماني لألبانيا سنة ١٣٨٥م ، واستمر لسنوات طويلة ، حتى نجح العثمانيون في ضم المناطق الألبانية الواحدة تلو الأخرى ، ورغم طبيعة الشعب الألباني الشديدة ، والتي اكتسبها من البيئة الجبلية الوعرة لبلاده ، إلا أن بعض المناطق الألبانية دخلت طواعية في ظل الحكم العثماني دون قتال أو مقاومة ، بينما لقي العثمانيون في مناطق أخرى مقاومة عنيفة وفقدوا الآلاف من جنودهم في المعارك مع الألبانيين ، الذين استغلوا الطبيعة الجبلية لبلادهم ، وكثرة التلال والهضاب وجهل العثمانيين بهذه الطبيعة ، الأمر الذي ساعدهم في مقاومة الجيوش العثمانية الفاتحة ، إلى جانب المساعدات الخارجية التي أتتهم من بعض الدول صاحبة التطلعات والمطامع في الأراضي الألبانية ، هذا فضلاً عما اشتهر به الألبان من قدراتهم الحربية الفائقة ومهاراتهم القتالية في ميدان الحرب وشجاعتهم ورفضهم الهزيمة و الاستكانة .

وكانت أشد مقاومة لقيها العثمانيون على يد الزعيم الألباني " إسكندر بك " الذي تبين من دراستنا المتعمقة لحركته أنه أقدم على ما أقدم عليه سعياً وراء

مصالحه الشخصية لتحقيق أطماعه في تكوين دولة واسعة يكون هو الحاكم عليها ، كما اندفع في حركته بتحريض من القوى الخارجية المتمثلة في بابا الفاتيكان ، وبعض الدول الأخرى مثل مملكة نابولي ، وجمهورية البندقية ، ومملكة المجر ، ورغم المساعدات التي وصلته من تلك القوى ونجح بها في تحقيق بعض الانتصارات الخاطفة على الجيوش العثمانية ، إلا أنه لم ينل رضا وقبول الألبانيين جميعاً ، بل إن بعض النبلاء اعتبروه خارجاً على الدولة ، وساعياً لمصلحته الشخصية ، ومن ثم وقفوا ضده وحاربوه ، وانتهت حركته وتمرده بالفشل ، وقد بالغ المؤرخون الغربيون في تناول حركته ، ووصفوه في كتاباتهم بالبطل الألباني القومي و ذلك مما يجانب الصواب .

استقر العثمانيون بألبانيا وسيطروا على جميع أراضيها بنهاية القرن الخامس عشر وقاموا بوضع نظم إدارية واقتصادية مكنتهم من إحكام سيطرتهم على البلاد، وحافظوا من خلال نظامهم الإداري على وحدة الأراضي الألبانية ، ونجحوا في القضاء على المنازعات والصدامات المحلية بين نبلائهم بعدما قامت الدولة بتوزيع الأراضي الألبانية عليهم ، وعرف كل منهم حدود سلطته و حقوقه وواجباته ، وهكذا نجحت في استيعاب هذه الطبقة ، كما وضعت القوانين التي تحمى الفلاحين والعمال وتحفظ لهم حقوقهم ، مما أشاع الأمن و الاستقرار .

و أعطت الدولة العثمانية الحرية لأبناء الشعب الألباني ،كل يعمل ويتكسب كيفما شاء ما دام يؤدى ما عليه من التزامات تجاه الدولة ، وذلك ما اتجهت إليه دول أوربا فيما بعد فيما عرف بالحرية الاقتصادية والدينية ، و أولت الدولة العثمانية المدن القديمة عناية فائقة فتم توسيع الشوارع و رصفها ، و إقامة المؤسسات الخدمية العديدة من مستشفيات ومدارس وكتاتيب وحانات و تكايا وحمامات ، وغيرها لخدمة الناس .

وأنشأت مدناً جديدة ، صار بعضها فيما بعد مراكز تجارية و صناعية نالت شهرة واسعة في أوربا والبلقان ، وبفضل جهود و سياسات العثمانيين ، شهدت مجالات الزراعة و الصناعة والتجارة تطورات ملحوظة ، و تحقق ازدهار ورخاء

عيش لم يشهده الألبانيون من قبل وعادت خيرات بلادهم عليهم لأول مرة في تاريخهم .

ومارس الألبانيون حياتهم و عاداتهم بحرية تامة ،ولم يفرض العثمانيون عليهم نظماً غريبة ، بل أقروا الوضع القائم مع إدخال بعض التعديلات التي تضمن للناس الأمن على أنفسهم و أموالهم ، وكانت تحكم بينهم في خلافاتهم وفق قوانين الشريعة الإسلامية وقوانينهم العرفية الألبانية حسبما يتطلب الأمر ما دام يؤدى ذلك في النهاية إلى جلب المصالح ودرء المفاسد دونما تعارض مع أحكام الشريعة .

كما التزمت الدولة بتعهداتها تجاه الألبانيين ، فلم تجبرهم على عمل شيء، ولم تفرض عليهم سوى ما فرضته من ضرائب ورسوم أو التزامات ، وإن لم يكن الأمر يخلو في بعض الأوقات من قيام بعض موظفي الدولة أو بعض النبلاء بفرض ضريبة أو رسوم إضافية إجبارية بدافع شخصي بقصد زيادة ثروته ، وكانت الدولة تتصدى لذلك قدر المستطاع ، كما لم يخل الأمر من قيام الدولة نفسها بفرض ضرائب إضافية في بعض الأوقات ، حينما كانت تمر بأزمة مالية ، وتعجز ميزانية الدولة عن معالجة الأمر ، أو حينما تقوم بتجهيز أكثر من جيش للحرب في أكثر من جهة .

ولقد أولى العثمانيون الناحية الثقافية و العلمية اهتماماً كبيراً ، و قاموا بإنشاء الكتاتيب و المدارس العليا في قرى ومدن الألبانيين بهدف نشر التعليم بين أبنائهم ، ورغم أن الهدف الرئيسي من ذلك كان تعريف هؤلاء بالإسلام للإقبال عليه ، إلا أنهم استفادوا بصفة عامة ، فخرج من بينهم العلماء و الأدباء والمفكرون ، و منهم من ظل على عقيدته دون إكراه أو ضغط كما يدعى خصوم الدولة .

إن مناخ الحرية الذي شهده الألبانيون هو الذي هيأ ظهور كوادر من الأدباء والشعراء والمفكرين ، ذاعت شهرتهم في منطقة البلقان و غيرها من أقاليم الدولة العثمانية ، بما لم يعهدوه في ظل أي من الحكومات والدول الاستعمارية التي تعاقبت عليهم.

واتبع العثمانيون في الناحية الدينية سياسة التسامح و حرية التعبد مع رعاياهم

في أوربا بشكل عام ، ومع الألبانيين بصفة خاصة – وقد شهد بذلك كثير من مؤرخي الغرب – فتركوا لهم حرية الاعتقاد والتعبد ، ولم يُكرهوا أحداً على ترك دينه ، ولم يهدموا مكان عبادة للنصارى أو اليهود ، ولم تذكر الكتب أي حالة في هذا الشأن ، بخلاف ما فعله الصرب وغيرهم تجاه المسلمين في البوسنة والهرسك و كوسوفا فيما بعد

إن الألبانيين رغم قسوقم ، وطبيعتهم القاسية ، وكبريائهم أقبلوا على اعتناق الدين الإسلامي بشكل جماعي ، ولقد تجمعت عوامل عدة لذلك ، كان أهمها النظم الإدارية والاقتصادية التي قامت بتطبيقها الدولة العثمانية ، فنظام التيمار مثلاً ، جعل كثيراً من نبلاء الألبان و زعمائهم يقبلون على الإسلام ، وبالتالي تبعهم أبناؤهم من الفلاحين ، كما أن ضريبة الدم (الدوشرمة) كان لها دور كبير في ذلك حيث حرص كل ألباني على تقديم ابنه للدولة العثمانية ليتربى ويتعلم في قصورها بين أبناء الأمراء والنبلاء ، فدخلت بذلك أعداد كبيرة إلى الإسلام .

وكان لأخلاق العثمانيين وسماحتهم ، وحسن سياستهم مع الألبان دور فاعل ، فوجد فيهم الألبان ما لم يجدوه في غيرهم من القوى الاستعمارية الأوربية ، التي لم يكن هدفها سوى الاستيلاء على بلادهم و نهب ثرواتهم ، وتسخير أبنائهم ، وكانت عملية اعتناق الإسلام تتم بشكل تدريجي ، بيد أنها اشتدت خلال القرنين السادس و السابع عشر .

إن اعتناق الألبانيين للإسلام هو الذي قضى على المنازعات الدينية والقبلية بينهم ووحدهم و حفظهم من خطر الذوبان والانصهار في القوميات المجاورة الطامعة فيهم .

وكان للطرق الصوفية وتكاياها التي انتشرت في ألبانيا دور في الحياة الدينية والسياسية ، وأهمها طريقة البكتاشية التي تُعد ألبانيا حتى الآن هي مقرها و مكانها المفضل وهي طريقة تغالي في التشيع لآل البيت ، ولديها من الأفكار والمعتقدات الباطلة الكثير ، ولذلك غالباً ما وقفت الدولة ضدها وحاولت وقف نشاطها .

ونجحت في ذلك في بلدان وأقاليم عديدة ، ولكنها لم تفلح في استئصالها من عموم ألبانيا ، وانتشرت أفكار هذه الطريقة بين كثير من الألبانيين حتى المثقفين و الأدباء والمفكرين ومن أشهرهم أسرة فراشرى الألبانية المشهورة .

لقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر ظهور ما يعرف باسم "رابطة بر يزرن الألبانية" وهي رابطة تكونت من مجموعة من الألبانيين المثقفين الذين طالبوا بالحفاظ على القومية الألبانية كغيرها من القوميات التي ظهرت آنذاك وطالبت بالاستقلال عن الحكم العثماني مثل اليونان والصرب و البلغار .

ونادت هذه الرابطة في البداية بوحدة لغتها ، وأن تكون اللغة الألبانية هي لغة الألبان الرسمية وليست التركية أو غيرها ، كما طالبت بالحفاظ على وحدة أراضيهم في الوقت الذي استولت صربيا واليونان وبلغاريا على مناطق منها ، وتطورت مطالبها بعد ذلك حينما رأت ضعف الدولة العثمانية ، فاتجهت نحو الاستقلال عنها أسوة بغيرهم ، وعرضوا مطالبهم على مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م ، ولكنها رفضت ، وسرعان ما قضى على هذه الرابطة ، وإن ظلت تمثل النواة لعمل ألباني قومي منظم .

لقد أخذت الدول الأوربية الكبرى بعين الاعتبار في ذلك المؤتمر حقوق كل القوميات الأوربية التي ظهرت ما عدا القومية الألبانية ، ولعل ذلك كان مقصوداً ، وكأنه عقاب للألبانيين لأنهم اعتنقوا الإسلام بشكل جماعي ، وتمسكوا به وخدموا بإخلاص دولتهم العثمانية ولذلك اعتبرهم الأوربيون عثمانيين ، وصرح المستشار الألماني " بسمارك " آنذاك قائلاً : " لا توجد أمة البانية " و تقطعت الأراضي الألبانية وضمت عنوة للدول المجاورة في ظل ضعف وانهيار الدولة العثمانية وتكالب القوى الأوربية عليها .

لقد خضع الألبانيون للحكم العثماني نحو خمسة قرون ، شهدت بلادهم فيها تطورات كبيرة في المجالات السياسية و الاقتصادية ، وتحقق لهم من الازدهار و الرخاء والحرية ما لم يشهدوا مثله من قبل ، فأخلصوا للدولة العثمانية حتى اعتبرهم مواطنيها وليسوا رعاياها، و أسندت إلى كثير منهم أرفع وأهم المناصب

و الوظائف السياسية و الإدارية والعسكرية ، وكان على رأسها منصب الصدر الأعظم أي رئاسة الوزراء الذي تولاه أكثر من ثلاثين ألبانياً ، ومناصب أخرى كولاية بعض أقاليم الدولة العثمانية في المشرق و المغرب ، كما أسندت إليهم قيادة بعض الجيوش و الأساطيل العثمانية ، وعمل هؤلاء الألبان في جميع ما أُسند إليهم بإخلاص وتفان ، وحققوا نجاحات وانتصارات مبهرة ، وظلوا حتى آخر لحظة في تاريخ الدولة العثمانية هم رجالها المخلصون ، وذلك لأنها أحسنت التعامل معهم ، وأدركت طبيعتهم ، واستفادت من قدراتهم ومهاراتهم .

الملاحق

ملحق (١)

وثيقة رقم (١٣٤) بأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول

دفتر ولاية أروانيد سنة ١٤٣١م ، وموضوعها :

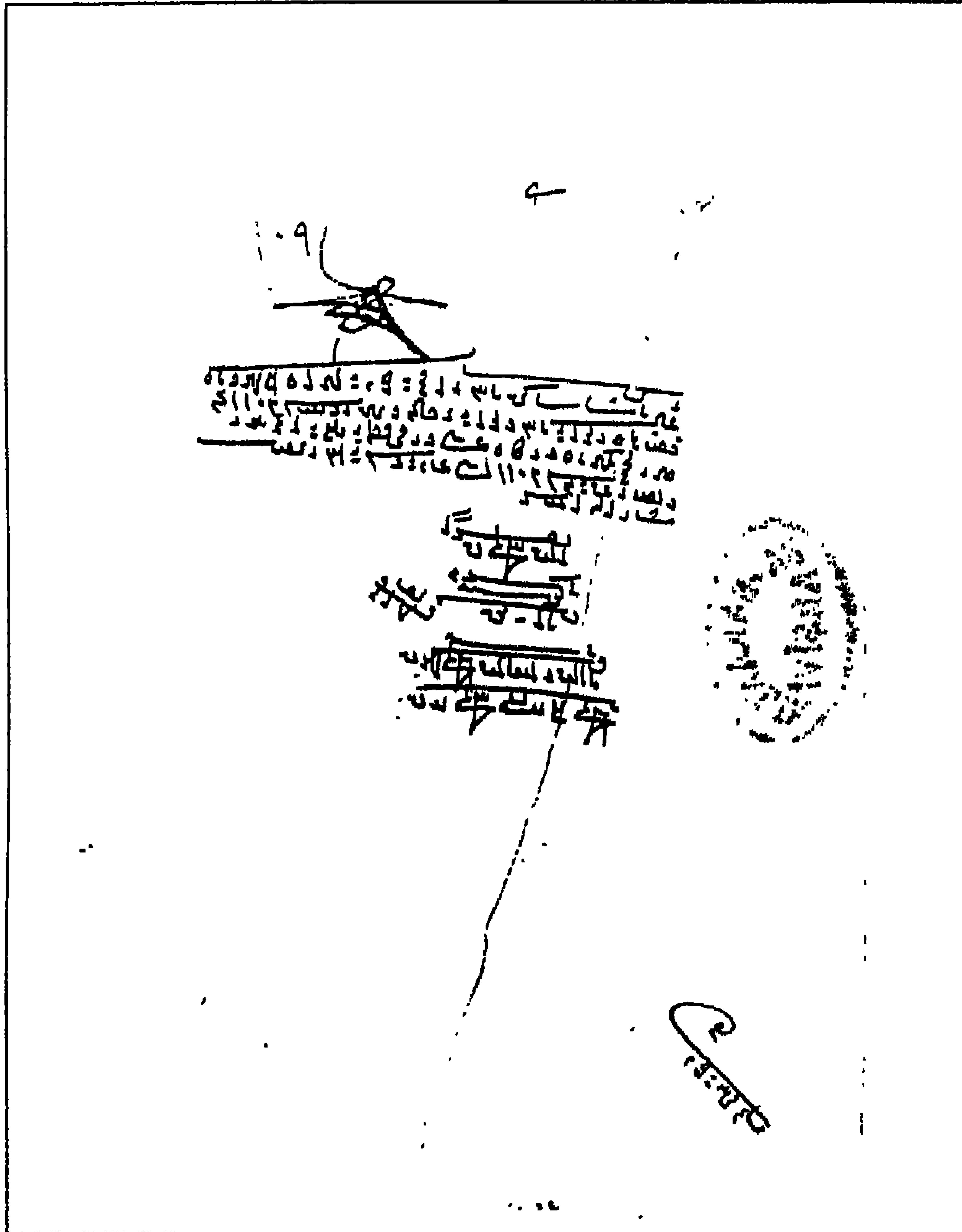
التيمار الخاص ببعض الأفراد بمقاطعة " كانينا "

ملحق (٢)

وثيقة رقم (١٤٥) بأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول

دفتر ولاية أروانيد سنة ١٤٣١م وموضوعها :

التيمار الخاص ببعض الأفراد بقرية " مركنتشه "



ملحق (٣)

وثيقة رقم (١٠٣٠) بأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول

تصنيف " على أميري " وموضوعها :

الجزية الخاصة بمقاطعتي ترحاله ويانيه

ملحق (٤)

وثيقة رقم (١٧٤١) بأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول

تصنيف " على أميري " وموضوعها :

العوائد الخاصة بمقاطعتي اسكوبيا وترحاله

ملحق (٥)

وثيقة رقم (٢١٠٠) بأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول

تصنيف " على أميري " وموضوعها :

الضرائب الخاصة بأهل الذمة بمناستير

ملحق (٦)

وثيقة رقم (٢١٣٥) بأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول

تصنيف " على أميري " وموضوعها :

شكوى أهالي قرية " كيلق قيان " من التكاليف الباهظة

ملحق (٧)

وثيقة رقم (٢٤٧٢) بأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول

تصنيف " على أميري " وموضوعها :

المبالغ المتحصلة من مقاطعة ترحاله

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق غير المنشورة الموجودة بأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول:

تصنيف ابن الأمين :

وثائق أرقام: ٣٨٧، ٤٠٨، ٦٤٩، ٦٥٢، ٦٨٠ ، ٧٤٢، ٧٥٥،٧٦٢

تصنيف علي أميري:

وثائق أرقام: ٧٦٨، ٢١٠٠، ١٠٣٠، ٢٤٧٢، ٢١٣٥، ١٩، ١٤٢، ٧٢، ٢٧٩ ، ٣٨٣

-دفاتر المهمات:

وثائق أرقام:

٥٠٨،٥٠٧،٥٠٦،٥٠٥،٥٠٤،٨٢٣،٨٢٢،١٥٢٢،٤٦،٥٨،
٢٧،١٤٨،٩٩،٨٩،١٦٠١،١٤٩٢،١٤١٣،١٢١٢،٦٠٢،٥٧٥،١٠٦،٥٠
٥٥٠،٥١٣،٩٣،٣٦٢،٣

-أرشيف شوري الدولة (مضابط شوري الدولة ودفاتر خلاصات التذاكر)

دفتر رقم ١٠٥

دفاتر الولايات أرقام :

١٠٠٧ ٩ر ، ١٠٠٨ ١٣ب ، ١٠٠٩ ٢٨ج ، ١٠١٠ ١١ب .

ثانياً: الوثائق المنشورة

- مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٩١-١٩٠٩م) ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٧م .
- Ismail Qemal Vlora , Kujtime. Tirana 1997.
- Hicri 835 Tarihli , Suret Defteri Sancaki Arvanid .

ثالثاً : المصادر العثمانية

- أحمد جودت ، تاريخ جودت ، ترجمة عبد القادر الدنا ، بيروت ١٣٠٨ هجرية.
- أحمد جودت باشا ، المعلومات الكافية في الممالك العثمانية ، استانبول ١٢٨٩ هجرية .
- أحمد بن محمد (ابن عربشاه) ، عجائب المقدورن نوائب تيمور ، الطبعة الأولى، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦م .
- خير الله بن عبد الله (خير الله أفندى) ، تاريخ دولت علية عثمانية المعروف بتاريخ خيرالله أفندى ، إستانبول ، المطبعة العامرة ١٢٨١هجرية .
- سامى فراشرى :أرناؤدلق ، ترجمة شاهين قولونيا ، استانبول ، دار الطباعة العامرة د. ت .
- عبد الرحمن شرف،تاريخ دولت علية عثمانية،قربت مطبعة س ١٣١٥ هجرية.
- فاطمة علية ، قوصوة ظفرى . أنقرة هزيمق ، استانبول ١٣٣٢هجرية .

رابعاً : الرسائل العلمية

- رجب يشاربويا ، الألبانيون (الأرناؤوط و الإسلام) ، رسالة ماجستير ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ١٤٠١هجرية / ١٩٨١م .

خامساً : المراجع العربية

- أحمد بن زيني دحلان ، الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، القاهرة.
- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩٣م .
- أحمد عطية الله ، القاموس الإسلامى ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م .
- أحمد فؤاد متولى ، هويدا محمد فهمي . تاريخ الدولة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة إيتراك ٢٠٠٢م .
- أحمد نجيب هاشم ، وديع الضبع ، تاريخ أوربا في العصر الحديث ، القاهرة دار المعارف، د.ت.
- إسماعيل ياغى ، الدولة العثمانية ، الرياض ، مكتبة العبيكان . د .ت .
- أكمل الدين إحسان (إشراف و تقديم) ، الدولة العثمانية تاريخ و حضارة، نقله إلى العربية صالح سعداوى ، إستانبول ١٩٩٩م .
- أنتونى سوريال عبد السيد ، رابطة بريزرن الألبانية . القاهرة ، دار الثقافة للطباعة و النشر ،١٩٨٦م.
- برناردين كلتي، فتح القسطنطينية ، ترجمة شكرى محمود نديم ، بغداد ، مكتبة النهضة ١٩٦٢م .
- بطرس البستانى ، دائرة المعارف ، بيروت ،دار المعرفة ،د . ت .
- بكر إسماعيل ، اللغة العربية في كوسوفا ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مؤسسة ألبابرس ٢٠٠٣م .

- بكر إسماعيل ، اللغة العربية و أثرها في اللغة الألبانية ، القاهرة ، مؤسسة ألبابرس ٢٠٠٣م .
- بكر إسماعيل ،ما هي كوسوفا ، القاهرة ، مؤسسة ألبا برس ، ١٩٩٩م .
- بول كولز ، العثمانيون في أوربا ، ترجمة عبد الرحمن الشيخ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د . ت .
- بيتر شوجر ، أوربا العثمانية ، ترجمة عاصم الدسوقى ، القاهرة ، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٨م .
- بيير نوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، تعريب جلال يحيى ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت .
- جان سوفاجيه كلودكلين ، مصادر دراسة التاريخ الإسلامى ، ترجمة عبد الستار حلوجى و عبد الوهاب علوب ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨م .
- الجبرتى (عبد الرحمن) تاريخ الجبرتى، دار الجيل ، بيروت، ٤ مجلد، د.ت.
- ج . ر . جونز ، حصار القسطنطينية ، ترجمة حاتم عبد الرحمن الطحاوى ، القاهرة ، عين للدراسات ٢٠٠٣م .
- توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة إسماعيل النحراوى وآخران ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م .
- حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة النهضة العربية، ١٩٧٨م .
- حسين مجيب المصري ، صلات بين العرب و الترك و الفرس ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩م .
- حسين مجيب المصري ، معجم الدولة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٩م .
- حمد الجاسر ، غزوات الجراكسة الأتراك في جنوب الجزيرة ، الرياض ، دار اليمامة ١٩٦٧م .

- رجب يشاربويا ، الألبانيون (الأرنـــاؤط والإســـلام) ، الطبعـــة الأولى ، القاهرة، دار السلام ،٢٠٠٤م.
- روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير الســـباعى ، الطبعـــة الأولى ، القاهرة ، دار الفكر ، ١٩٩٣م .
- رولان موسينيه ، تاريخ الحضارات العـــام (القرنـــان الســـادس عشـــر والسابع عشر) نقله إلى العربية يوسف أسعد داغر ، بيروت ، عويـــدات للنشر و الطباعة ٢٠٠١م .
- زياد أبو غنيمة ، جوانب مضيئة في تاريخ الدولة العثمانية ،الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الفرقان ١٩٨٣ م .
- زينب عصمت راشد ،كريت تحت الحكم المصري ،القـــاهرة، الجمعيـــة المصرية التاريخية ١٩٦٤م .
- سالم الرشيدى ، محمد الفاتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩م .
- السيد حسين جلال ، تاريخ الشعوب الإســـلامية في العصـــر الحـــديث، الإسكندرية دار الوفاء ، د.ت .
- سيد محمد سيد (إعداد وترجمة و تعليق) ، دراسات في التاريخ العثماني ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الصحوة ١٩٩٦م .
- السيد محمد يونس ، الإسلام و المسلمون في ألبانيا ، كتاب رابطـــة العـــالم الإسلامى مكة المكرمة عدد ١٤٣ ذو القعدة ١٤١٤هجرية .
- السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول للـــيمن ، القـــاهرة ،مركـــز الدراسات العربية ١٩٦٩م .
- سليم العقاد ، تاريخ الحرب البلقانية ، مصر ، مطبعة الهلال ١٩١٣م .
- شارل ديل ، البندقية ، تعريب أحمد عزت عبد الكـــريم ، القـــاهرة ، دار المعارف ١٩٤٧ م .
- عباس العزاوى ، تاريخ العراق بين إحتلالين ، بغداد ١٩٤٩ م .

- عبد الحميد البطريق ، عصر محمد على ، القاهرة ، الهيئة ا المصرية لعامـــة للكتاب ١٩٩٩م .
- عبد الرحمن حميدة ، جغرافيا أوربا الشرقية ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار الفكر ١٩٨٤م .
- عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية (عصـــر محمـــد علـــى) دار المعارف ، د .ت
- عبد الرؤوف سنّو ، النزاعات الكيانية في الدولة العثمانية ،الطبعة الأولى ، بيروت ، بيسان للنشر ١٩٩٨م .
- عبد السلام عبد العزيز فهمى ، فتح القسطنطينية ، القاهرة ، دار الكاتب العربي ١٩٦٩م .
- عبد العزيز محمد الشناوى ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٩ م .
- عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٨٤م .
- عراقى يوسف محمد ، الوجود العثماني في مصر في القرنين السادس عشـــر والسابع عشر ، القاهرة ، بيت الحكمة للإعلام و النشر ١٩٩٦م .
- عراقى يوسف محمد ، الوجود العثماني المملوكى في مصر في القرن الشـــامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، دار المعارف .
- عزيز سامح التر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشـــمالية ، بـــيروت ، دار النهضة العربية ١٩٨٩م .
- على حسون ، العثمانيون و البلقان ، الطبعة الثانية ، بـــيروت ، المكتـــب الإسلامى ، ١٤٨٦هجرية .
- على سلطان ، تاريخ الدولة العثمانية ،ليبيا، مكتبة طـــرابلس العلميـــة ، د.ت.

- علی محمد الصلابی ، الدولة العثمانية ، القاهرة ، دار التوزيع و النشر ٢٠٠١م
- فاروق عثمان أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦ م .
- القرمانی (أحمد بن سنان الرومي) ، تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، دمشق ، دار البصائر ١٩٨٥م .
- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٩٣م .
- لحد خاطر ، مختصر تاريخ لبنان ، بيروت ، دار صادر ١٩١٤م .
- مجموعة من الباحثين ، دائرة سفير للمعارف الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٠م.
- مجموعة من المستشرقين ، دائرة المعارف الإسلامية ، القاهرة ، مؤسسة دار الشعب ٢٠٠٠م .
- المحبی (محمد فضل الله) ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، القاهرة المطبعة الوهابية ، د . ت .
- محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ١٩٨٥م
- محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، بيروت ، مكتبة صادر ١٩٢٥م .
- محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ و الحضارة ، دمشق ، دار القلم ،١٩٨٩م
- محمد خميس الزوكة ، جغرافية العالم الإسلامى ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٠م .
- محمد رفعت ، تاريخ مصر السياسى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٢٦م .
- محمد سهيل طقوش ، العثمانيون ، بيروت ، دار النفائس ١٩٩٥م .

- محمد السيد غلاب وآخرون ، البلدان الإسلامية و الأقليات المسلمة في العالم المعاصر ، الرياض ١٩٧٩م .
- محمد عتريس ، معجم بلدان العالم ،الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر ٢٠٠١م .
- محمد فريد بك . تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النفائس ١٩٨٣م .
- محمد فؤاد شكرى ، مصر في مطلع القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٨م.
- محمد فؤاد كوبريللى ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، د . ت .
- محمد كرد على ، خطط الشام ، دمشق . مطبعة الترقى ١٩٢٥م .
- محمد الأرناؤوط ، دراسات في التاريخ الحضارى للإسلام في البلقان ، دبي، مؤسسة التميمي،١٩٩٦م.
- محمد موفاكو ، تاريخ بلغراد الإسلامية ، الكويت، مكتبة العروبة ١٩٨٧م .
- محمد يوسف عدس ، كوسوفا ،القاهرة ،دار المختار الإسلامي ٢٠٠٠م .
- مصطفى محمد رمضان ، دور الأزهر في الحياة المصرية ، القاهرة ١٩٨٦م.
- محمود نجيب أبو الليل ، ألبانيا ، القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٩م.
- هـ . ت . نوريس ، الإسلام في البلقان ، ترجمة عبد الوهاب علوب ، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ، د . ت .
- هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد و الإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٧م.
- وسام عبد العزيز ، البوسنة ،الصرب ، كرواتيا ، الطبعة الأولى ، القاهرة، عين للدراسات ، ١٩٩٤م.

- وول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة عبد الحميد يونس ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٩م ، جـ٢ ، مجلد ٦.
- يوسف البستاني ، تاريخ حرب البلقان الأولى بين الدولة العثمانية والاتحاد البلقاني ، مصر ، د ، ت .

سادساً : الدوريات

- توفيق إسلام يحي ،" ألبانيا والإسلام" ، مجلة الأزهر ، جـ٦ ، السنة ٦٠ ، القاهرة ، فبراير ١٩٨٨م .
- توفيق إسلام يحي ،" ألبانيا الإسلامية "، مجلة الأزهر ، جـ٥ ، السنة ٦٤ ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٩١م .
- محمد شفيق غربال ، محمد علي الكبير، أعلام الإسلام عدد (٨) ، القاهرة ١٩٤٤م .
- محمد موفاكو ، " اسكندر بك الألباني "، مجلة العربي الكويتية عدد (٢٩٢) ، الكويت ، مارس ١٩٨٣م .
- محمد موفاكو ، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية ، ، كتاب عالم المعرفة عدد (٦٨) ، الكويت ، أغسطس ١٩٨٣م .
- محمد موفاكو ،" الألبانيون : عدة تسميات لأمة واحدة "، مجلة مجمع اللغة العربية ، المجلد (٦٣)، دمشق ،يوليو ١٩٨٨ م .
- محمد موفاكو ، " الدين والمسألة الدينية في ألبانيا "، مجلة العربي ، عدد (٢٣٩) ، الكويت ، أكتوبر ١٩٧٨م .
- محمد موفاكو ، " اليمن وألبانيا ، صلات نضالية في مطلع القرن العشرين " ، مجلة العربي ، عدد (٢٦٣) ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٠م .
- واصو باشا ، " ألبانيا و الألبانيون " ، ترجمة نجيب البستاني ، مجلة الجنان اللبنانية ، بيروت ، أعداد سنة ١٨٨٢ م .
- وهبي سليمان الألباني ،" ألبانيا المسلمة "، منار الإسلام ، عدد (١١) السنة العشرين ، القاهرة ، مايو ١٩٩١م .

سابعاً: المراجع الأجنبية

- Akademin E shkencave Te shqiperise , Historia Epopullit Shqiptar, Tirana.
- Ali Musa Basha , Islami Ne Shqiperi gjate shekujve, Tirana 2000.
- Anton logoreci, the Albanians Europe s forgotten survivors, London 1977.
- Avlia Çelebi , Avlia Çelebi Seyahatnamesi ,Istanbul .
- Aydin Taneri , Osmanli Devletinin Kuruluş Döneminde Veziri Azmalik , Ankara1974.
- Barbara jelavich. History of the Balkan , Combridge University press.
- Edith Durham, Albania past and present , Asiaw affairs.part 1 Germany 1917.
- Gibb Hamilton and Harold Bowen , Islamic society and the west, Oxford Univrsity , 1957.
- Halil Inalçik , Arnavutluk Ta Osmanli Hakimiyetinin yerlesensi ve Iskender Bey Isyanin menşei ,Istanbul 1953.
- Halil Inalçik, The Ottoman Empire 1300- 1600 , translated by Norman Itzkowitz and Colimimber , Newyork ,1973.
- Halil Inalçik , Fatih devri vzerinde tetkikler ve vesikale, Ankara 1954.

- kristo Frasheri, Skenderbeu , Tirana 2002.
- Machiel Kiel , Ottoman Architecture in Albania 1385-1912, Istanbul 1990 .
- M . Gamille. Paganel , Histoire De Scander Beg , Paris,1955.
- Malcolm Noel , Kosovo (Ashort history) London 1998.
- Milan Shufflay , Sërbt Dhe Shqiptaret , Prishtine1968.
- Motofcieva v , Agrerian Relationsim the Ottoman Empire in the 16th century (Boulder Colorado)1988.
- Nouray Bozbora, Osmanli yonetiminde Arnavutluk , Istanbul , 1997.
- Osmanli Tarihinin Orastirmasinin Genel Dergisi, Arnavutluk Maddesi ,Ankara Universitesi 1991.
- Peter Bartl , Arnavutluk Müslumanlari 1878-1912 , Istanbul1998.
- Puto Arben and Pollo Stefanaq , the History of ALbania , London 1981.
- Ramadan Marmulloku , Albania and Albanians,London
- Raymond zikel ,Walter R iwaskiw , Albania acountry study ,U. S . A 1994.

- Sami Frasheri , Shqiperia Cka Qene Ceshte E Çdote Bëhetë , Prishtinë 1978.
- Stavro Skendi , The Albanian National Awakening 1878-1912 ,New Jeresy 1967.
- Suleyman Kulçe , Osmanli tarhinde, Arnavutluk, Izmir 1944.
- Tajar Zavalani, Histori E Shqipnis , vol 1 london 1957.

المحتويات

ملخص

يتناول هذا البحث دراسة " ألبانيا فى ظل الحكم العثماني "كواحدة من ولاياها فى أوربـــا منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن العشرين ، ودراسة أحوالها السياسية والاقتصـــادية و الاجتماعـــية والثقافية والدينية ،ودور الألبانيين فى خدمة الدولة العثمانية.

وقد جاءت هذه الدراسة فى تمهيد جغرافي و تمهيد تاريخي و أربعة فصول .

تضـــمن التمهـــيد الجغـــرافي تعـــريف بدولة ألبانيا الحالية ، من حيث موقعها ومساحتها ومظاهرها الطبيعية وسكاها وأنشطتهم ...الخ .

وفي التمهـــيد التاريخي تعرضت لأصل الألبانيين ، واشتقاق اسمهم ، وأحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل الحكم العثماني .

أمـــا الفصل الأول ، فتناولت فيه التوسع العثماني في البلقان ،ثم الفتح العثماني لألبانـــيا ، بدايته وظروفه، وموقف الألبانيين منه ، وتمرد إسكندر بك أحد زعماء الألبان ، وتقييم حركته .

وفي الفصـــل الثاني ، ناقشت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ألبانـــيا في ظل الحكم العثماني والأنظمة التي سار عليها العثمانيون كنظام التيمار ونظام الأعيان ، ثم تحدثت عن قوانين وعادات الألبانيين الاجتماعية .

أما الفصل الثالث ، فتناولت فيه الحياة الثقافية والدينية ،من خلال دراسة أصل اللغـــة الألبانية ، والتطورات التي مرت بها ، ودراسة النهضة الأدبية والعلمية التي شهدتها ألبانيا ، ثم تحدثت عن سياسة العثمانيين الدينية تجاه رعاياهم في أوربا بوجه عام وفي ألبانيا بشكل خاص ، وعوامل انتشار الإسلام بين الألبانيين .

أمـــا الفصـــل الـــرابع ، فتضـــمن دور الألبان في خدمة الدولة العثمانية ، منذ خضـــوعهم لها وحتى سقوط الخلافة العثمانية ، من خلال المناصب والوظائف التي أســـندت إلـــيهم وبـــرزوا فـــيها كمنصـــب الصـــدر الأعظـــم أو كـــولاة وقادة وجنود .

Synopsis

The research is a study of "Albania under the Ottoman reign" as one of its states in Europe since the 14th century until the 20th century and the study of its political, economic, social, cultural and religious circumstances.

Additionally, the research discusses the role of the Albanians in serving the Ottoman State.

The study consists of two introductions, geographic and historic, and four chapters.

The geographic introduction gives a definition of the present Albania, its location, area, natural features, its population and their activities, etc.

The historic introduction the research deals with the origin of Albanians, the derivation of their name and their political, economic and social status before the Ottoman reign.

In the first chapter, the study deals with the Ottoman expansion in Balkan, then the Ottoman conquest of Albania - its beginning and circumstances, attitude of the Albanians towards it, the rebellion of Eskender bey and assessing his movement.

In the second chapter, the research discusses the political, economic and social circumstances in Albania under the Ottoman reign and the systems adopted by the Ottomans such as; the

Timar system, the nobles system, agriculture, industry and commerce. The study discusses after that the social laws and habits of the Albanians.

The third chapter discusses the cultural and religious life through the study of the origin of the Albanian language and the development it underwent and through the study of the literary and scientific renaissance that Albania witnessed. The study subsequently discusses the Ottomans' policy towards their subjects in Europe in general and in Albania in particular and the factors of the spreading of Islam among the Albanians.

The fourth chapter includes the role of the Albanians in serving the Ottoman state, since its submission until the collapse of the caliphate through examining the posts and positions the Albanians held where they proved to be prominent such as the position of Al-Sadr Al-A'zam, governors, leaders and soldiers.

History Department
Faculty of Arts
Ain Shams University

Albania under the Ottoman Reign
(1478- 1912)

thesis for obtaining the master degree in modern history

Prepared by

Ashraf Nabih Abdulgaleel

Under the supervision of

Prof \ Adal Hassan Ghonim

Dr \ Iraqi Youssef Mohamed